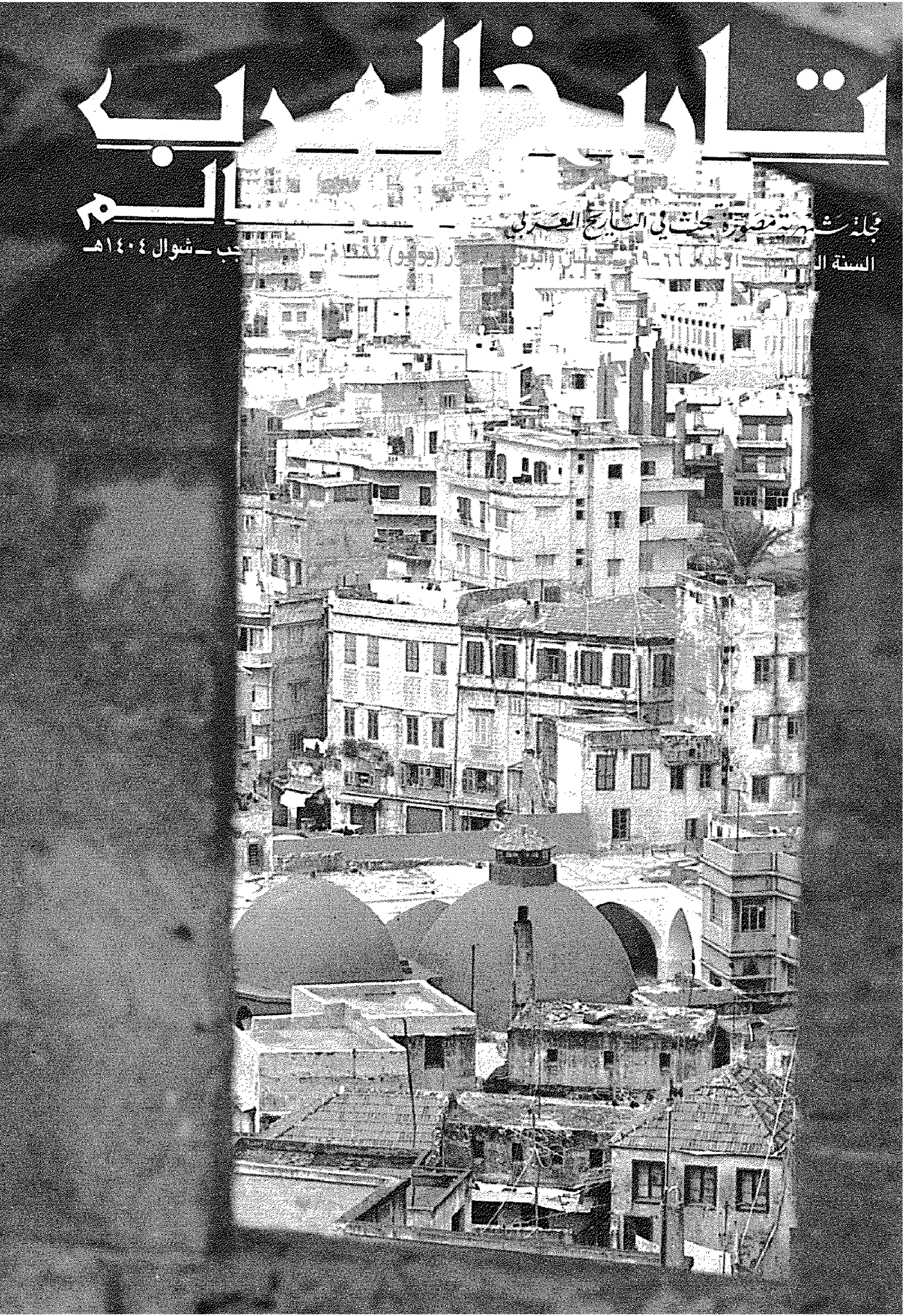
تاريخ العرب والعالم

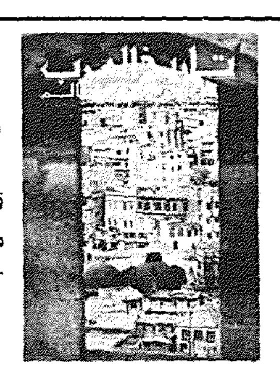
مجلة شهرية مصورة تبحث في التاريخ العربي

السنة ال[illegible] الأعداد ٦٦ـ٦٩ [illegible] (يوليو) [illegible] ـجب ـ شوال ١٤٠٤هـ



□ صورة رسالة النبي (صلعم) إلى المنذر بن ساوي.

من كتاب: دراسات في تاريخ الخط العربي. تاليف: الدكتور صلاح الدين المنجد. دار الكتاب الجديد ـ بيروت.



الغلاف الأول
□ طرابلس من نافذة قلعتها «سان جيل».
من كتاب: Lebanon:
Fulvio Roiter

تاريخ العرب والعالم

الأعداد ٦٦ ــ ٦٩ • نيسان ــ تموز ١٩٨٤

تصدر عن دار النشر العربية للدراسلت والتوثيق في منتصف كل شهر

صاحبها ورئيس تحريرها : **فاروق البربير**

المستشار : د. **أنيس صايغ** المدير المسؤول : **محمد مشموشي**

قسم التوثيق والأبحاث : **شذا عدرة**

قسم التوزيع والاشتراكات : **علي عبدالساتر**

المخرج الفني : **سالم زين العابدين**

الانتاج : **مطبعة المتوسط ش.م.م.**

التوزيع : **الشركة اللبنانية لتوزيع الصحف والمطبوعات**

ثمن النسخة

لبنان	١٢ ل.ل.	سوريا	١٢ ل.س.
العراق	١ دينار	تونس	١,٥ دينار
السعودية	١٠ ريال	الكويت	١ دينار
الأردن	٨٠٠ فلس	الامارات	١٠ درهم
البحرين	١ دينار	قطر	١٠ ريال
مسقط	١٠٠٠ بيزة	بريطانيا	١,٥ جنيه
صنعاء	١٠ ريال	ليبيا	١ دينار
		مصر	١ جنيه

الاشتراكات
(بما فيها أجور البريد الجوي)

- في لبنان: للأفراد ١٠٠ ل.ل.
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٢٥٠ ل.ل.
- في الوطن العربي: للأفراد ٣٥ دولاراً
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٧٥ دولاراً.
- خارج الوطن العربي: للأفراد ٥٠ دولاراً.
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ١٠٠ دولاراً.
- اشتراك تشجيعي ٥٠٠ ل.ل.
- تدفع قيمة الإشتراك مقدماً نقداً أو حوالة مصرفية

ص.ب. ٥٩٠٥ ــ بيروت. لبنان • بناية أبو هليل
شقة ١١ • شارع السادات ــ تلفون: ٨٠٠٧٨٣

HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD

EDITED BY FARUK BARBIR
PERIODICAL ILLUSTRATED
MAGAZINE PUBLISHED FROM SADATE ST.
ABOU HILEIL BLG. P.O.B. 5905 TEL. 800783
BEIRUT . LEBANON

Vol. 6 • No. 66-69 • April — July 1984

ANNUAL SUBSCRIPTION : $100 (INCLUDING $25 FOR ADDITIONAL AIR MAIL CHARGES)
MAIL ALL COMMUNICATIONS, INCLUDING SUBSCRIPTIONS TO:
«HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD»

في هذا العدد

■ المقالات الواردة توزّع حسب التبويب الفني للمجلة ولا علاقة لذلك بمكانة الكاتب. مع حفظ المكانة الإجتماعية للكتاب. تراعى في الألقاب الصفات العلمية فقط ■

- **المقالات والدراسات ترسل باسم رئيس التحرير على عنوان المجلة ص.ب ٥٩٠٥ في بيروت.**
- **المقالات والدراسات التي تنشر لا تعبّر بالضرورة عن آراء المجلة.**
- **المواد الواردة إلى المجلة لا تردّ إذا لم تنشر.**

الخط العربي في الحضارة الإسلامية

كانت الكتابة العربية قليلة عند العرب، قبيل الإسلام، فهي تتبع الحضارة والعرب حينئذ أمة بداوة. لكن اختلاطهم بالقبائل المتحضرة المجاورة بأسباب التجارة، واتصال هذه القبائل بالحجاز لغرض الحج حفزت العرب إلى تعلم كتابتهم.

روي عن سمرة بن جندب قال: نظرت في الكتابة العربية، فوجدتها قد مرّت بالأنبار قبل أن تمر بالحيرة[1].

أما النقوش التي عثر عليها، فتدلّ على اقتباس العرب كتابتهم من صور الكتابة النبطية، وهم أيضاً قوم عرب. «ظهرت دولتهم في شبه جزيرة سيناء على أنقاض الدولة الأدومية وكانت عاصمتها سلع، وباليونانية بترا. ومن هنا امتدت إلى صحراء سوريا حتى شملت دمشق وأطراف نهر الفرات من ناحية كما أنها توغلت في بلاد الحجاز من ناحية أخرى»[2].

وكان من خصائص الكتابة النبطية وصل الحروف. واستعملت حروفاً للابتداء مغايرة لصور حروف الانتهاء للتفريق بين الكلمات. وكانت كتابتهم خالية من الأعجام، وتؤدي بعض الحروف أغراض الأخرى. ومن مميزاتها حذف الحركات الممدودة مثل مالك، تكتب ملك، والنبين، بياء واحدة.

وانتشرت الكتابة النبطية لتظهر روحها في الكتابة العربية الجاهلية وذلك في القرنين الخامس والسادس الميلادي، كما شوهد في نقش زبد المؤرخ سنة ٥١١م، ونقش حران سنة ٥٦٨م[3].

* القيت هذه المحاضرة في المؤتمر التاسع للآثار، الذي نظمته جامعة الدول العربية (المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم-إدارة الثقافة) في صنعاء، ١٦ — ٢٢ شباط ١٩٨٠.

يؤدي الخط العربي غرضين: أولهما، الإبانة عن معاني الألفاظ مثل سائر الكتابات، وثانيهما، عرضه في رسوم تجريدية جميلة، فصارت من أهم الفنون التي انتجتها الحضارة الإسلامية، فقد واكبها من بدايتها، ولا يزال شاهداً على تطورها ونموّها.

والمواضيع التي سنتعرّض لها هي: نشأة الكتابة العربية، ثم تطورها في المصاحف لارتباطها به، ثم مساهمة الأئمة الثلاثة في الخط وهم: ابن مقلة، وابن البواب، وياقوت المستعصمي.

ونرى بعد ذلك، الفروق بين الخط اليابس واللين الذي اختير للكتابة في كل المجالات. وكانت الأدوات التي ينتج بها الخط هي القلم، ثم نتطرق إلى أهم المدارس الموجودة للخط، ثم نذكر بعض أدوات الكتابة وآدابها. ولاكتمال أبعاد هذا البحث نتعرّض للخطاط وشخصيته، وميادين إنتاجه ثم نتعرّف على أعمال الخطاطين في مجال اللوحات الخطية، والمصاحف الشريفة.

وقد حاولنا قدر الاستطاعة شرح المقال بالصور، فهي أوضح طريقة للوقوف على أصالة الخط العربي. والنص الذي لم نوفق إلى عرض ما يناسبه، سيكون مصحوباً بالزخارف والخطوط المتنوعة.

■ د. محمد شريفي

بعث النبي (ص) ونزلت عليه أول آيات القرآن تحث على القراءة، وتنسب العلم للقلم، وأقسم الله تعالى في آية أخرى به وهي: «ن والقلم». وأمرت آيات الدين بالكتابة بين المتداينين[4].

وكانت فدية الأسرى المشركين الذين يعرفون الكتابة، في غزوة بدر تعليم عشرة صبيان من المسلمين.

واتخذ النبي (ص) الكتبة لتدوين القرآن بين يديه فور نزوله، واشتهر منهم الصحابة رضوان الله عليهم، علي بن أبي طالب، وعثمان بن عفان، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت[5].

وفي خلافة عثمان بن عفان جمع القرآن الكريم في مصحف واحد. وقال الداني: أكثر العلماء على أن عثمان بن عفان لما كتب المصحف جعله على أربع نسخ، وبعث إلى كل ناحية من النواحي بواحدة منهن: إلى الكوفة والبصرة والشام وأمسك عنده واحدة[6].

لم تحفظ القرون السوالف إحدى تلك النسخ، وأغفل الراوون وصف خطه ما عدا ملاحظات عامة مثل التي ذكرها ابن كثير في ذيل تفسيره حين رأى النسخة التي كانت بطبرية، ونقلت في حدود ثمان عشرة وخمسمائة هجرية إلى جامع دمشق. وقال: «وقد رأيته كتاباً جليلاً ضخماً بخط حسن مبين قوي بحبر محكم، في رق أظنه من جلود الابل»[7].

وتوجد في متحف طوب كابي باستانبول نسخة معروضة عليها آثار دماء تنسب إلى سيدنا عثمان بن عفان حين مقتله. ولكن جودة خطها وصناعته تبعدها عن كونها هي المصحف الأمام. وتظهر مقارنتها مع النسخة المحفوظة في المتحف الإسلامي باستانبول أيضاً أولوية هذه في القدم عن تلك، وقد أشار بذلك مدير متحف طوبكابي.

ونسخة المتحف الإسلامي بها تطريس، وهي إعادة الكتابة على المكتوب والصنعة بادية عليها.

ومن النسخ التي عليها آثار الدماء نسخة جليلة محفوظة مع كنوز متحف طشقند. وقد شاهدناها سنة ١٩٦٨م. وإن الزخارف الفاصلة بين صورها والدّقة المتناهية في مطاتها خصوصاً حروف الباء الراجعة. تجعلنا نذهب إلى ما ذهب إليه الدارسون الأجانب حين سجلوا في أوائل النسخ المصوّرة عنها، أنها نقلت عن أحد المصاحف الأئمة.

والروايات أيضاً تذهب مؤيدة إلى «أن خط الطومار هو قلم مبسوط كله ليس فيه شيء مستدير». وكثيراً ما كتبت به مصاحف المدينة القديمة[٨].

ونحن نرى بكل اطمئنان أن الله أراد لها الفناء بعد أن قامت بمهمتها أحسن قيام وهي حفظ القرآن بالتواتر في الصدور، وإجماع المصاحف الكثيرة المكتوبة عن هذه المصاحف الأئمة.

وقد كتب الله من قبل أن تشقق الصحف التي جمع منها المصحف الامام. وكانت قد أرجعت إلى حفصة فلما ماتت أمر بها مروان فشققت وقال: «إنما فعلت هذا لأني خشيت أن طال بالناس زمان أن يرتاب في شأن هذه الصحف مرتاب»[٩].

وإننا لنجد في المصاحف الناقلة عن المصحف الامام، دلالة قوية على أن المصاحف الأئمة كتبت على ذلك النحو. لأن الناقل سيتأثر حتماً بالخط الذي ينقل عنه. ناهيك إذا عزم على التقليد تقديساً للمكتوب، وربما قلّد أيضاً الدماء فسكبها على أوراقه لذلك نرجح أن تكون خطوط المصاحف العثمانية على منوال المصاحف التي بقيت آثارها. إلا أن هذه بها مسحة من التجويد والتحسين التي أضافتها الكوفة على الكتابة لما انشئت، ونزل بها قوم من اليمن وقد عرفوا بخطهم المسند. وبعد ذلك أطلق اسم الكوفي على الخطوط اليابسة.

وعند مقارنة الخط المبسوط أو الكوفي مع خط المراسلات المسمى بالمقور الذي وصل إلينا في البرديات في القرن الأول، لا نجد اختلافاً في الهيكل ولا في الخصائص، أو في الوصل والفصل. وما المقور إلا أن زواياه محذوفة منه ومكتوب بسن حادة مع صغر الخط وقلة الورق. بينما الخط الكوفي مسجل بقلم عريض له سمك وزاويتان. ويستلزم تسطيره مدة من الوقت والتأني.

وكلما أسرع الكاتب لليونة المادة التي يكتب عليها، مال إلى التدوير، ويلاحظ ذلك في الشاهد المكتشف في أسوان الذي يحمل تاريخ سنة إحدى وثلاثين هجرية. فإن الكاتب قد ضيق في السطور الأولى وعندما قرب النص من نهايته وبقي الفراغ واسعاً، أسرع في خطه فمال إلى الليونة رغم قساوة المادّة التي سجل عليها[١٠].

ولما شاعت الكتابة وقراءة القرآن في الأمصار، وقع التصحيف، فطلب زياد بن أبيه والي البصرة من أبي الأسود الدؤلي فوضع نقطاً في المصحف للحركات الثلاث والتنوين.

وكان الإصلاح الثاني في زمن الحجاج بن يوسف حيث طلب من يحيى بن يعمر ونصر بن عاصم إدخال نقط الأعجام للتفريق بين الحروف المتشابهة ثم جاء الخليل بن أحمد بعد قرون من الزمان فأبدل الشكل بالعلامات المستقرة حتى زماننا هذا[١١].

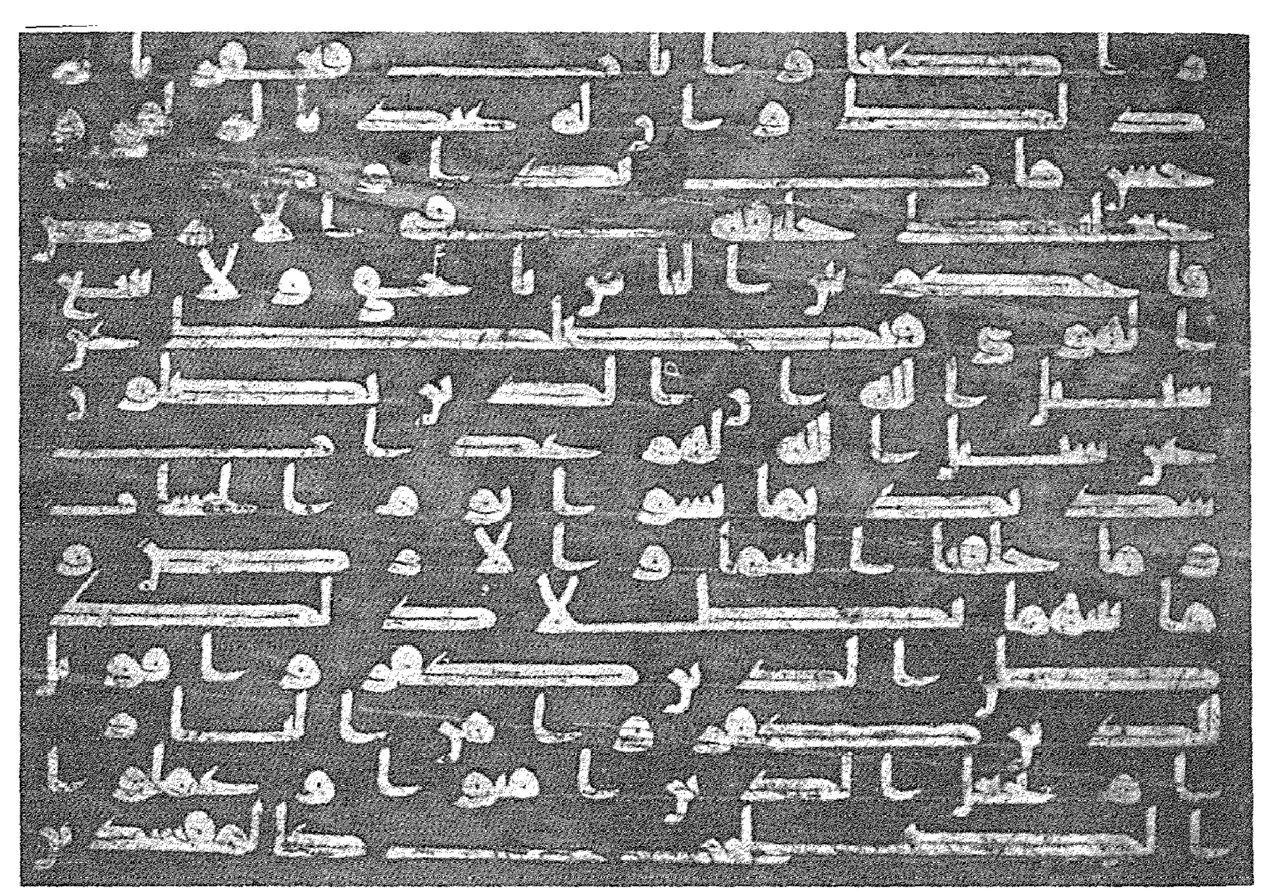
تنافس الخطاطون والوراقون في تجويد الخط، وسارت الكتابة نحو الليونة لسهولتها ولكونها أقرب إلى الحضارة من اليابسة البدائية التي تتحكم فيها المواد المسجلة عليها.

وأشهر من طور الخط وضبطه هو ابن مقلة[١٢] ولم تصل إلينا خطوطه بعد، ولو أن أحد الباحثين قد ذكر لي أنه يملك ثلاثة نماذج من خطه المصحفي مع العلم أن ابن مقلة قال أنه كتب المصحف دفعتين[١٣].

وباستقراء الروايات والنظر إلى خطوط من بعده، نرجح أن يكون خطه شبيهاً بالمسمى، الخط «نصف كوفي» فهو الذي بدأ هندسة الحروف بنسب فاضلة وقواعد جمالية، وأضفى الليونة عليها بمقادير موزونة، وهذه الرواية توضح ما ذكرناه.

روى المقري ما يلي: وقال ابن خليل السكوني في فهرسته:

«شاهدت بجامع العديس بأشبيلية ربعة مصحف في أسفار ينحى به لنحو خطوط الكوفة إلا أنه أحسن خطاً وأبينه وأبرعه وأتقنه، فقال لي



□ صفحة من القرآن الكريم بالخط الكوفي.

الشيخ الأستاذ أبو الحسين بن الطفيل بن عطية: هذا خط بن مقلة» ثم قال: «ثم قسنا حروفه بالضابط فوجدنا أنواعها تتماثل في القدر والوضع، فالالفات على قدر واحد، واللامات كذلك، والكافات والواوات وغيرها بهذه النسبة»[١٤].

ولعل أبلغ مدح قيل في خطه ما سمعه التوحيدي حين سأل عبدالله بن زنجي: ما تقول في خط بن مقلة قال: «ذاك نبي فيه أفرغ الخط في يده كما أوحى إلى النحل في تسديد بيوته».

ولكن كيف هندس ابن مقلة الكتابة العربية، وما سرّ جمالها واعتدالها؟ كانت الحضارة الاسلامية في القرن الثالث في تقدم وازدهار، وكان المسلمون لا يرفضون الجديد بل يدرسونه ويأخذون أحسنه، ويضيفون حتى يتلاءم مع معيشتهم، ويكسونه بمسحة من أذواقهم حتى لا تكاد تجد أصولاً لاقتباساتهم.

وترجمت العلوم اليونانية والحضارات الأجنبية إلى العربية، ونجد إخوان الصفا يقرون بالنسب الفاضلة، وهي: «المثل، والمثل والنصف، والمثل والثلث، والمثل والربع، والمثل والثمن»[١٥].

ويذكرون أن تركيب الكتابة هي على تلك النسب، وهندستها على مقياس طول الألف الذي هو قطر الدائرة الضابطة لحروف المعجم. ولا يضيرنا أن نقول إن العلوم الأجنبية قد سبقت إلى هذه النسب. فاننا سنجد الخط العربي في مظهره بعيداً كل البعد عن الهندسة البحتة، أو لها شبه أو صلة بالحروف الأجنبية. فقد أخذ الفنان المسلم منها هيكلها ونسبها الجمالية ثم كساها بالترطيب اللائق بالذوق العربي. ومثاليته في ذلك الوضوح والاختزال والجمال.

ونجد الدليل الثاني في محاورة عابرة في كتاب «مثالب الوزيرين» للتوحيدي. إن صديقاً لابن ثوابة الكاتب أبي العباس[١٦] يكنى أبا عبيدة قال له ذات يوم أنك رجل بحمد الله ومنه، ذو أدب وفصاحة وبراعة وبلاغة، فلو أكملت فضائلك بأن تضيف إليها معرفة البرهان القياسي

وعلم الأمثال الدالة على حقائق الأشياء، وقرأت كتاب أقليدس وتدبرته. فقال له ابن ثوابة وما اقليدس؟ قال له: رجل من علماء الروم يسمى بهذا الاسم وضع كتاباً فيه أمثال كثيرة مختلفة تدل على حقائق الأشياء المعلومة والمغيبة، يشحذ الذهن، ويدقق الفهم ويلطف المعرفة، ويصفي الحاسة، ويثبت الرؤية، ومنه أنتج الخط، وعرفت مقادير المعجم[١٧]...

ونرى أن ابن مقلة الذي هندس الخط اللين كان قد درس تلك المقاييس وتلك النسب فاشتهر بذلك.

وهناك فروق واضحة عند مقارنة الخط الكوفي باللين الذي ظهر تاماً في ابن التواب فقد ارتبط الكوفي بأصوله فكان في بعض حروفه آثار الحروف المفردة.

أما اللين فأهم مميزاته، هندسته على نحو مختزل، ووضع الحروف الموصولة في ربط محكم، قاعدته الأساسية تسيير القلم إلى الأمام. وهذه هي الميزة التي نود الفات النظر إليها وشرحها. وهي موجودة في مواضع الاتصال، علماً بأن بعض الحروف لا يتصل بها ما يليها، وهي: الألف والدال والذال والراء والزال والواو. لكي لا تشتبه بالحروف الأخرى. ويرسم الحرف بكامل صورته في آخر الكلمة علامة لانتهائها. ونوضح مثال الاتصال في ثلاث مركبات. أولها «ىىحسعفمهها».

أول هذه الحروف هي السين التي تمثل الباء وأخواتها والنون والياء في الابتداء، والثانية تمثل الحروف السابقة الذكر في الوسط. وقد رسمت في الكوفي على هذه الصورة (ـلحـ) فنضطر إلى رفع القلم لرسم الجيم، أما في اللين فصارت على هذين الصورتين (ـحـ ـكـ)

وتسير السين إلى قدام بلا رفع القلم. وللعين رجوع إلى اليمين ولكن بلا رفع للقلم، ويعكس سيره للحصول على مثلث موزون. وقد رسمت قديماً على شكلها في الابتداء (ـعـ) ثم تطورت في الكوفي إلى هذا الشكل (ـلا)، ثم اتصل طرفاها من أعلى فرسمت بخط سير واحد (ـعـ) والفاء والقاف على شكل معين وكانت في الكوفي على صورة واحدة في الابتداء والتوسط (ـوو) ثم تطورت إلى هذا الشكل (ـعـ). ورسمت صورتها الأخيرة في اللين على هذا الشكل (ـڡـ).

وأما الميم فهي على عدّة أشكال نكتفي في الاتصال على شكلين فهي مثل الفاء إلا أن رأسها يوجد أسفل الربط (ـمـ) والشكل الثاني فيه رجوع قدر نقطة (ـمـ).

والهاء بنوعيها المشقوق والمدغم، مثل الميم بتكرار مثالها من أعلى (ـهـا) وترسم الألف بالصعود بها، وكانت في الكوفي ترسم من أعلى لذلك ينزل نتوؤها تحت السطر (ـا).

ثانيها: بها حرفان، يفرش الأول للثاني للاتصال تدريجياً حتى يلتصقا ويتحدا في سمك واحد وهما الصاد والطاء (ـصط) وقديماً ترسم الطاء ابتداء من قائمها.

ثالثها: عن القوائم، وهذه يضطّر فيها للرجوع إلى السطر. ولكن تبدو على صورة فنية طبيعية، رسمت على قاعدة تفريع البنات ومثال ذلك: (ـكلك) والكاف المشكولة تزاد شكلتها عند التوسط وقد يستغني عنها وتعرض بكاف صغيرة (ـكـ) ويصعد باللام ويرجع بها في التوسط. والكاف المعرات في التطرف في حكم اللام، وكذلك الدال والهاء المردوفة (ـلده) وقد كانت الكاف والدال على صورة واحدة في الابتداء والتوسط. والتطرف وبهذه الطريقة الشيقة اختزلت الكتابة فاستلذت الأنامل، واستحسنتها الأعين، وهي تتابع انسيابها بكل ارتياح.

ونرى أن الخط العربي لم توضع أصوله اعتباطاً، أو كما اتفقت أذواق الكتاب أو نزوات الوراقين، ولكنه رسوم مدروسة وموزونة أخذت بنسب متوازنة مقدرة من الخطوط المستقيمة والمستديرة حتى سميت بالكتابة المنسوبة. وأدى التناوب بينها في الحرف والكلمة إلى قيم جمالية تجمع بين الرقة والقوة واليبس والليونة.

ولكي تحفظ تلك النسب وضعت لها مقاييس تضبط بها. فتقاس طولها بشعرات البرذون، توضع متتابعة لقياس طول الألف على ما في ذلك من عناء. وأما أجزاء الحروف فتقاس بالمثل والنصف والثلث والثلثين.

وللحفاظ على انسجام الحروف، وضعت قواعد تنص على مواضع المط أو المد في الكلمة الثنائية والثلاثية والرباعية. وقيدت الحروف التي تعادل

حرفين لحفظ توازن الكلمة ونظام السطر. كل هذه القواعد قد كملت منذ القرن الثالث، ووردت مفصلة في كتاب الصاجي لابن فارس المتوفي سنة ٣٩٥هـ.

ثم جاء دور علي بن هلال المشهور بابن البواب، كان في أول أمره مزوقاً يصور الدور ثم صور الكتب، ثم تعاني الكتابة ففاق فيها المتقدمين وأعجز المتأخرين وكان يعظ بجامع المنصور[١٨] وتتلمذ على أستاذه محمد بن أسد[١٩].

بعد مصحف ابن البواب الذي فرغ من كتابته سنة إحدى وتسعين وثلاثمائة أقدم مصحف موجود بالخط اللين. وقد كمل فيه الربط بين الحروف ولا يأتي جديد بعده إلا التحاسين وتغيير بعض النسب وتحريف القلم. ومن أهم الدلالات على مكانة ابن البواب تقليد الطيبي في مصر لخطوطه، فقد جمع في القرن العاشر كتاباً به نماذج لستة عشر قلماً نسبها لابن البواب. مما يدل على استمرار طريقته إلى ذلك العهد. وقد برز مجودون كانت لهم مدارسهم ولكن ابن البواب كان له شرف السبق وفضل الاجادة، وحق الأستاذية.

وتنسب عدّة أعمال لابن البواب، ولكن الدارسين ينظرون إليها بحذر وريبة وتثبت فقد كثر تزوير خطوطه وتوقيعها باسمه لشهرته وللاثمان الباهظة التي تدفع في سبيل الحصول على توقيعه.

ولكي نقدر فنه فإنه يجب أن نراه بالمقارنة مع سابقيه، مع استحضار حضارة زمنه وذوق عصره. فإن للزمن الفاصل بيننا وبينه رقياً وتطوراً جيدين في مجال الخط العربي وتوفي ابن البواب ببغداد سنة ٤٢٣هـ ـ ١٠٣٢م.

ثم يأتي في القرن السابع دور ياقوت المستعصمي[٢٠] الملقب بقبلة الكتاب، والمشهور عنه نسخ ألف مصحف ومصحف. وإن الاختراع الذي أدخله على الخط وبقي معمولاً به حتى الآن، هو تحريف قطة قلمه التي نتج عنها رسم الخطوط الأفقية بكامل سمك القلم، والخطوط القائمة بثلثي سمك القلم، وما بين القوائم والأفقيات سمك متدرج بين النسبتين على قدر ميل القلم ودورانه وتم بذلك أهم مميزات الخط العربي.

ويمكننا الآن أن نطلع على أحد أسرار الخط العربي بتتبع سير القلم: إن سنه مركب من صدر أو عرض، وزاويتان يمنى ويسرى. وفي الصورة فرقنا بين الزاويتين لتوضيح سير القلم، فنرى كيف تتعاقبان في سيرهما وتبتعدان وتلتقيان ثم تفترقان في تدرج وانسياب. وتختزل احداهما خط سيرها عند المنعرجات بينما تواصل الأخرى دورانها، وتتقاطعان وتتناوبان مكانيهما يمنة ويسرة. ومنظرهما العام يوحي بوضع أسفلهما ظلاً للأخرى التي تعلوها. وهذه الخطة في سير القلم هي التي تبنى سراً من أسرار الخط العربي المتمثل في الأشكال المختلفة التي يتكون منها الحرف. أما الحشوات التي زدناها في الرسم فيضعها عند الكتابة عرض القلم الذي يفصل السن الأيمن عن الأيسر.

هذا ما أنتجه الأئمة الثلاثة في الخط اللين وهم ابن مقلة وابن البواب وياقوت المستعصمي. وهو ما يمكن أن نطلق عليه المدرسة العراقية ويكفيها فخراً أنها أرست قواعد الخط وفنونه.

ولقد كانت دار الخلافة هي الرائدة في تحسين الخط العربي، وإشاعته في الأقطار الاسلامية عن طريق المراسلات الرسمية، وبواسطة الوفود والتجار الذين يجلبون المخطوطات إلى أوطانهم فحيثما انتشر الإسلام شاع الخط فيه وقلد أجوده وتنافس الكتّاب في تحسينه. ولما انقرضت الدولة العباسية في العراق، لم ينقرض الخط العربي معها لأن كل الأقطار كان بها خطاطون وكتبة.

المدرسة المصرية

ولقد ساهمت المدرسة المصرية في كل الأزمان بمجودي الخط فيها واشتهر في العهد الطولوني طبطب[٢١] واعتنى المماليك في عهودهم بالفنون أيما اعتناء. وكتبت المصاحف الكريمة ذات الخط الجليل، والزخارف الغنية المتقنة، وبنيت المساجد، واشتهر بعض أئمة الخط العربي، مثل الزفتاوي الذي كتب رسالة عن الخط، ونظم شعبان الأثاري ألفية عنه، وألف ابن الصايغ في

القرن التاسع تحفة عن الخط كما كتب مصحفاً جليلاً. وكل هذه الأعمال لا تزال محفوظة.

المدرسة الشامية

أما المدرسة الشامية فقد اشتهر بها الضحاك واسحق بن حماد في عهد الدولة العباسية، وعرف عن الأتابكة تحسين النسخ الذي بدأ استعماله في أغراض التدوين وفي كتابة المصاحف. ويروي ياقوت: «أن الحسن بن علي بن مقلة كان منقطعاً للكتابة عند سيف الدولة وأفرد له داراً قوراء، بها حوض للأقلام والمحابر، وعدة مجالس يتناوب الكتابة فيها»[٢٣]

المدرسة الفارسية

استعمل أهل فارس الخط العربي بدل خطهم بعد دخولهم الإسلام، وابتكروا خط التعليق وكان إضافة قوية أثرت بالخط العربي، له مميزاته الخاصة فهو متأثر بالتصوير. ويتدرج بين الدقة والغلظ، بلغوا به درجات عليا من الجمال والكمال. واشتهر فيهم شاه محمود وعماد الحسني وسلطان علي. وعلي رضا عباس.

المدرسة المغربية

تشمل هذه المدرسة الأندلس والمغرب العربي. فقد جودت الخط الكوفي في القرون الخمسة الأولى للهجرة. وعندما لينته لأغراض التدوين حافظت على عدة حروف منه على حالتها في الكوفي، وكانت أنواع الخطوط قليلة، وفروقها ضئيلة وليس لها قواعد تضبطها، ونرى أن مرد ذلك إلى رقعتها الضيقة. وتعاقب الدويلات في تاريخها. ولكنها اعتنت كثيراً بالمصحف الشريف، قراءة وضبطاً وتجليداً.

المدرسة التركية

بدأت بوادر الخط الجميل في تركيا منذ أوائل القرن السابع الهجري، وتمثلت في مصحف كتب في مدينة قونية اعتبرناه فاتحة عهد الخط النسخي الذي سترسوا عليه كتابة المصاحف إلى يومنا هذا. واشتهر خطاطون بعد ذلك أمثال عبدالله الصيرفي، وأسدالله كرماني، وأحمد قرة حصاري.

وفي القرن العاشر، أجاد الشيخ حمدالله الخطوط الستة وكان أستاذاً للسلطان بايزيد الثاني، ونسب إليه وضع مقاييس الخط بنقط القلم المربعة الذي يكتب به. واشتهر بعده حافظ عثمان، ونشطت حركة الخط العربي، وسهر عليها السلاطين، وقد تولى منهم السلطة من القرن الخامس عشر إلى السابع عشر الميلادي عشرون سلطاناً اهتم منهم ما لا يقل عن تسعة أو عشرة بنسخ المصحف الشريف، ورسم اللوحات الخطية[٢٤] وقد قربوا إليهم الخطاطين واعتنوا بتقدير انتاجهم، وتوصل هؤلاء إلى ابتكار أقلام جديدة هي «سيافت» وهو خاص بديوان المحاسبة لا يفهمه إلا الخاصة، وخط الرقعة، وخط الديواني، وجليلة. وبلغوا بالخطوط العربية عصورها الذهبية ولا تزال فيهم البقية الباقية من الخطاطين الأفذاذ رغم هجرهم للحروف العربية.

أدوات الكتابة وآدابها

من آيات هذا الفن الجميل أن الله قدر صناعته بأداة القلم الذي هو نبات أجوف لا وزن له ولا ثمن، في متناول كل الخلق، ينبت نباته بإذن ربه في الجداول والأنهار والغابات. وكأن الارادة الالهية تقطع بذلك عذر أي متعلم أو كاتب بندرة أداتها أو قلتها، أو عجزه عن جلبها من أقطار مصنعة. وهذا النبات الطيب ينمو في كل الأقطار ولا فروق بينها إلا في الجودة. وليس هناك حقاً ما ينوبه لأن طواعية قلم القصب وليونته لا يضاهيه أي نوع من المبتكرات الحديثة وأجودها الأقلام السمراء التي تنبت في بلاد فارس. وأدقها الموجودة في جزيرة جاوة، تحتمل بريته كتابة جزء من ثلاثين من المصحف الشريف. أما ابن الصايغ فقد كتب مصحفاً طوله متر وثمان سنتمترات وعرضه ثمانون سنتمتراً، بقلم واحد في مدة ستين يوماً.

وقال المقري: «رأيت بالحجرة الشريفة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام مصحفاً مكتوباً في آخره ما صورته: كتبته بقلم واحد فقط ما قط قط إلا مرة فقط»[٢٥].

ولبراية القلم آدابها وقيل عنها: «جودة البراية نصف الخط» ويرى القلم من جهة نبات القصبة، وطول فتحته المسماة بالجلفة مقدار



□ قرآن اندلسي يعود للقرنين الحادي والثاني عشر ميلادي.

عقدة الابهام أو كمناقير الحمام. ثم تنحت جوانب القلم بسكين حادّة.

وقط القلم وهو قطع سنه عليه مدار الكتابة وقيل كان بعض الكتاب إذا أخذ الأنبوب ليبريها تفرّس فيها قبل ذلك فإذا أراد أن يقط توقف ثم تحرى فتوقف، ثم يقط على تثبت[٢٦].

ويوضع القلم على مقط يتخذ من الأبنوس أو العاج لكونها بين اليبس والليونة ولا يعرضان السكين للحفى. وتتم البراية الجيدة والقط الدقيق بسكين تتخذ من الصلب وتكون مسنونة جداً، ذات مقبض مريح ليكون البري دقيقاً ميسراً.

وتشق الجلفة بحسب صلابة القلم ورخاوته، فالمعتدل تشق جلفته إلى نصفها والصلب إلى أكثرها.

ويصنع الخطاطون أحبارهم بأنفسهم. وتوجد تراكيب اللون الأسود بعدد وفير. وأشهرها المتخذ من دهن بزر الفجل والكتان حيث يوضع في مسارح توقد، ويجمع سوادهما ثم يخلط بالغراء العربي والماء فيدق ساعات.

وأنشدوا في المداد قولهم:

ربع الكتابة في سواد مدادها
والربع حسن صناعة الكتاب
والربع من قلم تسوّى بريه
وعلى الكواغد رابع الأسباب[٢٧]

ويعتنى قديماً برابع الأسباب وصنعه ويصقل بالبيض والغراء، وتراكيب اخرى. وهو أجود الورق وأصلحه، وقد عدل عنه في الحاضر لوفرة الورق المصقول وان لم يبلغ مرتبة القديم.

ولجميع أدوات الخطاطين أوضاع منتظمة أمامه حتى تكون في متناول يده، ويبالغون في تعهدها ورعايتها، ويتنافس صنّاع مهرة في تزيينها وزخرفتها وتكفيتها بالذهب وتسجيل الآيات والأمثال على المقطات والمقلمات حتى تكون له مصدر الهام وتجويد.

ولقد شاهدنا في متحف مدينة بخارى مقطات مصنوعة من الورق المضغوط مزخرفة بالحكم وبأسماء أصحابها، مدهونة بلماع ليحفظ ألوانها.

وتوجد في متاحف استانبول أدوات رفيعة من مقلمات وسكاكين ومقاط هي آية في جودة الصنعة والزخرفة. وكانت إلى أوائل هذا القرن سوق خاصة بالوراقين بتوفير في دكاكينها كل لوازم الخطاطين. وأجود هذه الأدوات ممهورة بأسماء صانعيها المشهورين باتقانها.

شخصية الخطاط

بعد أن تطرقنا لتاريخ هذه الصنعة وتطورها ومدارسها وأدواتها وآدابها نتجه إلى الصانع لتكتمل عندنا رؤية صادقة وتامة لهذا الفن الإسلامي.

اكتسب الخطاط المسلم مكانة الصدارة منذ ظهور الإسلام لمكانة الكتبة من النبي (ص) وقيامهم بتدوين القرآن. فوجب على الخطاط أن يتصف بالأخلاق الطيبة، والسجايا الحميدة. واعتبرت العوامل النفسية والجسمية أيضاً ذات تأثير بالغ المدى في ما تخط الأنامل، وكان عمله مرآة لشخصيته وسلوكه ووضع ابن البواب شريعة للخط قال فيها: بنيّ الكتابة على خمس: قوّة الأخماس، وحدّة الألماس، وجودة القرطاس، ولمعان الانقاس، وحبس الأنفاس، ودوامة في تركيب المركبات، وفي ترك المنهيات، والمواظبة على الصلوات[٢٨].

والخط عند رجل الفن المسلم عبادة، لإيمانه بأن صنعته ليست مجرّد تحكم الأصابع في القلم وتدريبها، فهناك وراء ذلك الفكر الذي يسيطر على الجوارح. وأن عمله هو نسخ آيات الله، أو نشر فضيلة، أو إشاعة علم نافع.

ويقول باول بارتس: «يلعب الرازع الديني في الإسلام دوراً أساسياً في عمل الخطاط الذي يعبر عن التسليم لله والتوكل عليه»[٢٩].

وقال أيضاً: إن الشرط الأساسي لقدرة فنان الخط على الإنتاج هو درجة عالية من الشفافية والصفاء الروحي[٣٠].

إن الخطاط يكتب تقرباً لله، وطلباً لثوابه، ويخط في إجلال وتقديس وهو ما تشف عنه خطوط المجيدين فنشعر عند تأملها بالقدسية، والرهبة، والسحر الحلال، وأسرار الجمال.

وهذا تفسير لدلالة التواقيع التي يذيّلون بها أعمالهم ومن أمثلتها:

— كتبه الفقير إلى رحمة ربه القدير... حافظ عثمان[٣١].

— كتبه من لا قدر له ولا قدرة، ولا تخل بواديه ولا سدرة، أضعف العباد جرماً وأقواهم جرماً حمد الله المعروف بابن الشيخ عفى عنهما[٣٢].

— كتبه صغير الحجم كبير الجرم حمد الله[٣٣].

— كتبه أضعف الضعفاء وتراب أقدام المساكين والفقراء بهشتي السبزواري[٣٤].

— كتبه أضعف العباد وتراب الأقدام حسين الجزائري من تلاميذ درويش علي[٣٥].

أما حافظ عثمان أشهر من كتب بالنسخ، فلا يجلس إلى تدريس الخط والكتابة إلا إذا توضأ ولبس الأحرام.

هذه هي الناحية النفسية والخلقية، أما الجسمية فقد اكتشف العرب أثرها في الكتابة منذ القرن الرابع.

ويقول التوحيدي: سمعت علي بن جعفر الكاتب الطابع[٣٦]. وكان حسن الخط يقول: لا شيء أنفع للخطاط من أن لا يباشر شيئاً بيده من رفع ووضع خاصة إذا كان ذلك الشيء ثقيلاً، فإن الحركات إذا تمثلت بالحروف والحروف إذا اندفعت بالحركات كانت الصور الخطية والحروف الشكلية محفوظة الأعيان بامتلائهما بهما، محروسة الأبدان بانتسابهما إليهما قال: ولقد رفعت يدي بسوطي إلى الدابة مراراً في بعض الأيام وقنعتها به فتغير خطي مدة[٣٧].

أما الخطاط الايراني السيد حسين[٣٨] أستاذ ناصرالدين شاه[٣٩] فقد كان يضع في رقبته منديلاً يعلق يده فيه أثناء المشي زاعماً أن يده إذا اهتزت تأثر حسن خطي[٤٠].

وقد تحول خلقة الخطاط دون الاجادة. وهذا سيد إسماعيل نفسي زاده، الأستاذ الثاني لحافظ عثمان كان كبير البطن ومنعه ذلك عن الإجادة ولولا ذلك لما خالف خطه خط الشيخ حمدالله[٤١].

أما حبس الأنفاس الذي قرره ابن البواب فله تأثير في حركة اليد فلا مناص من حبسها عند جرّ القلم للحرف أو عند الاستمداد، حتى يسلم من التعاريج، لكن بعض الخطاطين، وهم قلة طبعاً — لهم قدرات خاصة يشذون عن هذه القاعدة.

فهذا شاد شاه المتوفى سنة ١٠٥٠هـ ــ ١٦٤٠م تلميذ مير علي. مجود الخط الفارسي، كان يكتب القطع الخطية، يد تكتب وأخرى تسن السكين في آن واحد[٤٢].

أما محمد نرجس بن أحمد التركي ــ من القرن الحادي عشر فقد اشتهر بالسرعة في الكتابة. فقد حرر مرّة كتيب «العوامل في الاعراب» ماشياً على قدميه بداية من مسجد بايزيد إلى المحمدية باستانبول[٤٣].

صعاب الصنعة

يحتاج الخط كأي فن إلى مواهب واستعدادات وتمارين شاقة للحصول على نتائج جيدة في اتقانه. ويقول أستاذ هذه الصنعة: ابن البواب في رسالة كتبها لأحد رؤسائه: ... «ولا خفاء عليك أدام الله تأييدك بفضل الحاجة ممن تعاطى هذه الصناعة إلى فرط التوفر عليها، والانصراف بجملة العناية إليها، والكلف الشديد بها والولوع الدائم بمزاولتها، فانها شديدة النفار، بطيئة الاستقرار، مطمعة الخداع، وشيكة النزاع، عزيزة الوفاء، سريعة الغدر والجفاء، نوار، قيدها الأعمال، شموس، قهرها الوصال لا تسمح ببعضها إلا لمن آثرها بجملته، وأقبل عليها بكليته، ووقف على تألفها سائر زمنه واعتاضها عن خله وسكنه، لا يوسيه حيادها، ولا يغره انقيادها، يقارعها بالشهوة والنشاط، ويوادعها عند الكلال والملال حتى يبلغ منها الغاية القصية، ويدرك المنزلة العليّة»[٤٤].

ويروي التوحيدي عن المرزبان قوله: «الخط هندسة صعبة، وصناعة شاقة، لأنه إذا كان حلواً كان ضعيفاً، وإذا كان متيناً كان مغسولاً وإذا كان جليلاً كان جافياً، وإن كان مدوراً كان غليظاً، فليس يصح له شكل جامع لصفاته، الكبر والصغر إلا في الشاذ المستندر[٤٥].

ويقول جلال أسعد. وهو مؤرخ تركي: «الخط كالرسم والموسيقى يتطلب استعداداً خاصاً ليس في متناول كل الناس، فمن بين الخطاطين الألف من الأتراك لا نجد بينهم سوى عشرة يمتازون بجمال الخط وأصالته»[٤٦]. واستطرد يقول: «ونستطيع الجزم بأن تكوين الخطاط أصعب من تكوين الرسام. ومهما بلغ المصوّر من المقدرة فلن يستطيع تقليد لوحة خطية جميلة ما لم يتقن القواعد والنسب الخطية»[٤٧].

وهذا هو سبب قلة الخطاطين وبالتالي ندرة المجيدين منهم. ويحتاج الخطاط إلى تمارين شاقة ومداومة عليها، ويرشدنا ابن مقلة بعبارة وجيزة بليغة إلى ذلك بقوله: «إني لأجدني من يوم الخميس أخط من يوم السبت»[٤٨].

ويقضي الخطاطون الأتراك ساعات كل يوم في إدارة كرة من العجينة اللينة للحصول على الحساسية المرهفة في الأصابع، لتدير القلم بكل دقة[٤٩].

أما عماد الحسنى الذي بلغ بخط التعليق أعلى مراقبة فإن تمارينه المتواصلة في الخط لا تسمح له بحلاقة شعره سوى مرتين في السنة[٥٠].

ولا غناء في هذه الصنعة عن الأستاذ، فإن كثيراً من أسرارها معقودة بتوجيهاتهم، مخبوءة في إرشاداتهم.

وقال صاحب رسالة: كتاب الأبرار في بري القلم وعمل الأحبار في هذا العدد: «أعلم رحمك الله أنك إذا لم يكن لك شيخ فلا بدّ أن يدخل عليك الفساد» وعثرنا على أبيات تشير إلى أهمية الأستاذ تقول[٥١]:

إذا شئت أن تحظى بحسن كتابة ... ومرتبة في العالمين تزين
تخير ثلاثاً واعتمدها فانها ... على بهجة الخط المليح تعين
مداد وطرسا محكما وبراعة ... إذا اجتمعت قرّت بهن عيون
ولا بد من شيخ يريك شخوصها ... يساعد في إرشادها ويعين
ومن لا له شيخ وعاش بعقله ... فذاك هباء عقله وجنون

والملاحظ في سير الخطاطين ورود أسمائهم منسوبة إلى شيوخهم وغدا بالتالي عقوق الأستاذية مجلبة لسخط الله. وتروى أمثلة لذلك منها: أن الدرويش محمد المعروف بالكوكب، تلميذ حافظ عثمان، ادعى أنه يكتب أحسن من أستاذه، وأخذ يوماً مصحفاً من أستاذه لينقل منه وعند بريه لقلمه قطع بسكينه اصبعين من

يده، فلم يبلغ بعد ذلك في حياته مرتبة المجيدين[٥٢].

وكان مير شلبي اسكندر من بخارى ــ تلميذ علي هروي، متفوقاً على الخط وأذن له أستاذه بالتوقيع على أعماله باسم أستاذه، ولكنه كان سيء الخلق معجباً بنفسه، أجاب في وجه أستاذه، «من تكون أنت حتى أستعمل توقيعك». ومضت فترة وجيزة على هذه الصفعة الناكرة. فقد بعدها التلميذ العاق بصره[٥٣].

ومن تقاليد هذا الفن أنه لا يجوز للتلميذ تذييل أعماله بتوقيعه ما لم يحصل على إجازة من أستاذه. يكتب قطعة خطية يقومها له أستاذه حتى يبرع فيها، ثم يكتب عليها أستاذه إذن الكتبة، وربما شهد بذلك خطاط آخر. وتقام بهذه المناسبة وليمة يحضرها أهل هذا الفن.

إنتاج الخطاط

اهتم الخطاطون بفنهم، وصنفوا كتباً في فن الكتابة وأدواتها وآدابها، ووضعت للخطوط اسماؤها وللحروف أوصافها في كل أوضاعها والفت رسائل عن الخطوط مشفوعة بنماذجها. وأرخ لكبار الخطاطين ووجدت قواميس لأعلامهم وأعمالهم ونبذ من سيرهم. ونظم شعبان الأثارى الفية في الخط. وألف الكفعمي كتاباً يحوي خمسين ورقة كلها ألغاز عن القلم[٥٤].

وخلد الخطاط اسمه عبر التاريخ الاسلامي في كل المجلات الفنية. فلا يخلو مسجد من أعماله، ولا القصور من لوحاته، ولا المكتبات من مخطوطاته التي حفظت التراث العربي والحضارة الإسلامية، وكل هذه الأعمال مذيلة باسم الخطاط وتاريخ إنجازها مما أدى إلى علم الآثار خدمة جليلة بعيدة الأثر. وأعني الخطاطون أيما اعتناء باللوحات الخطية صغيرها وكبيرها، وخطوا الآيات الكريمة، والأمثال السائرة، والحكم النادرة، والأشعار الخالدة، في أشكال معبرة ومؤثرة. والحق أن هذه اللوحات التي لا يكاد يخلو منها بيت مسلم كان لها الأثر الحسن في تربية النشء خلقياً، وتثقيفه فنياً، وإن تكرار رؤيتها يوحي للناظر إليها كل مرة بمعاني جديدة تضفي على النفس السرور والانشراح والارتياح. وكان لأنواع الخطوط تأثيرات متغايرة ومتباينة حتى عند اتحاد النص، فإن كل خطاط يظهر فيها رؤية جديدة من الفن المجرّد، يعالجه بأسلوبه الخاص، يساعده في ذلك رحابة الخط العربي وغناه المرتبط بغنى اللغة العربية واشتقاقاتها. ولذلك كثرت صور الحروف عند المركبات لتجانس الحروف وتتوافق الكلمات، وتتطابق السطور. وبهذا المثال ينجلي المقال: ونعرض عليكم الحكمة القائلة: «رتبة العلم أعلى الرتب».

نرى في لوحة حاجي نوري البساطة والاتزان وتوافقاً بين حرف العين الأول والثاني. والأصل رسم العين الأول مربعة ولكن الخطاط عدل عنها للحصول على التوافق في السطر. وهي مؤرخة في سنة ١٣٢٢هـ ــ ١٩٠٤م.

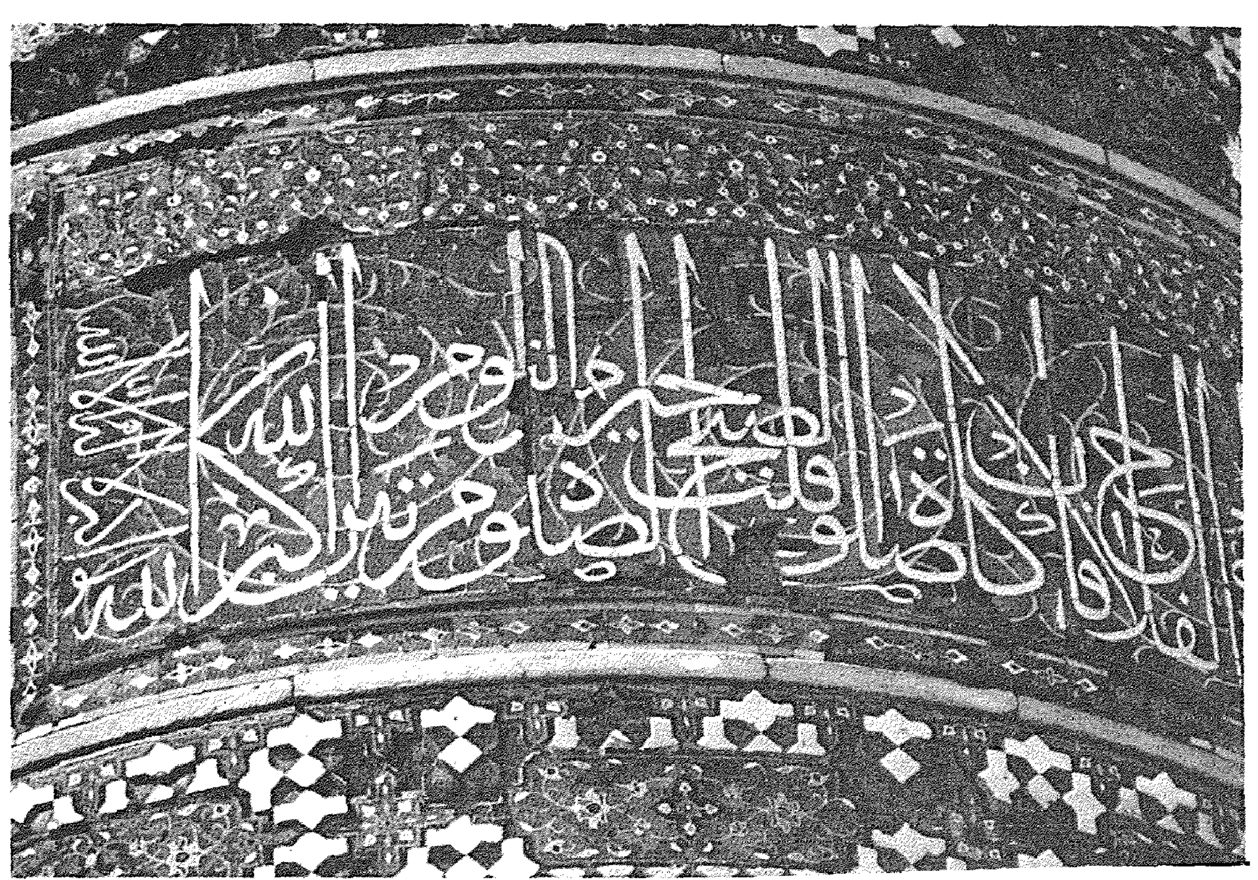
أما الخطاط محمد نظيف. فقد جمع حروفها في توافق وإبداع ورسم العين الأولى مربعة ومجموعة والثانية صادية مجموعة. وكتب محمد نجم الدين هذه الحكمة بخط التعليق الذي اشتهر به ووزنها بعراقة الباء الراجعة التي توسطت السطر.

ووفق الخطاط ماجد الزهدي برسمها في شكل دائري فنجد التوافق جيداً بين حرفي العين، كما انسجمت عراقة «رتبة». والتاء والباء من أعلى فكان التقابل جيداً وهي لا تحمل التاريخ أما ناشرها المهندس ناجي زين الدين فقد أرخها بسنة ١٣٨٠هـ ــ ١٩٦٠م.

وأخيراً لم يترك الأولون للآخرين شيئاً. فالعبد لله أدلى بدلوه فكتب هذه الحكمة على الصورة التي تشاهدونها. وذلك سنة ١٣٩١هـ ــ ١٩٧١م.

ان بحور الخط العربي شاسعة وسخية لمن جد في الاغتراف منها. وإننا لنجد في عصرنا بعض الخطاطين قد توصلوا إلى استخراج أنواع من الخطوط، ظهرت في عناوين الصحف والتلفاز، تعبر عن المواضيع المعروضة من سرور وجد وهزل ورسمي ومدني.

وأضحى الخط العربي ذا تأثيرات عديدة في شتى ميادين الآداب والفنون والعلوم. واتخذ الشعراء الحروف العربية تشابيه في المدح والغزل وانبهر الأجانب بالخط العربي عند اتصاله بالحضارة الاسلامية فظهرت الكتابات العربية على صناعاتهم بل وحتى على صلبانهم.



□ كتابة وزخرفة تعود للقرن السادس عشر.

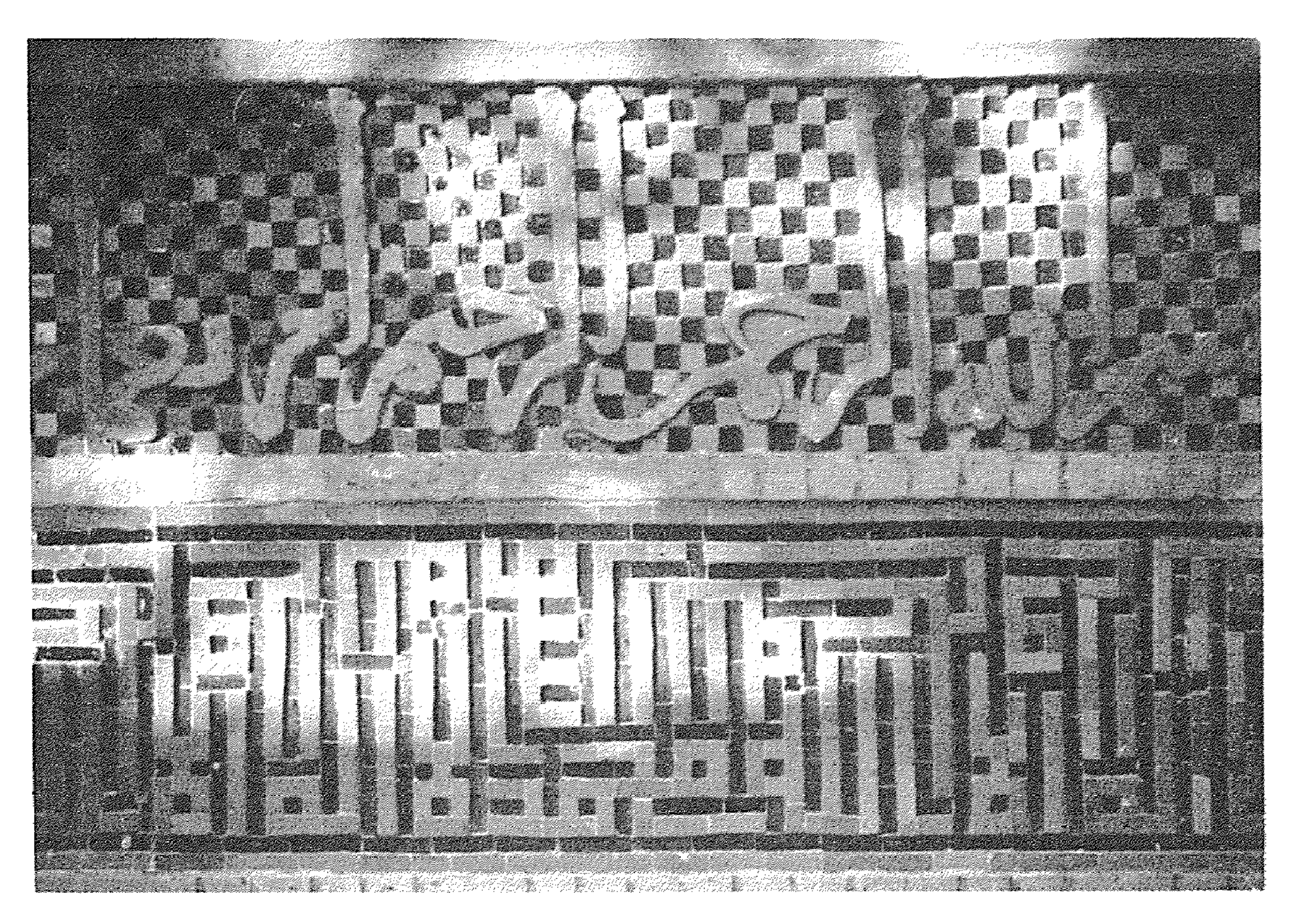
ووجدت الشهادتان منحوتة على عملاتهم. وظهرت الكتابات في فن التصوير في عصر النهضة ودخلت الكنيسة، ووشيت بها أوشحة الملوك والرهبان(٥٥) وتأثرت الكتابات القوطية بالخط الكوفي الأندلسي وتسربت الخطوط العربية إلى أعمال الفنانين التجريديين، أمثال بول كليه(٥٦) وكارل جورج هونز(٥٧) وبيكاسو(٥٨) الذي درس الخط العربي على يد خطاط تونسي.

وكان الخطاط المسلم هو الفنان الأول مرتبط بالدواوين والقصور، يغشى مجالس الخلفاء ويقوم بأعمالهم. ويحلوا للأمراء النظر ساعات طوالاً إلى الخطاط أثناء عمله. وذهب بعضهم في تقديرهم له إلى مسك الدواة أو الشمعدان له.

إلا أن شعور الحكام بمراتبهم وسطوتهم، واعتزاز الخطاطين بقدراتهم ومواهبهم يؤدي بالعلاقات بينهم إلى الاحتكاك والالتحام ثم الانتقام.

طلب الوالي محمد علي الكبير من سلطان دولة إيران خطاط لتزيين جدران مسجد القلعة. فاختار لهذه المهمة ميرزا استكلاخ. وكان معروفاً باعتداده بنفسه. ولما وصل طلب منه الوالي أن يبعث إليه بلوحة من خطه يتأمل حسنها. فأرسلها له مع خادمه. وعندما مثل بين يدي الوالي تردد وتراجع واستفسره الوالي فأجابه: لقد أوصاني الخطاط أن أرجع باللوحة إن لم تقم احتراماً لها. فأنقذ الوالي الوقف بأن أمر الخادم بالخروج وإعادة الدخول ليقوم تعظيماً للقطعة(٥٩).

وكان السلطان العثماني محمود خان(٦٠) يتعلم الخط على يد أستاذه مصطفى راقم(٦١) قبل أن يتولى السلطنة. وعندما تولاها رغب مواصلة تعليمه وعند أول درس أعطى الخطاط الدواة للسلطان ليمسكها كالعادة فأخذها على رغمه ولما انتهى التعليم قبّل الأستاذ الأرض بين يدي السلطان ووقف مكتوفاً. فبادره السلطان ما هذا التناقض تقول لي امسك الدواة، ثم تقبل الأرض أمامي فأجابه الخطاط: يا مولاي، أما مسك الدواة فهو حق الأستاذية، وأما تقبيل الأرض فهو حق السلطنة أوفيته، وارتاح



□ كتابتان في اسلوبين مغاير كل منهما للآخر.

السلطان لهذا الجواب وأنعم عليه بألف غازي محمودي[٦٢].

ولكن ما كل مرة ينتهي الأمر بين الخطاطين والحكام بهذه النهاية السعيدة. كان عماد الحسنى من أسياد قزوين أشهر من كتب الخط الفارسي وكان الشاه عباس الأول يفضل علي رضا عباسي عليه وذهب إلى أن مسك له المشعل وهو يكتب في محضر عماد، كما عينه كاتباً خاصاً وأميناً لمكتبته. فلم يتحمل عماد هذه المحابات وهو من هو فنظم أشعاراً بها تورية تعرض بالشاه، فبعث إليه الشاه أعزّ أصدقائه يدعوه إلى عشاء عند أحد الكبراء فسطا عليه قطاع الطرق وقتلوه وقطعوه أشلاء. ولما علم جهانكير بن أقبار المغولي بما حدث حزن عليه وقال: لو أن الشاه سلمه لي بدل قتله كنت فديته بوزنه ذهباً[٦٣].

ونختم هذه الفصول بما بدأنا به:

إن المصحف الشريف هو أول وأهم مجال طوّر الخط العربي فيه وكان السبب في انتشار الخط وتجويده. وحفظ الله بالخط كلامه العزيز. فخدم المصحف والخط كل منهما الآخر. ونسخت عبر القرون الآلاف المؤلفة من النسخ. وكانت أمنية كل خطاط أن ينسخ المصحف مراراً وتكراراً.

وتصدى لذلك كل أئمة الخط العربي بلا استثناء.

ووصلت إلينا وشاهدنا صورها معاً. وقد شاء الله أن تبقى تلك المصاحف شاهدة على جودة خطوط ناسخيها.

وأوتي بعض الخطاطين قدرات عجيبة في غزارة الانتاج علاوة على حسن الخط. فقد بلغ عدد مصاحف رمضان أفندي تلميذ عبدالله الجزار المتوفي سنة ١٠٩١م، أربعمائة مصحف، وكأن شأنه عظيماً وزواره كثيرين وما لم ينجز عمله اليومي لا يخرج لزوار المنتظرين أمام بيته[٦٤].

وذكر أن ياقوت المستعصمي المتوفي سنة ٦٩٨هـ / ١٢٩٨م. قد كتب ألف مصحف ومصحف[٦٥].



□ نقش إسلامي يعود للقرن السابع عشر ـــ لاهور ـــ باكستان.

أما محمد بن عبدالله بن غطوس من أهل بلنسية فقد قال عنه ابن الأبار، «ويقال أنه كتب ألف نسخة من كتاب الله عزّ وجلّ...» وكان قد آلى على نفسه إلا يخط حرفاً من غيره ولا يخلط به سواه، تقرباً إلى الله، وتنزيها لتنزيله فما حنث فيما أعلم وأقام على ذلك حياته كلها[٦٦].

وتختلف أحجام المصاحف على حسب أغراضها:

لقد كتب عمر أقته مصحفاً لتيمور بخط الغبار الدقيق يحويه فص خاتم فرفضه، وقدم له بعد ذلك مصحفاً طول سطره ذراع محمولاً في عربة فاستقبله في جمع من العلماء وصاح عند رؤيته «هكذا يجب أن يكون»[٦٧].

وكتب سيد قاسم غباري تلميذ شريف عبدالله سورة الاخلاص على حبة الأرز. ونسب إلى الغبار لدقة هذا النوع من الخط الذي يتقنه[٦٨].

وعرف بعض الخطاطين بما أحببنا أن نطلق عليه «لزوم ما لا يلزم».

تحفظ دار الكتب المصرية مصحفاً بخط محمد روح الله كتبه سنة ١١٠٧هـ التزم فيه ابتداء كل سطر من سطوره بحرف الألف.

واشتهر في تونس الحاج زهير المتوفي سنة ١٣١٥هـ ـــ ١٩٠٤م. فقد أتم سنة ١٢٧٥هـ ـــ ١٨٥٩م. مصحفاً التزم فيه مقابلة بعض الحروف أو الكلمات في كل صفحة على اليمين بمثيلتها نصاً على اليسار في نفس المكان والسطر، وتمييزها باللون الأحمر. وهو ما لم يسبق إليه. والمصحف محفوظ بدار الكتب التونسية.

وذكر لي الأستاذ المرحوم عثمان الكعاك بوجود مصحف في تونس نقط حروفه ثقوب تصادف نقط الأوراق التي تحتها، وأن ذلك مقصود وليس من عمل الأرضة.

وتملك مديرية الآثار العامة العراقية مصحفاً كتبه إبراهيم بن عبدالله المروزي سنة ١٢٠٣هـ التزم فيه الخطاط أن يكون الحرف الأول من السطر الأول يطابق الحرف الأول من السطر الأخير في الصفحة. والحرف الأول بالسطر الثاني يطابق الحرف الأول بالسطر الثاني قبل الأخير.

بيض الحيات ولا حيات في اعجازها مثل العقرب وذلك المملوح
مثل الدبابة بن حيث يحبا انه حول السطوح وفيلة البر [illegible]
يقول انا رايت ضبا والضب انه اكل شيء وامنه رغبة واكلا
ومن الاشياء كبيرها اكلا بل [illegible] الوارك ولعله هو منها
عن الورك قالوا الخيم من راعى ضب لم يبق لانه يتغابا بها ويغلبه
فيغلب عنها والنجبة موصوفة بشدة الاكل ... ومن اكل
من الكمشرى والرمكة اكل من البرذون وقيل لاعرابي ان الدواب
اكل قال البرذون رغوث فاذا كانت البرذونة اكمل الدواب فعلى
حساب ذلك يزيد اكلها اذا ارضعت ونعلم انه لو جمع اكل المراة
من غذوه الى الفطام لكان اكثر من غذاء الرجل وعشائه هكذا
يحكونه في اكثر النساء ومن يرضع من غذوه الى الفطام وكذلك
الجمل والفرس

ومن العرب معاذ بن جبل قالوا وكان معاذ امه وكان يشبه
ابراهيم خليل الرحمن ولم يكن في السلف اجمل جرادة ولا انعم بدنا
من معاذ وسهل بن حنيف وقال النبي صلى الله عليه وسلم امر كل
شيء من معاذ حتى خاتمه وكان يعرف من الائمة الستة وفيه شبه
المشابهين لعلة الولايات ومن الصوف ويعلم الناس الاحكام
ويدرس القران وهو ابن اقل من عشرين سنة وكان عند
رسول الله وجميعهم وفي عيون المسلمين عظيما وقال الهيثم
انما انا ابن الهيثم بن [illegible] الطائي [illegible] له قال بعض

□ خط اندلسي.

والسطر الثامن ــ وهو الأوسط ــ يطابق الحرف الأول من السطر الثامن من الصفحة المقابلة، وعدد سطور الصفحات خمسة عشر سطراً[٦٩].

تلك هي قدرات الخطاط العربي، وتلك هي قدراتنا المتواضعة في تقدير عمله. ونرجو أن نكون قد أنصفناه وأدينا بعض حقوقه وأحللناه المكانة التي يستحقها. وعرفنا بالخطوط العربية، وبرسالتها التي أدتها عبر الأجيال فكونت بين البلدان الإسلامية على مختلف ألسنتها وحدة شاملة تفوق الوحدة اللغوية، وأشاعت الجمال، والبهجة في النفوس. وعلى كاهل الخطاطين مهمة إثراء فنون الخط العربي، وإن عجزوا فأضعف الواجبات، المحافظة على جدة القديم. ●

الهوامش

(١) ابو عمرو الداني: المحكم في نقط المصاحف ص ٢٥.
(٢) ولفنسن: تاريخ اللغات السامية، ص ١٢٤.
(٣) خليل يحيى ناجي: أصل الخط العربي وتاريخ تطوره إلى ما قبل الاسلام.
(٤) سورة البقرة: آيات ٢٨٢ ــ ٢٨٣.
(٥) الجهشياري: الكتّاب والوزراء.
(٦) الداني: المقنع في رسم المصاحف، ص ٩.
(٧) ابن كثير: فضائل القرآن، ص ٢٩.
وذكر المقري أن أبا القاسم التجيبي السبتي، رأى المصحف العثماني بمقصورة جامع بني أمية بدمشق سنة ٦٥٧هـ. وذكر أيضاً أن المصحف العثماني كان بقرطبة ثم آل أمره إلى الموحدين. (المقري: نفح الطيب، ج ٢ ص ١٣٥).
(٨) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٣ ص ٣٨.
(٩) ابن حجر العسقلاني: فتح الباري، ج ٩ ص ١٦.
(١٠) الحجر محفوظ بالمتحف الاسلامي بالقاهرة ونصه:
بسم الله الرحمن الرحيم. هذا القبر
لعبدالرحمن بن خير الحبري اللهم اغفر له
وادخله في رحمة منك واتنا معه
استغفر له إذا قرأ هذه الكتب
وقل آمين وكتب هذا ا
لكتب في جمدي إلا
خر من سنة إحدى و ثلثين.
(١١) الداني: المحكم، ص ٦ ــ ٧.
وانظر حفني ناصف: تاريخ الأدب أو حياة اللغة العربية، ج ١ ص ٨٩.
(١٢) هو أبو علي محمد بن علي بن الحسين بن مقلة ولد لتسع بقين من شوال سنة ٢٧٢هـ ــ ٨٨٦م، ببغداد، وتوفي يوم الأحد عاشر من شوال سنة ٣٢٨هـ ــ ٩٤٠م.

ــ وفيات الأعيان، ج ٤ ص ١٩٨ ــ ١٠٢.
ــ الثعالبي: ثمار القلوب، ص ١٦٧.
(١٣) المصدر السابق، نفس الصفحة.
(١٤) المقري: نفح الطيب، ج ٦ ص ٤٠.
(١٥) اخوان الصفا: الرسالة الخامسة في الموسيقى، ص ١٦٦.
(١٦) هو: أحمد بن محمد بن ثوابة من كبار منشيء القرن الرابع وكان كاتب ديوان الرسائل لمعزّ الدولة توفي سنة ٣٤٩. انظر ترجمته في معجم الأدباء.
(١٧) أبو حيان علي بن محمد بن عباس التوحيدي: مثالب الوزير، ص ١٥٧.
(١٨) ياقوت: معجم الأدباء، ج ١٠ ص ١٢١.
(١٩) هو أبو عبدالله محمد بن أسد بن علي بن سعيد القاري الكاتب البزار البغدادي توفي لليلتين خلتا من المحرم سنة عشر وأربعمائة ودفن بالشونيزي.
(٢٠) هو جمال الدين ياقوت المستعصمي الكاتب ظهر بعد الستمائة هجرية.
(٢١) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٣ ص ١٣.
(٢٢) هو أبو عبدالله الحسن بن علي بن مقلة، (أخو ابن مقلة الخطاط). كاتباً، أديباً بارعاً ٢٦٨ ــ ٣٣٨.
(٢٣) ياقوت: معجم الأدباء، ج ٣ ص ٢٢.
(٢٤) آرنست كونل: صنعة الخط في الاسلام، مجلة فكر وفن، عدد ٣، ص ١٩.
(٢٥) المقري: نفح الطيب، ج ٦ ص ٤.
(٢٦) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٢ ص ٤٦٢.
(٢٧) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٢ ص ٤٧٣.
(٢٨) وجدنا هذه العبارات في أحد المخطوطات باستانبول. لم نتذكر اسمها وهي إلى الفاظ حبس الأنفاس، وظهرت كاملة في مشق الخطاط صائم أوزل أمام جامعة السليمانية «نمونة خطوط» طبع سنة ١٩٦٦م.
(٢٩) باول بارتيس، الفن الحديث وفنون الخط، مجلة فكر وفن، عدد ١٧ ص ٧.
(٣٠) المرجع السابق، نفس الصفحة.
(٣١) سهيل أنور: أنواع الخطوط التركية (بالتركية)، ص ٣٧ توقيع لمصحف.
(٣٢) أكرم حقي: خطاطو عهد فاتح وصناعة الخط (بالتركية) توقيع لكتاب حنين بن أسحق في المسائل وأجوبتها في الطب.
(٣٣) هيار: الخطاطون، ص ١١١.
(٣٤) توقيع لمصحف كتب سنة ٩٤٥هـ ــ ١٥٣٧م. انظر محمد بن سعيد شريفي، خطوط المصاحف (رسالة جامعية) ١٩٧٦، ص ٦٥.
(٣٥) توقيع لقطعة خطية من مجموعة متحف ابن الأمين، جامعة استانبول.
(٣٦) علي بن جعفر الكاتب ويكنى الحسن الفارسي، كان من أعيان الأدباء.

(٣٧) التوحيدي: رسالة في علم الكتابة (ضمن ثلاث رسائل لأبي حيان التوحيدي)، ص ٣٤.
(٣٨) له قطعة خطية بتاريخ ١٢٨٢هـ.
(٣٩) ناصرالدين شاه، ١٨٣١ ــ ١٨٩٦، عاهل إيران من سلالة قاجار.
(٤٠) السباعي: رسالة اليقين، ص ١٨٩٦، مخطوط.
(٤١) هيار: الخطاطون، ص ١٣٨.
(٤٢) هيار: الخطاطون، ص ٢٤٩.
(٤٣) المرجع السابق، ص ٢٦٤.
(٤٤) ياقوت: معجم الأدباء، ج ١٥ ص ١٣١.
(٤٥) التوحيدي: رسالة في علم الكتابة (ضمن ثلاث رسائل لأبي حيان التوحيدي)، ص ٣٦.
(٤٦) جلال أسعد: الفنون الزخرفية التركية، ص ٣٤١.
(٤٧) المرجع السابق، نفس الصفحة.
(٤٨) منية الكتاب (مخطوطة مغربية مجهولة الكاتب)، هامش الورقة الأولى.
(٤٩) جلال أسعد: الفنون الزخرفية التركية، ص ٣٤٧.
(٥٠) هيار: الخطاطون، ص ٢٣٩.
(٥١) أحمد بن الصلوتين: مجموعة رسائل في علم الخط (١١٨١هـ ــ ١٧٦٧م)، مكتبة جامعة استانبول رقم ٣٧٩٤. وتوجد أيضاً في كتاب تاريخ الخط العربي وآدابه للطاهر مكي، ص ٤٢٥، منسوبة لبعضهم.
(٥٢) هيار: الخطاطون، ص ١٦٣.
(٥٣) المرجع السابق، ص ٢٢٩.
(٥٤) هو إبراهيم بن علي بن الحسن الحارثي العاملي الكفعمي، أديب وكاتب ٨٤٠ ــ ٩٠٥هـ، ويوجد المخطوط في مكتبة السليمانية قسم أسعد أفندي برقم ٢٨٨١.
(٥٥) كريستي وغيره: تراث الاسلام، ج ٢ ص ١٧.
(٥٦) بول كليه: فنان ألماني، ١٨٧٩ ــ ١٩٤٠ تأثر فنه بالشرق، سافر إلى تونس سنة ١٩١٤ وإلى مصر سنة ١٩٢٩م.
(٥٧) فنان ألماني: انظر أعماله في مجلة فكر وفن، عدد ٣ ص ٥٤.
(٥٨) بيكاسو بابلو ١٨٨١ ــ ١٩٧٣م، مصور اسباني احد كبار الفن التكعيبي، عاش في فرنسا.
(٥٩) السباعي: رسالة اليقين، ص ١٧.
(٦٠) لعله السلطان محمود الأول ١٧٣٠ ــ ١٧٥٤.
(٦١) خطاط تركي مشهور كتب مائة مصحف، تلميذ السيد عبدالله يدقله لي. توفي سنة ١١٨١هـ / ١٨٦٧م، تحفة خطاطين، ص ٥٢٣.
(٦٢) السباعي: رسالة اليقين، ص ٢٢ ــ ٢٦.
(٦٣) هيار: الخطاطون، ص ٢٣٩.
(٦٤) هيار: الخطاطون، ص ١٣٨.
(٦٥) المرجع السابق، ص ٨٦.
(٦٦) ابن الأبار: كتاب التكملة لكتاب الصلة، ج ٢ ص ٥٩٣.
(٦٧) هيار: الخطاطون، ص ٢٥٢.
(٦٨) المرجع السابق، ص ١٣٢.
(٦٩) انظر: مجلة منار الاسلام، عدد ٣، سنة ٢، ١٩٧٧.

بيان بأسماء الكتب والبحوث المشار إليها في هذا البحث

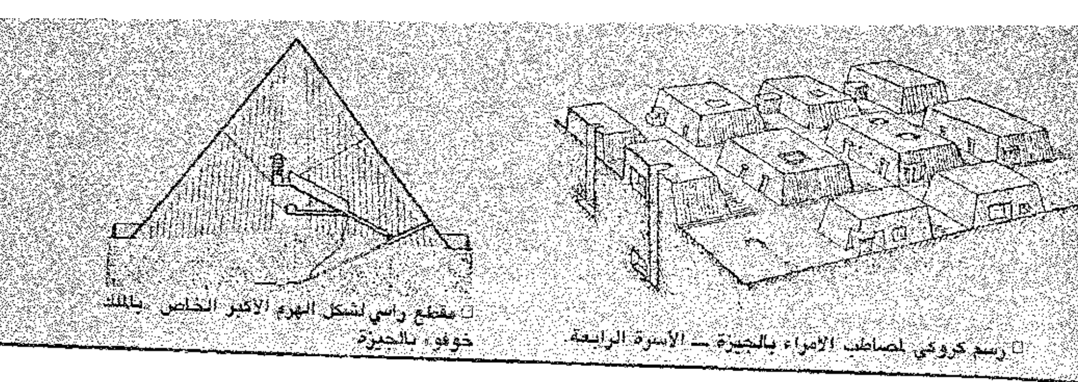
ــ القرآن الكريم.
ــ ابن الآبار (أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن أبي بكر القاضي البلنسي، ت ٦٥٩هـ):
التكملة لكتاب الصلة، جزآن، طبع مكتب نشر الثقافة الإسلامية ــ القاهرة ١٩٦٥.
ــ ابن حجر العسقلاني (شهاب الدين أبو الفضل أحمد) ٧٧٣ ــ ٨٥٢:
فتح الباري بشرح الإمام ابي عبدالله البخاري، ج ٩ ــ القاهرة، المطبعة البهية المصرية، ١٣٤٨هـ.
ــ ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر) ٦٠٨هـ ــ ٦٨١هـ / ١٢١١م ــ ١٢٨١م:
وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ٦ أجزاء، طبع مكتبة النهضة العربية، ١٩٤٩م.
ــ ابن الصايغ: (عبدالرحمن يوسف) ت ٨٤٥هـ / ١٤٤١م:
تحفة أولي الألباب في صناعة الخط والكتاب ــ تحقيق هلال ناجي ــ طبع دار بوسلامة، تونس، ١٩٦٨.
ــ ابن فارس (أبو الحسين أحمد) ت ٣٩٥هـ / ١٠٠٥م:
كتاب الصاحبي ــ المطبعة السلفية، مصر ١٩١٠م.
ــ ابن كثير (عمادالدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير) ت ٧٧٤هـ / ١٢٧٣م:
فضائل القرآن ــ طبع دار الأندلس ــ بيروت.
ــ أحمد (يوسف)
الخط الكوفي ــ الرسالة الأولى والثانية ــ طبع مصر ١٩٣٢م.
ــ أخوان الصفا:
رسائل أخوان الصفا وخلان الوفا (رسالة الموسيقى)، طبع مصر ١٣٣٧هـ / ١٩٢٨م.

ـ أوزل (صائم):
(نمونة الخطوط) مشق في الخط العربي ـ طبع استانبول ١٩٦٩م.
ـ بارتس باول:
الفن الحديث وفنون الإسلام، مجلة فكر وفن، عدد ١٧، طبع ألمانيا.
ـ التوحيدي (أبو حيان علي بن محمد) ت ٤١٤هـ / ١٠٢٢م.
رسالة في علم الكتابة (ضمن ثلاث رسائل للتوحيدي، تحقيق د. إبراهيم الكيلاني، طبع المعهد الفرنسي بدمشق، ١٩٥٢م.
ـ الثعالبي (أبو منصور عبدالملك بن محمد)
ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، مطبعة الظاهر ـ مصر ١٩٠٨.
ـ الجهشياري (أبو عبدالله محمد بنعبدوس) ت ٣٣١هـ / ٩٤٣م:
كتاب الوزراء والكتاب ـ طبع مصطفى البابي الحلبي ١٩٣٨م.
ـ الدني (أبو عمرو عثمان بنس سعيد) ت ٤٤٤هـ / ١٠٥٢م:
المحكم في نقط المصاحف. تحقيق د. عزة حسن ـ طبع دمشق ١٩٦٠م.
ـ زين الديني (ناجي):
مصور الخط العربي ـ طبع المجمع العلمي العراقي ـ بغداد ١٩٦٧م.
بدائع الخط العربي ـ طبع وزارة الأعلام ـ بغداد ١٩٧٢م.
ـ السباعي (مصطفى الحسن):
رسالة اليقين في معرفة أنواع الخطوط وذكر بعض الخطاطين من الترك والفرس والعرب أجمعين ١٩١٣م. نسخة مصورة بدار الكتب والوثائق المصرية، رقم: تاريخ / ٣٢٨٥.
ـ الطيبي (محمد بن حسن)
جامع محاسن كتابة الكتاب ونزهة أولي البصائر والألباب.
تحقيق: الدكتور صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، بيروت ١٩٦٢م.
ـ القلقشندي (أبو العباس أحمد بن علي) ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م:
صبح الأعشى في صناعة الانشا. نسخة مصورة عن المطبعة الأميرية مع استدراكات، القاهرة (بلا تاريخ).
ـ مجهول:
كتاب الأبرار في بري القلم وعمل الأحبار، سنة ٩٨٧هـ / ١٥٧٩م.
مخطوط في مجموعة خاصة بالمغرب.
ـ كريتي ـ أرنولد ـ بريجس:
تراث الإسلام، جزآن ترجمة وتحقيق الدكتور زكي محمد حسن، مطبعة لجنة التأليف والنشر، مصر ١٩٣٦م.
ـ الكفعمي (إبراهيم بن علي):
لغز في القلم (مخطوط) السليمانية ـ قسم أسعد أفندي رقم ٢٨٨١ ـ استانبول.
ـ كونل (أرنست):
صنعة الخط في الإسلام، مجلة فكر وفن، عدد ٣ ص ١٩.
ـ المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية بمصر.
حلقة بحث الخط العربي، دار المعارف ـ مصر ١٩٦٧م.
ـ مستقيم زادة (سليمان سعدالدين، ١١٣١ ـ ١٢٠٢هـ / ١٧١٩ ـ ١٧٨٨م):
تحفة خطاطين. (باللغة التركية) طبع استانبول ١٩٢٨م.
ـ المقري (أحمد بن محمد التلمساني) ت ١٠٤١هـ / ١٦٣٢م:
نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب ـ عشرة أجزاء، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، ط ١ ـ مصر ١٩٣٩.
ـ مجهول:
منية الكتاب. قصيدة في الخط ٦ صفحات مبتورة ـ خط مغربي ـ مخطوط رقم ١٤٩٦ المكتبة الوطنية الجزائرية.
ـ ناصف (حفني):
تاريخ الآداب أو حياة اللغة العربية، جزآن، طبع القاهرة ١٩١٠م.
ـ ناجي (خليل يحيى):
أصل الخط العربي وتاريخ تطوره إلى ما قبل الإسلام، مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة، المجلد ٣ ج ١ ١٩٣٥م.
ـ ولفنسن (إسرائيل) ـ أبو ذؤيب:
تاريخ اللغات السامية، مطبعة الاعتماد، مصر ١٩٢٩م.
ـ ياقوت (أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله الرومي) ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٩م:
معجم الأدباء، ٢٠ جزء، طبع دار المأمون ـ مصر.

الهندسة في الدولة المصرية القديمة

■ د. حنيفة الخطيب

يقع تاريخ مصر القديمة في ثلاث فترات رئيسية: المملكة القديمة (٢٧٧٨ ـ ٢٢٨٠ ق.م) والمملكة الوسطى (٢٠٦٥ ـ ١٧٨٧ ق.م)، والمملكة الحديثة (١٥٧٥ ـ ١٠٨٧ ق.م) ومنذ حوالي ٥٠٠٠ سنة، ما لبثت القبائل القديمة على امتداد نهر النيل أن انحدت تحت إمرة قائد واحد هو مينا، الذي أصبح أول الفراعنة ولا توجد سجلات باقية عن مينا، وإن قام الدليل على أنه هو نفسه الفرعون نعرمر، من أوائل حكام المملكة القديمة، الذي توافر عنه قدر معين من المعلومات وهكذا بدأ فصل فريد في تاريخ التقدم[1]



□ رسم كروكي لمصاطب الأمراء بالجيزة ـ الأسرة الرابعة

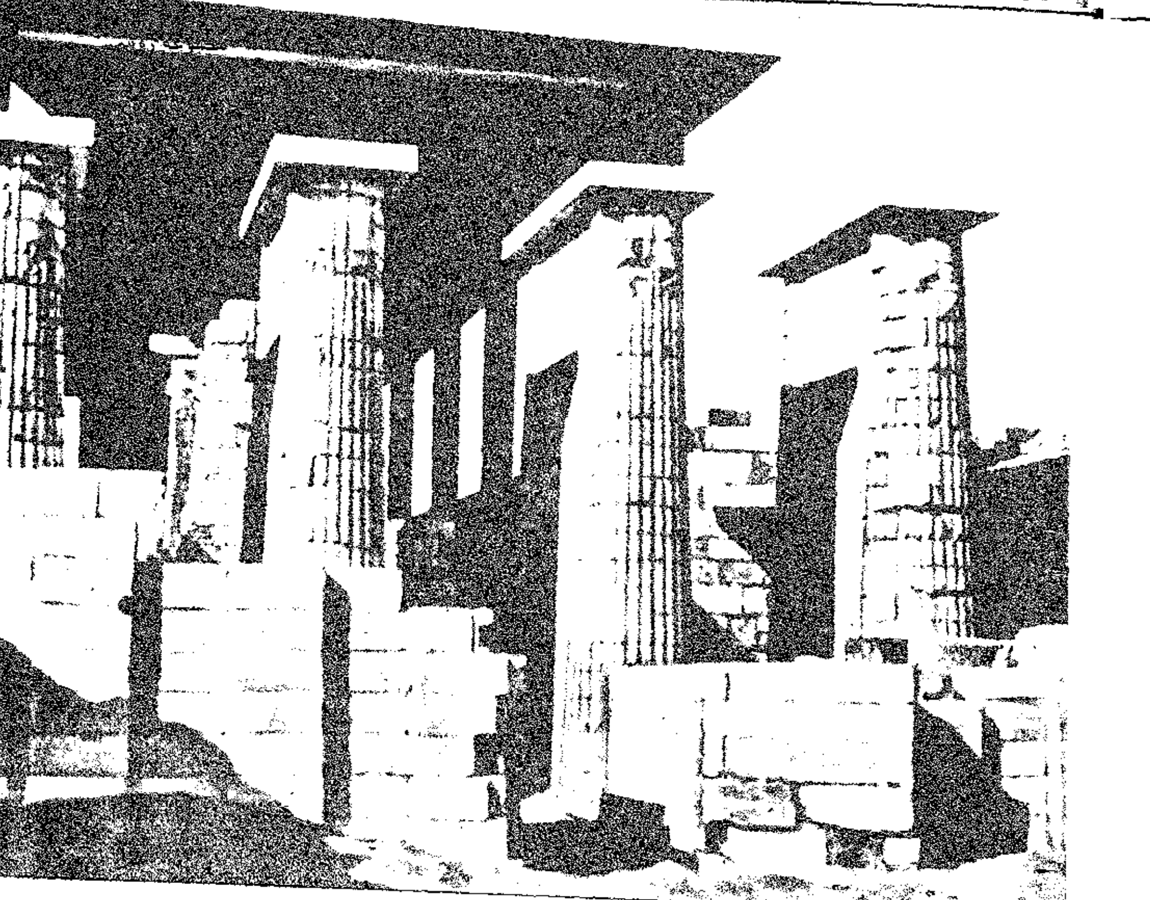
□ مقطع رأسي لشكل الهرم الأكبر الخاص بالملك خوفو، بالجيزة

إن فترة المملكة القديمة، التي امتدت خلال الأسرات الست الأولى، كانت عهداً من السلم والرضا، وقد تميزت بالتقدم الكبير في عمارة البناء والعلوم الانسانية[2] فابتداء من الدولة المصرية القديمة تكشف الحضارة المصرية عن كامل شخصيتها، ولقد ظلت العقلية المصرية وفية لمقوماتها فيما قبل التاريخ. ويعتقد المصريون القدماء أن الروح المقدسة تعمل كقوة حيوية كامنة في الكائنات والأشياء، وعلى ذلك فإن المعتقدات المصرية تمدنا بمفهوم مادي للطبيعة أكثر مما تمدنا بتظام ما وراء الطبيعة، ولم يكن للطقوس الدينية والفنون التشكيلية والعمارة المقدسة في حيزة الحياة الواقعية مكان أقل مما للطب أو الزراعة أو صناعة الفخار[3].

لقد استكملت الأسس الاجتماعية والحضارية لمصر الفرعونية مقوماتها في ظل الأسرتين الأولى والثانية اللتين حكمتا مصر بعد توحيدها، وتنتمي كل منهما إلى (تا أور) وهو الاقليم الذي سمي فيما بعد بإقليم طينة، ودام حكمهما ما يقرب من مائتي عام (حوالي ٣٠٠٠ ـ ٢٨٠٠ ق.م) وقد أثبت نواحي إيجابية عن أعمال أسرتي طينة من نقوش حجرية بالرموز وهي جزء من حوليات تاريخية كتبت ونقشت في مدينة منف في عهد الفرعون كاكاي من الأسرة الخامسة[4].

لم يبق من آثار أسرتي طينة إلا القليل، حيث عثر في طينة على مقابر الفراعنة الأول، وكانت مبنية باللبن (الطوب غير المشوي) وفي عهد الأسرات المنفية أي التي حكمت من مدينة منف، انبثقت دولة كاملة التنظيم من الناحيتين المالية والضرائبية، فاستتب الأمن فيها، وازدهرت في عهدها الحضارة ازدهاراً سريعاً، وتقدمت الصناعات والفنون خاصة فن البناء، إذ بنى زوسر أحد فراعنتها هرمه الكبير المدرج في سقارة[5] وهو في أغلب الظن أول وأضخم بناء حجري عرفه تاريخ الانسانية[6] والمعبد الجميل الذي حوله، وفي عهد الأسرة الرابعة بنيت السفن التجارية الكبيرة واستخرج النحاس الأحمر والفيروز من مناجم سينا[7] وشيد خوفو وخفرع ومنكرع من فراعنة تلك الأسرة أهرامهم الهائلة فوق هضبة الجيزة[8] التي دلت على رقي في الهندسة والعمارة. وكذلك بنى خفرع تمثال (أبو الهول) ولعله أشهر (تمثال) في العالم[9] وفي عهد الأسرتين الخامسة والسادسة بنى الفراعنة أهرامهم في أبي صير وسقارة وبنى المواطنون الأشراف مقابرهم ومصاطبهم حول أهرام ملوكهم. ونقشوا جدرانها بنقوش مدهشة بلغت حداً كبيراً من الجمال والكمال[10].

١ ـ **القبور**: اعتقد قدماء المصريين بخلود الحياة بعد الموت، وكان اهتمامهم بالحياة الثانية يفوق اهتمام أي شعب آخر في التاريخ القديم[11] مما دعاهم إلى تشييد مقابر متينة أطلقوا عليها اسم (برزرت) أي (البيت الأبدي) وترجع عقيدة الخلود عندهم إلى ما قبل الأسرات، حيث كان



المتوفي يوارى في حفرة عميقة في الرمل أو الصخر اللين الذي يلي الرمل، وأقدم هذه الحفرات كانت بيضاوية الشكل أو مستطيلة وتختلف في العمق من متر إلى مترين، وفتحتها لا تتجاوز متراً ونصف المتر لكل جانب. وكانت هناك حفرات كبيرة مستطيلة الشكل تقريباً وحافتها مستديرة قليلاً، ومساحتها أربعة أمتار في مترين، أما عمقها فكان كالحفرات السابقة، وكان المتوفي يوارى الحفرة على شكل الجنين، وتوضع معه الأدوات الجنائزية، ثم تنهال فوقه الرمال ولما زادت حاجة المتوفي إلى الأدوات الجنائزية، أضافوا إلى حجرة الدفن رفاً في الجهة الغربية، توضع فوقه الأواني الكبيرة. ثم تطور الحال وازداد عرض الرف. وكان هذا النوع من الحفرات يكسى براقة من اللبن حول الحافة المستديرة، وكانت هذه الحفرات تحفر موازية للنيل، كما كان الرأس يتجه في معظم الأحوال لجهة الجنوب[١٢] أما القصور وبيوت السكن فكانت تبنى من اللبن[١٣].

وقد جرى تقدم سريع في الهندسة المعمارية في ظل ملوك طينة، فارتفع سقف القصور الملكية، وبنيت المقابر الكبرى للملوك والأشراف، وكانت تحتوي على مجموعات واسعة من الغرف الجنائزية يعلوها بناء من اللبن. وكانت تلك الغرف مكسوة باللبن ومسقوفة بأخشاب وقد عمد الفراعنة إلى تكبير حجم مقابرهم لتمييزها عن مقابر الشعب[١٤].

ففي أواسط الأسرة الأولى زاد حجم المقابر الملكية وشيدوا حوائط متقطعة أدت إلى وجود عدد من الحجرات الصغيرة، ثم بنيت درجات من الطوب تؤدي إلى غرفة الدفن. ثم شيدت حولها عدة غرف صغيرة لاستعمالها كمخازن للأدوات الجنائزية وكمقابر لأفراد حاشية الفرعون المقربين. وسدت فوهة المقبرة بأكوام من الرمل والطوب، وأقيم عليها شاهدان يحملان رسم الفرعون ويدلان على موقع القبر. ومن أهم آثار العصر الطيني أي الأسرتين الأولى والثانية توجد مقبرة في ناحية نقادة بين أبيدوس والأقصر مبنية فوق سطح الأرض، وتبدو لأول وهلة كمصطبة من مصاطب الدولة القديمة وهي مقبرة الفرعون (عمح)، وقد شيدت بأكملها من اللبن. وقد اتخذت الثغرات الغائرة، والبروزات الناتئة في جهاتها الأربع فيما بعد كشواهد لقبور الدولة القديمة. وتمثل هذه الثغرات والبروزات في الواقع ما كانت تزدان به المساكن القديمة المبنية من اللبن والخشب. وكانت مقابر الخاصة محتفظة ببساطة مظهرها. وبمرور الزمن تطورت العقيدة فزادوا على البناء المستطيل المرتفع غرفة للصلاة ولحرق البخور، وكان هذا النظام هو نفسه الذي اتبع فيما بعد في مقابر الدولة القديمة[١٥].

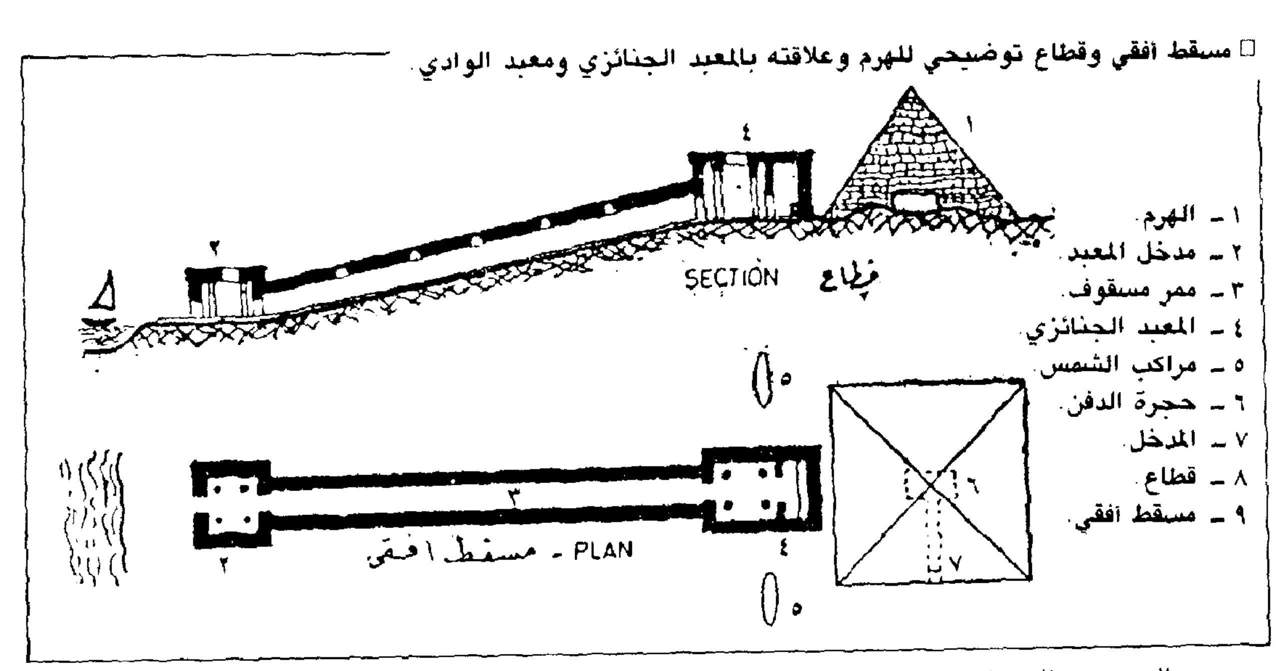
وكان الفرعون دن من الأسرة الأولى قد أمر بأن يصنع قبره من الحجر وأن تكون أرضيته من الغرانيت، غير أنه لم يعثر على مقبرة بنيت كلها من الحجر الجيري والغرانيت إلا في أواخر الأسرة الثالثة، ويلاحظ أنها أقيمت ومداخلها إلى الشرق، وقد وضعت على جانبي المدخل لوحتان جنائزيتان[١٦].

الأسرة الثالثة: ٢٨٠٠ ــ ٢٧٢٠ ق.م

اقترن عهد الأسرة الثالثة بتقدم فن البناء، إذ انتقل من البناء بالطوب إلى البناء بالحجر وأصبحت مقابر علية القوم أكثر اتساعاً وثراء، وزادت الآثار المنحوتة عدداً وجمالاً، كما زادت الآثار المكتوبة وأصبحت أكثر دقة، ويرجع الفضل في تكديس تلك الثروات الفنية إلى حكمة كبير وزراء زوسر الوزير إيمحتب، ويعتبر زوسر منذ القدم مؤسس لأسرة منف الثالثة على الرغم من أنه ابناً وريثاً للملك سخخموي آخر ملوك الأسرة الثانية[١٧].

وقد أقام إيمحتب بوصفه كبير مهندسي الفرعون، المجموعة الجنائزية الضخمة للفرعون زوسر التي يحيط بها سور حجري كبير. اتخذت مقبرة الفرعون شكل هرم متدرج كبير أقيم إلى جانبه نموذج ضخم لمعبد اليوبيل، والهياكل التي تحيط بهذه المجموعة المعمارية هي بديل مشوه للهياكل الحقيقية. فوراء الواجهات المقامة بالحجر الجيري، كان الداخل محشواً بقطع من الحجارة الصغيرة، مما يجعل المكان ضيقاً عديم الجدوى، لكن يلاحظ أن الحجر الجيري لم يسبق أن استخدم على هذا النطاق الواسع[١٨]، وكان استخدامه فاتحة عهد جديد في تاريخ العمارة المصرية[١٩].

□ مسقط افقي وقطاع توضيحي للهرم وعلاقته بالمعبد الجنائزي ومعبد الوادي.



بني الهرم من الحجارة الجيرية البيضاء، يبلغ طول كل منها ٥٢ سم، أما طريقة البناء فكانت على الوجه التالي: بنى إيمحتب حفرة كبيرة في الصخر مساحتها ٨ أمتار، وعمقها ٢٥ متراً ثم حفر سلماً في الصخر نفسه يؤدي إلى نهايتها، وكسا قاع الحفرة بحجر الغرانيت الذي جلبه من محاجر أسوان وبنى فوق تلك الأرضية غرفتين، كسيت حوائطهما بالقشاشي الأخضر والأزرق على هيئة سيقان نبات البردي، وأقام بينهما باباً كتب عليه اسم الملك وألقابه، ثم أضيفت بعض غرف جانبية وعدة ممرات (نتيجة لتغيير تصميم الهرم)، وأحيطت هذه الغرف والممرات بسلم يؤدي إليها، حتى سطح البناء، وقد كدست الممرات المحيطة بالغرف الرئيسية (بعد دفن الميت) بالآلاف من الأواني المصنوعة من الأحجار الصلبة كالمرمر (Albaster)، والديوريت (Diorite) والبروشيا (Breccia)، والغرانيت (Granite)، والأردواز (Shist) والسربانتين (Serbentine) ولم يوجد في الأواني أي طعام، وربما كان يحفظ بها قرابين وهمية، وأقيم فوق الأرض بناء مستطيل (كان مربعاً قبل تغيير التصميم) مسطح من الحجر الجيري الأبيض الجميل على شكل مصطبة، يبلغ ارتفاعه حوالي ١٢ متراً وطوله ١٢٢ متراً، وفوق هذا البناء الضخم أقيمت خمس مصاطب أخرى بعضها فوق بعض بشكل تكون فيه المصطبة التالية أصغر من التي تحتها بشكل منتظم وكان ارتفاعها كالآتي:

الاولى حوالي ١١.٤٨م.
الثانية حوالي ١٠.٩٥م.
الثالثة حوالي ١٠.٤٣م.
الرابعة حوالي ٩.٩٢م.
الخامسة حوالي ٩.٣٩م.
السادسة حوالي ٨.٨٩م.

واتخذ البناء بعد ذلك وبعد إتمامه شكل الهرم المدرج، وكان ارتفاعه الكلي حوالي ٦١.٦ متراً. وقد أحاط زوسر هذا الهرم وما حوله من معابد بسور خارجي[٢٠] سمكه ستة أمتار وارتفاعه عشرة أمتار، وطبقته الخارجية من الحجر الجيري، ويمتد حول مساحة ١٢٠.٠٠٠ متراً مربعاً، يتوسطها الهرم ويحيط به معبدان للشمال والجنوب. وبني في جدار السور أربعة عشر باباً وهمياً، على حين لا يوجد سوى باب واحد حقيقي عرضه حوالي متر تقريباً يستطيع المرء أن ينفذ منه خلال هذا السور[٢١].

وكان إيمحتب قد صمم الأبنية الحجرية الجديدة على شكل أبنية البوص والخشب القديمة، وشرع الفرعون سخم خت في بناء مجموعة معمارية في سقارة أيضاً شبيهة بمجموعة زوسر بعد وفاته بقليل مستخدماً كتلاً حجرية أضخم[٢٢] وأعقب الدفعة الجديدة التي أعطاها زوسر للبلاد عمل إنشائي دؤوب في ظل ملوك طينة، ازدهرت تارة لمدة تزيد على أربعة قرون[٢٣].

الأسرة الرابعة: ٢٧٢٠ ـ ٢٥٦٠ ق.م

وقد روعي في بناء الهرم ابتداء من الأسرة الرابعة أن يشيد في مداميك أو صفوف متتالية تبدو كالدرج، حتى إذا بلغت القمة غطي الهرم كله ابتداء من قمته بطبقة من الحجر الجيري أو الغرانيت، أخفت تحتها المداميك فظهر الهرم كاملاً مستوي الجوانب[٢٤] وقد أحسن المهندسون الذين نهجوا نهج إيمحتب في استخدام الحجر في البناء، وشيدوا مباني حجرية صالحة للاستعمال العملي المباشر[٢٥].

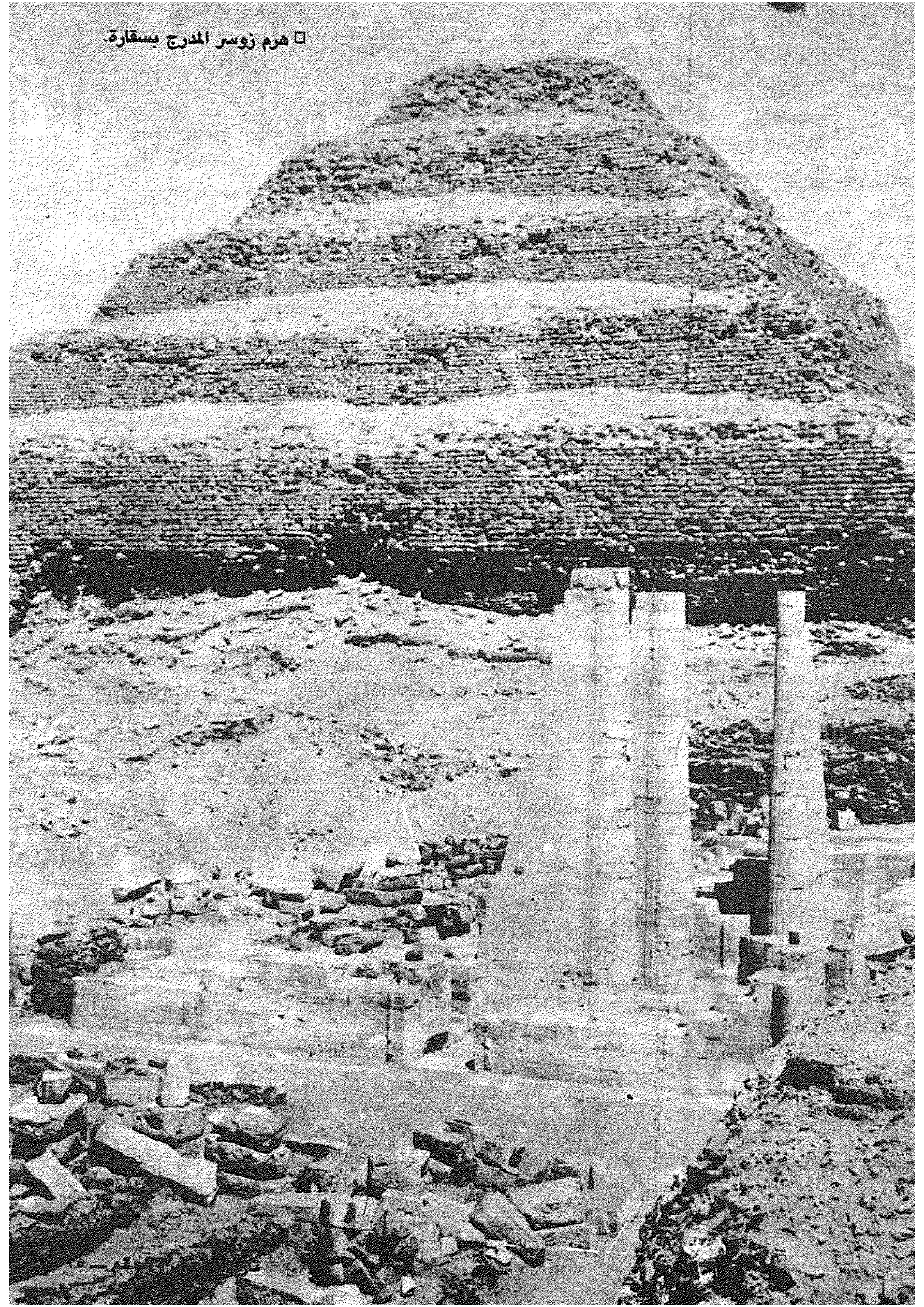
وبلغت مصر خلال الفترة التي امتدت من حكم سنفر، مؤسس الأسرة الرابعة إلى منتصف الأسرة السادسة أولى قممها الحضارية، وحققت نوعاً من الكمال في إنتاجها الفني، ولم تصل مصر في العهود اللاحقة ما بلغته أيام بناة الأهرام. وكأنما تتجسد قوة الفراعنة واستقرار حكمهم في مدافنهم الهائلة. وتمدنا المنشآت والمجمعات الفرعونية، ومصاطب الخاصة المقامة حول الأهرام، بمعظم الوثائق التي تمكننا من رسم صورة للحياة في الدولة القديمة غير أن تلك المقابر لا تحوي إلا القليل مما يساعد على إلقاء ضوء على الحياة السياسية والدينية في المقاطعات. والواقع أن ندرة الوثائق عن حياة الأقاليم هي السمة المميزة لمصادر الأسرتين الرابعة والخامسة. أما الأسرة السادسة فإنها تشهد تكاثر الكتابات الرسمية وبناء مدافن للأشراف وجبانات للعامة في جميع أنحاء البلاد[٢٦].

وكان الحكم الطويل للفرعون سنفرو هو فاتحة عصر الاهرامات الكبرى، فقد تغير التصميم الهندسي للمقبرة الهرمية إذ انتقل مكان غرفة الدفن التي كانت تحت الأرض في هرم زوسر إلى غرفة مشيدة في جسم الهرم غطيت جدرانها وسقفها بأحجار ضخمة من الغرانيت[٢٧] وكان أول هرم للفرعون سنفرو في ميدوم على طريقة الأهرام المدرجة مؤلف من ثماني طبقات فقد بنى مصطبة كبيرة من الحجر الجيري فوق غرفة الدفن وفوق هذه المصاطب التالية حتى أخذ البناء شكلاً هرمياً. إلا أنه يختلف عن هرم زوسر المدرج بأن مصطبته الثانية كانت أعلى من الأخرى بكثير، ولم يظهر البناء في درجات منتظمة إطلاقاً، إذ ملىء الفراغ الذي بين هذه الدرجات بقطع من الطوب والحجر الجيري، ثم كسي البناء كله حتى ظهر الهرم الأول الكامل، وكان ارتفاعه ٣٨م[٢٨] أما الهرم الثاني وهو المعروف بالهرم المنحي[٢٩]، فإن وجوهه ليست ذات ميل واحد، ولكن لها ميلان مختلفان، أما الهرم الثالث لسنفرو وكذلك جميع الأهرامات الأخرى حتى الأسرة الثامنة في جميعها اهرامات كاملة الأوصاف من الناحية الهندسية[٣٠].

وكان بناء السقوف يتم إذا كانت غرف الأهرام ودهاليزها ضيقة، بوضع عتب طويلة من الأحجار تعتمد على الجدارين المتقابلين بحيث تكون قائمة على جانبها حتى تكون السقوف أكثر صلابة ومقاومة. أما إذا كانت الغرف والدهاليز فسيحة فقد لجأ الملك سنفرو والملك خوفو إلى عمل قباء مكونة من كوابيل يعلو كل منها الآخر، بحيث تقترب وتتلاقى في القمة ثم ظهرت طريقة أخرى أكثر بساطة وهي إقامة دعامتين مائلتين على شكل مسنم (جمالوني) فوق جداري الدهاليز الرأسيين يتلاقيان عند القمة، مع إقامة سقف أفقي بإدخال بلاطات أفقية تحت منسوب الدعامتين المائلتين وأعلى جداري الدهليز، فالسقف الأفقي هنا سقف تجميلي يفترض ألا يقع عليه أي ضغط مع إخفاء السقف الحقيقي الذي يعلوه، والذي يمكن أن يحتمل أي ثقل فوقه[٣١].

وعلى هذا النهج بنيت الأهرام بعد ذلك ولا تختلف عما قبلها إلا في أبعادها وأحجامها، كأهرام خوفو وخفرع ومنكورع. وعلى حين لم يتغير شكل الهرم الخارجي أخذت الغرف الجنائزية تصعد من جوف الأرض لتستقر في قلب المبنى ذاته، واختفت فتحات مداخل الأهرام، وأخذت تحجبها بلاطات ملساء في إحدى الجوانب، كما تنوعت الممرات الداخلية الهابطة والصاعدة، فهي أحياناً فسيحة وأحياناً ضيقة تنتهي بعدد من الأحجار التي تسد الطريق إلى غرفة الدفن، وهناك كما في هرم خوفو خمس غرف فوق غرفة دفن الملك تخفف ثقل البناء عليها[٣٢].

وكان يشيد معبد إلى جانب الهرم، ومعبد آخر في الوادي بالقرب من الأراضي الزراعية يربطهما



□ هرم زوسر المدرج بسقارة.



□ إعادة بناء المقبرة الملكية ـ سقارة.

ممر طويل مسقوف يعيده كهنة الهرم عندما يقومون بمهام العبادة، وتصطف الأهرامات الصغيرة الخاصة بالملكات ومصاطب رجال الحاشية بشوارع مرسومة بعناية حول الهرم[٣٣].

ويظن أن ميل جوانب الأهرام كان يخضع لقواعد رياضية وهندسية سهلة الحساب على الطبيعة، مما يسر الدقة والسلامة في التنفيذ، وقد اتبعت منذ الأسرة الثالثة طريقة رص الحجارة في صفوف أفقية يعلو بعضها بعضاً، مع جعل السطحين الداخلي والخارجي مائلين، وتظهر هذه الطريقة في هرمي دهشور الشمالي والجنوبي اللذين أقامهما الملك سنفرو في صفوف أفقية من الحجارة ثم كساهما بطبقة خارجية مائلة من الحجارة[٣٤].

ويختتم الأسرة الرابعة الملك الغامض شبسكاف الذي خلف منكارع، وإنجاز إلى صف كهنة بتاح وبنى مقبرته على شكل تابوت جنائزي كبير في موقع بالقرب من مدينة منف (مصطبة فرعون) ولا شك أن هذا الخروج على قاعدة بناء المقابر على شكل أهرامات، هو دليل العداء لكهنة هليوبوليس، كما وأنه دليل على وجود أزمة سياسية خطيرة[٣٥] وفي فترة الانتقال من الأسرة الرابعة إلى الأسرة الخامسة بنت الملكة خنتي كاوس إحدى بنات منكارع الهرم الرابع بالجيزة[٣٦].

الأسرة الخامسة: ٢٥٦٠ ـ ٢٤٢٠ ق.م

وكانت أهرامات الأسرة الخامسة أصغر بكثير من أهرامات الأسرة الرابعة، ولكنها تحتوي على ذات العناصر، من مدينة للأحياء القائمين بالطقوس الدينية، ومدينة الموتى التي كانت تضم مدافن أسرة الملك وموظفيه وحاشيته[٣٧] ومنذ العهد الأخير للأسرة الخامسة أي حوالي ٢٤٨٠ عمد الملك إلى استعاضة عن البناء الضخم للأهرام ببناء أهرام صغيرة بها نصوص عرفت بنصوص الأهرام، وكان هذا التحول مبعثه تحول في العقيدة[٣٨].

وتعطينا الأسرة الخامسة انطباعاً بالرخاء واستقرار الملك، وذلك من مواقع منشآتها وإن كانت ليست بضخامة منشآت الأسرة الرابعة إلا أنها لا تقل عنها إتقاناً[٣٩].

الأسرة السادسة: ٢٤٢٠ ـ ٢٢٦٠ ق.م

وبانتقال العرش من أوناس إلى تيتي مؤسس الأسرة السادسة، لا يلاحظ أي هبوط في النشاط المعماري، وتستقر مراكز الادارة في المباني الملكية بالقرب من مدينة منف. ويطلق هذا الاسم الذي اختاره الملك (Pepi) ابن تيتي لعاصمته على كل المجمع العمراني، الذي أخذ يتجمع حول القلعة الطينية القديمة عند السور الأبيض[٤٠].

أما المصاطب وهي المقابر الخاصة بعلية القوم ابتداء من الأسرة الثالثة (وحتى الثامنة) فتختلف أحجامها وتنظيمها الداخلي باختلاف العصر وثروة المتوفي. وتحتوي المصطبة دائماً على حجرة دفن تحت الأرض لوضع الجثمان، يمكن الوصول إليها عن طريق بئر خاصة تردم عبر عملية الدفن، وأما حجرات القرابين فكانت تقام فوق سطح الأرض من اللبن أو من قطع الحجارة غير المهذبة، تكسوها طبقة من الحجر الجيري الفاخر. وفي مصر العليا ابتداء من الأسرة السادسة، نجد المصاطب الخاصة تقام في

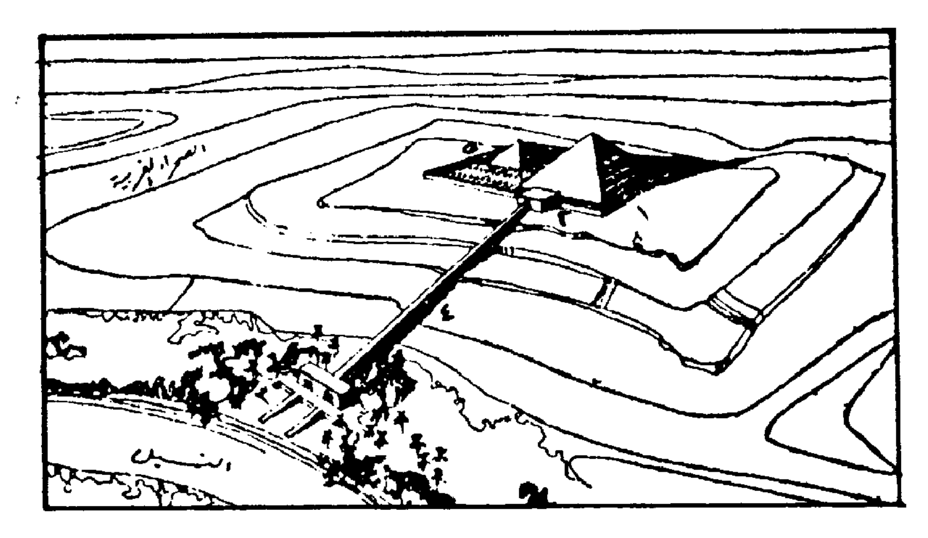
الجبانات المحيطة بالمعابد (كما في دندرة وأدفو). أما في الدلتا فكانوا يكتفون ببناء حجرات مشيدة في الحجر في أعماق الأرض (كما في هليوبوليس ومنديس). أما النموذج الذي ساد الأقاليم الجنوبية، فهو المقبرة المحفورة في الصخر والمكونة من مجموعة من الغرف المتتابعة التي تنتهي ببئر رأسية (كما في قبر وقصر الصيادين وطيبة). وكانت جثث المعدومين الذين لا قبر لهم تلقى على الرمال في الصحراء. ولكن في نهاية الدولة القديمة، وجدت عدد من الحفر البسيطة أو المبنية من الداخل، حيث يدفن بسطاء الناس مع جهاز جنائزي من الأواني والأشياء الرخيصة التي تتفاوت قيمتها بحسب حالتهم الاجتماعية[٤١].

٢ ــ **المعابد**[٤٢]: كان يتبع الهرم من الجهة الشرقية معبد جنائزي تقام فيه الصلوات على روح الميت وتقدم القرابين، وكان يشيد معبد آخر على حافة الوادي متصل بالنيل يسمى معبد الوادي ومتصل بالمعبد الآخر بواسطة طريق مرصوف مسقوف على شكل نفق وفتحات صغيرة بالسقف لدخول الضوء[٤٣] وكان المعبد، في نظر المصريين القدماء بيتاً للاله، ومكاناً مخصصاً لاقامة الطقوس الدينية، ونموذجاً مصغراً للكون في سمائه وأرضه، ومسرحاً يلتقي على منصته الاله والفرعون الذي يمثل شعب مصر، وكان لهذه النظرة آثارها في العمارة المصرية[٤٤] لذلك ارتبطت التقاليد المعمارية في مصر القديمة بالتقاليد الدينية، حتى أصبح لها قداسة دينية تفرض عدم المساس بها. ومن هنا كانت الحرية المتروكة للفنان المعماري محدودة فكان عمله يشمل تصميم المعبد على ضوء الوظيفة التي يؤديها المعبد ومساحات الأراضي الموقوفة عليه، وعدد العمال والمواشي والمواد الثمينة المخصصة له، وكان ذلك يتم بعد اختيار الكهنة للاله الجدير بالمنطقة[٤٥].

كان المعبد يتكون من جزء رئيسي ومقاصير ثانوية للالهة والالهات الأخرى، ومن مذبح أو مذابح تقام أحياناً في طريق المواكب الدينية، وقد ألحق بالمقاصير فيما بعد مبان لاقامة الكهنة ومبان أخرى للأشغال رتبت حسب أهميتها

□ الهرم الأكبر بالجيزة.





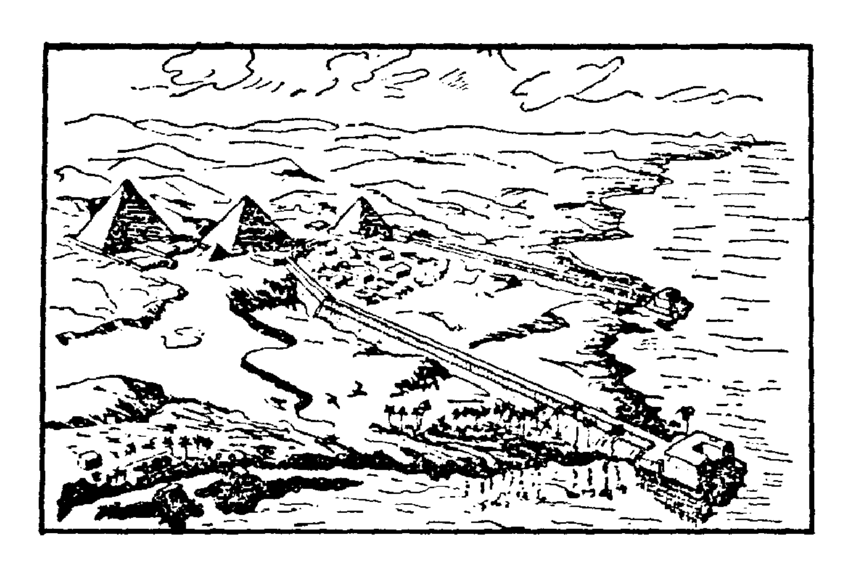
١ ـ الهرم حيث يدفن الملك.
٢ ـ معبد جنائزي للصلاة.
٣ ـ معبد الوادي للاجتماعات.
٤ ـ طريق مرصوف مسقوف.
٥ ـ هرم صغير حيث تدفن الملكة.

الطقسية والدينية والجمالية[٤٦] وكانت المعابد تضم إلى جانب ذلك أحياناً بحيرة مقدسة ينمو على جوانبها النبات كنبات البردى وزهرة اللوتس. وتحيط بالبحيرة أشجار باسقة، وأخرى كثيفة تحيط بساحات بعض المعابد. واستخدم المصريون الضوء في المعبد لبعث الحياة في تمثال الاله، فكانوا يعملون على أن يصل ضوء الشمس إلى حرم المعبد، وأن يمس تمثال الاله وحده كي يبقي ما حوله في ظلام دامس يحيط الاله بالغموض. وكان الضوء يتسلل من نوافد صغيرة في أعلى الجدار عند نقطة التقائه بالسقف أو في السقف ذاته، وكان المعبد يبنى بحيث يضيق من الداخل تدريجياً وتعلو أرضه[٤٧] ويلاحظ أنه يوجد تناسق رائع بين خطوط المعابد الرئيسية وبين خطوط الجبال المجاورة لها[٤٨].

وكان بناء المعابد منذ بداية الدولة القديمة عملاً ميسوراً بالنسبة لبناء الأهرام، إذ أن البنّاء الذي كان على خبرة بالبناء باللبن والخشب، فقد واجهته بعض المشاكل الجديدة الخاصة فإن بناء الهرم هو أكثر تعقيداً من بناء المعبد، لأنه يحتاج إلى دقة غير عادية، إذ لا بد أن يكون كل مدماك في بناء الهرم أفقياً تماماً، وأن تكون الجدران منتظمة ملساء. ولا شك أن تحديد قاعدة تزيد على مائة وثلاثة وثمانين متراً مربعاً مشكلة مساحية كبيرة هذا بالاضافة إلى أن أهرام الدولة القديمة، كانت واجهاتها الأربعة تتجه بوجه عام إلى الجهات الأربعة الأصلية. بينما بناء المعابد ينحصر في تنفيذ الأساسات والسقوف والأعمدة والاضاءة والزخرفة على النهج المعروف[٤٩].

واستطاع المهندسون في نهاية الأسرة الثالثة التخلص من طراز معابد سقارة الالهية، الذي يعبر عن مرحلة الانتقال من استخدام الخشب إلى البناء بالحجر، فأقاموا مبان لا تقل عن أبنية زوسر[٥٠] وإن لم تبلغ البساطة التي بلغتها الخطوط في مباني الأسرة الرابعة، ويعد معبد قصر الصياغة من الأسرة الرابعة من أندر نماذج هذه الفترة، ويتوسط واجهته المستطيلة باب غير مزخرف يؤدي إلى فناء عريض قليل العمق ينتهي بسبع مقاصير مشيدة فوق قاعدة مشتركة، تتميز الوسطى بأنها أرحبها كلها، ويحيط بواجهة المقاصير إطار دقيق يعلوه طنف مقوس قليلاً فوق إفريز خال من النقوش[٥١].

وسرعان ما أخذ ملوك الأسرة الخامسة يقيمون المعابد لتمجيد الاله (رع). وإذا لم يعثر على أثر لمعبد أون (هليو بوليس) الذي يعتبر النموذج الأساسي للمعابد الشمسية فيمكن أن نتبين بعض ملامحه في بقايا المعبد الذي بناه الملك (ني ـ أوسر ـ رع) في أبو غراب شمال أبو صير، وجعل له بوابة ضخمة تربطه بمعبد الوادي الذي ينطلق منه ممر صاعد مسقوف شبيه بالممرات المفضية إلى الأهرام، وهو مائل بالنسبة لمحور المعبد ينتهي ببوابة أخرى تتوسط الجدار الشرقي للمعبد. الذي تؤدى العبادة فيه في الهواء الطلق حول كتلة ضخمة مربعة القاعدة ذات جوانب منحدرة تعلوها مسلة منحوتة من عدة كتل من الأحجار المرصوص بعضها فوق بعض، وهريم هذه المسلة هو المعروف باسم



□ معبد الوادي ومعبد الهرم والطريق الموصل بينهما.

«بنبن» ويرمز إلى الشمس وتحيط بفناء هذا المعبد ابنية العبادة(٥٢).

ويلاحظ أن المعابد والمباني الجنائزية للملوك أبناء إله الشمس في الأسرة الخامسة، أخذت تفقد الضخامة أو الاسراف في العظمة التي اتسم بها طراز الجيزة. ويبدو أنها بأعمدتها المتكررة ذات التيجان التي على هيئة زهر البردى أو سعف النخل وتكوينها الرقيق والتي حلت مكان الأعمدة المربعة، كانت أقرب إلى فن العمارة الذي ساد عهد زوسر. وعلى الرغم من أن أشكال فن الدولة القديمة عامة بقيت تتسم بمواصفات الأسرة الرابعة، فإن النزعة الطبيعية الرشيقة المألوفة عن حضارة الشمال أخذت تظهر مرة أخرى(٥٣).

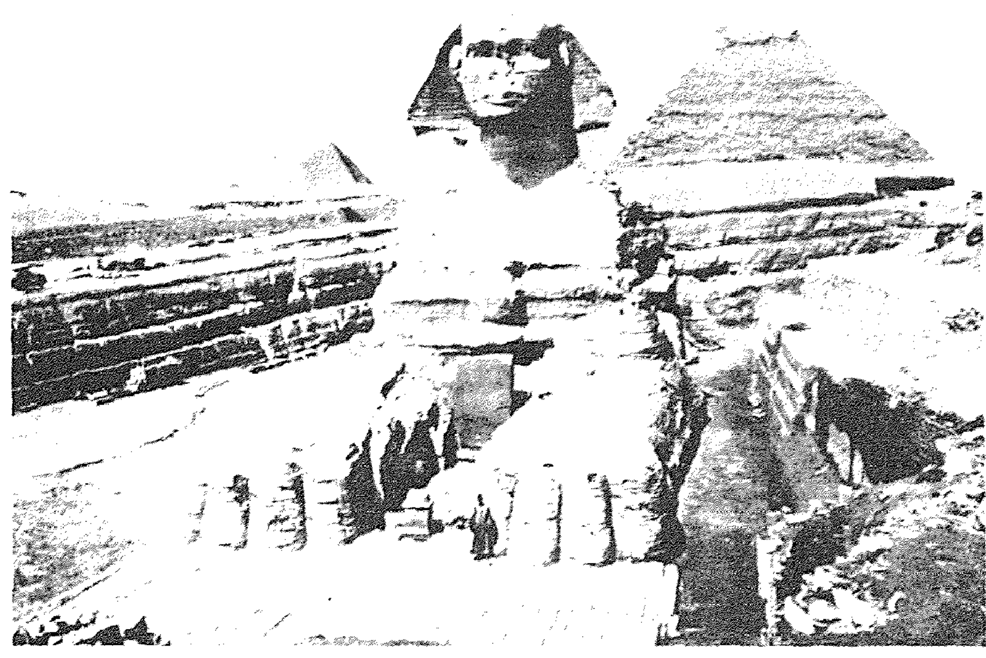
كان بناء المعابد يبدأ بإرساء الأساسات التي تسبقها عملية حفر تختلف عمقاً باختلاف نوع الأرض ومقدار ثقل هذه الأساسات، فإذا كانت الأرض طينية وصل عمق الحفرة إلى ثلاثة أمتار، ثم تقام في جوانب الحفرة حواجز مبنية من اللبن، ويفرش قاعها بطبقة من الرمل بني عليها أحجار الأساس، ثم يردم الفراغ حولها كذلك بالرمل. أما إذا كانت الأرض رملية أو جيرية فإنه يكتفى بحفر حوالي نصف متر تحت مستوى سطح الأرض، ثم ترص أولى طبقات الحجارة مباشرة على قاع الحفر، وكان المصريون يشكلون الأساسات أحياناً من أحجار مختلفة الحجم أو من بقايا مبان أخرى. وقد اتبعت في سقوف المعابد طريق مد الألواح الحجرية الطويلة على جوانبها(٥٤)، ونحت وتقويس كل لوح حجري على حدة من أسفل لتبدو الألواح كأنها دعائم خشبية.

وقد ظهرت قباء عالية في الأبنية المدنية والدينية المبنية من اللبن المجفف. وذلك بإقامة جدار في نهاية الغرفة أو الدهليز أكثر ارتفاعاً من جداري الغرفة المتقابلين، ثم كانت توضع صفوف من اللبن رأسية مرتكزة على كل من الجدارين المتقابلين على أن يميل اللبن في اتجاهين. فهو يميل أولاً على الجدار المرتفع القائم في نهاية الغرفة، كما أنه يوضع مائلاً في اتجاه الجدار المقابل ـ وهكذا حتى يتلاقى جدارا القبو المائلان عند القمة، وقد أغنت هذه الطريقة عن وضع ركائز خشبية مؤقتة أو ردم المبنى مؤقتاً بالأتربة لامكان إقامة القبو فوقها(٥٥).

وقد عنى المصريون بمشكلة التخلص من مياه المطر، حتى لا تفسد الزخارف الملونة داخل المعابد إن تسربت فيها. فكانت تترك قنوات صغيرة على طول الفواصل بين الكتل الحجرية وكانت تلك الفواصل تسد بسدات حجرية، كذلك حرصوا على ألا تتسرب مياه المطر من فتحات السقوف فرفعوا أجوافها بقدر طفيف. وكان تصريف الماء يتم بجعل سقوف المباني الصغيرة مائلة ميلاً خفيفاً لكي يسيل الماء إلى جانب المبنى ويصب في قناة. أما في المباني الكبيرة فكانت القنوات المائلة تدفع الماء إلى الميازيب(٥٦).

وكان اختيار المواد ونقلها من أهم المشاكل التي شغلت المهندسين وكانت للعوامل الاقتصادية والدينية أثرها في اختيار مواد البناء، فكانت الأحجار تخصص للمعابد ضماناً لبقائها. بينما

□ هرما خفرع ومنكاوورع
وأمامهما أبو الهول.



تقام الأبنية الثانوية كالمخازن والمباني الادارية الملحقة بالمعابد من اللبن، ونظراً لافتقارهم إلى الأخشاب فقد قللوا ما أمكن من استعمال الأخشاب، ولم يبق إلا آثاراً نادرة من الخشب المستعمل في المباني(٥٧).

واستعملت أنواع كثيرة من الحجارة، هي: الحجر الجيري العادي، والحجر الرملي الهش ثم الحجر الجيري الممتاز، والغرانيت، والبازلت الأسود، الكوارتز الأحمر، والمرمر، والحجر الرملي البلوري، وكانت الأحجار الرملية والجيرية الممتازة تستعمل في الطبقة السطحية الخارجية للبناء، على حين تستعمل الأحجار الجيرية العادية داخل البناء، وتستعمل الأحجار الصخرية الأكثر صلابة أحياناً للآثار المقدسة ذات الأهمية الخاصة في المعابد. غير أن مشكلة النقل كان لها أثرها في اختيار أحجام الحجارة، فبينما كان طول الحجر يبلغ ٢٥ سم في مباني الملك زوسر، فقد كانت تتراوح بين ٥٠ سم في مداميك أهرام الجيزة العليا وبين ١٢٥ سم في المداميك السفلية، ولكن أحجام الحجارة أخذت في التناقص التدريجي مع مرور الزمن(٥٨).

أما الأعمدة فقد كانت في بدايتها عبارة عن قوائم خشبية (جذوع الأشجار) تسهم مع الجدران في حمل السقف، وقد ارتبطت الأعمدة منذ ظهورها بعنصرين رئيسيين هما قمة العمود وقاعدته، ومنذ حل الحجر محل اللبن في منتصف الدولة القديمة، اخذت الأعمدة الحجرية تحل محل الأعمدة الخشبية. ويمكن أن نتبين في هذا العصر نشأة الأعمدة وتطورها: فقد بدأ ظهور أعمدة ملتصقة بالجدران غير كاملة بسبب اندماج جزء منها في الجدار حتى سميت أحياناً بالأعمدة النصفية أو المتشابكة، واتخذت عدة أشكال فهي أحياناً ذات أضلاع هندسية، وأحياناً شبيهة بجذوع النخيل أو بجزم النباتات. وقد اكتشفت أربعة نماذج لها تنتصب دون قاعدة وتعلوها أوراق نبات، كما في بيت الجنوب، بمجموعة مباني زوسر ثم ظهرت في الأسرة الرابعة الأعمدة المربعة الضخمة المنحوتة من كتلة واحدة كما في معبد الوادي للملك خفرع المشيد من كتل الغرانيت والذي ازدانت قاعته الرئيسية بثلاث وعشرين تمثالاً، أما المعبد الأعلى وهو المعبد الجنائزي فيتكون من قاعتي أعمدة وغرفتي أضيق منهما توضع فيها التماثيل. ويلاحظ في مجموعة المباني هذه التناسب المعماري بين الأعمدة والبناء، مما يتفق مع الأعمدة الغرانيتية الضخمة التي تعلوها الكتل الحجرية، مع بساطة محببة، وهذا على النقيض من الأعمدة ذات الزخارف النباتية التي سبقتها في سقارة. وظلت هذه الأعمدة عارية من الزخارف

حتى بدأت الأسرة الخامسة بزخرفة الأعمدة المربعة بنقوش محفورة. وظهرت الأعمدة على شكل أزهار البشنين وهي شبيهة بحزم النباتات البدائية، ويبدو جسم كل عمود كأنه مكون من سيقان مستديرة، يقل سمكها تدريجياً نحو القمة حيث تربط بخمسة أربطة تظهر فوقها زهرة تكاد تكون متفتحة. وظهرت الأعمدة النخيلية التي نراها في معبد (ساحورع) وني — أوسر — رع) في أبو صير، والتي يندر وجودها بعد الدولة القديمة وأخيراً الأعمدة البردية ذات الحزم الموثقة والزهرة التي لا يفصل بين وريقاتها برعم[٥٩] وقد اعتبر العمود بالاضافة إلى وظيفته الأولى عنصراً تجميلياً، فقد جوروه وجملوه بالزخارف الملونة، ونحتوها مربعة أو متعددة الأضلاع ومستديرة ومفلطحة الطرف العلوي[٦٠].

٣ — **المباني المدنية**: إن إيمان المصريين القدماء بفناء الحياة وخلود العالم الآخر[٦١] دفعهم إلى بناء منازلهم من اللبن، غير أنهم عنوا بزخرفتها فقطعوا سقوفها وجدرانها بألوان زاهية مختلفة، وقسموا الجدار الواحد أحياناً أقساماً وجعلوا لكل منها لوحاً مختلفاً، أحمراً أو أخضراً أو بلون الخشب أو الحجر، وصوروا على الجدران البيضاء في غرف الجلوس بعض صور الأفراد، أو بعض مشاهد الحياة اليومية، وزينوا لوحاتهم بإطار يعلوه شريط من الأزهار[٦٢].

وقد أتاحت الرسوم القائمة في المقابر فيما بعد معرفة الكثير عن تفصيلات هذه الدور، فقاعات الاستقبال الكبيرة ترتفع سقوفها على أعمدة، ودور الريف الفسيحة، وحظائر الحيوانات الداجنة التي تتقدمها لها صفة ذات أعمدة وتحمل الأعمدة بعض سقوفها، في حين تحيط بقصر الملك الحدائق الفسيحة التي تتخللها الجداول والبحيرات، وكانت تقام فيه حفلات الموسيقى والرقص[٦٣] وقد عثر على أول جزء من هذه المباني المدنية، التي كانت مبنية من اللبن، وكانت مرسومة رسماً تخطيطياً، ومن بينها المنازل المنفردة التي كان لها مداخلها الخاصة وغرفها التي روعيت فيها الشروط الصحية، ووسائل التهوية والنوافذ التي تسمح بدخول أشعة الشمس، وقد تجلت مهارة المهندسين الذين شيدوا هذه المساكن بخلق تخطيط منظم بديع وكونوا المدن بكل ما يلزمها من طرق وشوارع وميادين ومساكن وأنفاق وأحواض للمياه[٦٤].

●

مراجع البحث

(١) المعرفة، اللجنة العلمية الاستشارية للمعرفة، (مطبعة داغر — لبنان).
(٢) د. بدوي، أحمد ود. مختار، محمد جمال الدين: **تاريخ التربية والتعليم في مصر**، (القاهرة — ١٩٧٤).
(٣) حمد عبدالجواد، توفيق: **تاريخ العمارة والفنون**، (ط ٢، ج ١ — ١٩٧٠).
(٤) يويوت، جان: **مصر الفرعونية**، ترجمة سعد زهران، (مؤسسة سجل العرب — ١٩٦٦).
(٥) صابر، محمد: **مصر تحت ظلال الفراعنة**، (مكتبة الانجلو المصرية).
(٦) حتي، فيليب: **موجز تاريخ الشرق الأدنى**، (دار الثقافة — بيروت ١٩٦٥).
(٧) عكاشة، ثروت: **الفن المصري**، ج ١، (دار المعارف — مصر).
(٨) — Hayes, Williamc: *The Seepter of Egypt*, (New York).
(٩) علامة، نعمت إسماعيل: **فنون الشرق الأوسط القديم**، (دار المعارف — مصر).
(١٠) د. عصفور، محمد أبو المحاسن: **معالم حضارات الشرق الأدنى القديم**، (دار النهضة العربية — ١٩٧٩).

الهوامش

(١) المعرفة، اللجنة العلمية الاستشارية للمعرفة، مطبعة داغر لبنان، م ٢ ص٢٩٠.
(٢) المرجع نفسه، ج٢ ص٢٩٠.
- تاريخ التربية والتعليم في مصر، تأليف د. أحمد بدوي، د. محمد جمال الدين مختار، القاهرة سنة ١٩٧٤، ص٢٣ — ٢٤.
تاريخ العمارة والفنون، لتوفيق حمد عبدالجواد، الطبعة الثانية سنة ١٩٧٠، ج١ ص٥٠.
(٣) مصر الفرعونية، تأليف جان يويوت، ترجمة سعد زهران، مؤسسة سجل العرب، سنة ١٩٦٦، ص٣٥ — ٣٦.
(٤) المرجع نفسه، ص ٢٨.
(٥) مصر تحت ظلال الفراعنة، محمد صابر، مكتبة الانجلو المصرية، ص١٧ — ١٨.
(٦) تاريخ التربية والتعليم في مصر، ص ٣٦.
- المعرفة، المرجع السابق، م٢ ص٢٩٠.
(٧) مصر تحت ظلال الفراعنة، ص١٧ — ١٨.

(٨) المعرفة، م٢ ص٢٩٠.
- تاريخ العمارة والفنون، م٠ ص٥٠.
(٩) المعرفة، ج٢ ص٢٩٠.
(١٠) مصر تحت ظلال الفراعنة، ص١٧ ــ ١٨.
(١١) المرجع نفسه، ص ١٧.
- موجز تاريخ الشرق الادنى، فيليب حتي، دار الثقافة، بيروت سنة ١٩٦٥، ص ٦٣.
(١٢) مصر تحت ظلال الفراعنة، ص٨٤ ــ ٨٥.
- الفن المصري، لثروت عكاشة، دار المعارف بمصر، ج١ ص٣٧٣ ــ ٣٧٤.
— The Seepter of Egypt, By William. C. Hayes, New York, p. 52-53.
(١٣) مصر تحت ظلال الفراعنة، ص ٢٤ وما بعدها.
— The Seepter of Egypt, op.cit., p.49-50.
(١٤) مصر تحت ظلال الفراعنة، ص٨٦ وما بعدها.
- مصر الفرعونية، ص ٣٢.
(١٥) مصر تحت ظلال الفراعنة، ص٨٦ ــ ٨٩.
- الفن المصري، ج١ ص٣٧٤.
(١٦) الفن المصري، ج١ ص٣٧٤.
(١٧) مصر الفرعونية، ص٣٤.
(١٨) المرجع نفسه، ص ٣٥.
(١٩) المرجع نفسه، ص ٣٤.
- فنون الشرق الأوسط القديم، تأليف نعمت إسماعيل علامة، دار المعارف بمصر، ص٧٧.
(٢٠) مصر تحت ظلال الفراعنة، ص٩٠ ــ ٩٤ و ١٠٦ و ١٠٧.
- الفن المصري، ج١ ص٣٧٤ ــ ٣٧٦.
(٢١) الفن المصري، ج١ ص٣٧٥ و ٣٧٨.
(٢٢) مصر الفرعونية، ص ٣٥.
— The Seepter of Egypte, p.59, 50.
(٢٣) مصر الفرعونية، ص ٣٥.
(٢٤) الفن المصري، ج١ ص٣٨٢.
(٢٥) مصر الفرعونية، ص ٣٥.
(٢٦) مصر الفرعونية، ص ٣٧ ــ ٣٨.
(٢٧) فنون الشرق الأوسط القديم، ص ٧٨.
(٢٨) مصر في ظلال الفراعنة، ص٩٤ و ٩٥.
- الفن المصري، ج١ ص٣٥٤ ــ ٣٥٦.
- مصر الفرعونية، ص ٥٣.
— The Seepter of Egypte, p. 60.
(٢٩) المعروف عند العامية بالهرم الكذاب.
(٣٠) مصر الفرعونية، ص٥٤.
(٣١) الفن المصري، ج١ ص٣٥٦.
(٣٢) الفن المصري، ج١ ص٣٨٢؛ مصر الفرعونية، ص ٣٨ ــ ٤٠.
الفن المصري، ج٢ ص٥٥٦؛ مصر في ظلال الفراعنة، ص ١٢٣ ــ ١٥٢، ١٥٩ ــ ١٦٧ و ١٧٥ بعدها.
(٣٣) مصر الفرعونية، ص ٥٤.
(٣٤) الفن المصري، ج١ ص٣٥٤.
(٣٥) مصر الفرعونية، ص ٣٩.
(٣٦) مصر الفرعونية، ص ٤٠.
- يراجع في أعمال الأسرة الرابعة:
The Seepter of Egypte, p. 61-63.
(٣٧) الفن المصري، الجزء الأول ص ٢٨٤ ــ ٣٨٥.
(٣٨) الفن المصري، الجزء الأول ص ٢٠٥.
(٣٩) مصر الفرعونية، ص ٤٠.
يراجع في الأسرة الخامسة:
The Seepter of Egypte, p. 66-72.
(٤٠) مصر الفرعونية، ص ٤١.
(٤١) مصر الفرعونية، ص ٥٤ ــ ٥٥.
The Seepter of Egypt, p. 51-52.
(٤٢) يراجع:
معالم حضارات الشرق الأدنى القديم، ود. محمد ابو المحاسن عصفور، دار النهضة العربية سنة ١٩٧٩، ص ١٣٩ ــ ١٤١.
(٤٣) تاريخ العمارة والفن، ج١ ص١٢٢.
(٤٤) الفن المصري، ج١ ص٣٤٣ ــ ٣٤٤.
(٤٥) المرجع نفسه، ج١ ص٣٤٧ ــ ٣٤٨ و ٣٥٠.
(٤٦) الفن المصري، ج١ ص٣٤٣ ــ ٣٤٤.
(٤٧) المرجع نفسه، ص ٣٤٤.
(٤٨) المرجع نفسه، ص ٣٤٦.
(٤٩) المرجع نفسه، ص ٣٥٠.
(٥٠) راجع معابد زوسر بالتفصيل في: مصر تحت ظلال الفراعنة، ص١٠٩ ــ ١٣٠.
(٥١) الفن المصري، ج١ ص٣٨٢ و ٣٨٤.
راجع في بعض معابد الأسرة الرابعة: مصر تحت الفراعنة، ص ١٥٣ ــ ١٥٨.
(٥٢) الفن المصري، ج١ ص٣٨٤ ــ ٣٨٥.
مصر الفرعونية، ص ٤٠.
(٥٣) الفن المصري، ج٢ ص٥٦٢.
الفن المصري، ج١ ص٣٩٣.
مصر الفرعونية، ص ٥٧.
(٥٤) الفن المصري، ج١ ص٣٥١.
(٥٥) المرجع نفسه، ج١ ص٣٥٢.
(٥٦) الفن المصري، ج١ ص٣٥٦.
(٥٧) المرجع نفسه، ج١ ص٣٥٩.
(٥٨) المرجع نفسه، ج١ ص٣٦٠.
(٥٩) الفن المصري، ج١ ص٣٩٣ ــ ٣٩٤.
مصر تحت ظلال الفراعنة، ص ١١٢ ــ ١٢٢ و ١٢٣ و ١٢٦.
The Seepter of Egypt, p. 68.
(٦٠) الفن المصري، ج١ ص٢٦٦.
(٦١) Histoire de l'art Elie Faure 1976, p. 82-85.
(٦٢) الفن المصري، ج١ ص٣٩٠.
(٦٣) المرجع نفسه، ص ٣٩٠ ــ ٣٩٢، ٤١٠.
(٦٤) مصر تحت ظلال الفراعنة، ص ١٧٨ ــ ١٧٩.

التحديد الزمني لتأريخ تاريخ العرب الحديث والمعاصر



□ طاسة سيراميك من قاشان في ايران تعود للعام ١١٨٧م.

■ د. مروان عبدو

لا يوجد، حتى الآن، مفهوم موحد حول زمن محدد لبداية التأريخ الحديث العربي والدولي. هناك مفاهيم عديدة في أوروبا وأميركا بما فيها اللاتينية، وعند المنظومة الاشتراكية العالمية. وبعض المؤرخين العرب يتخذون بداية القرن التاسع عشر كبداية للتأريخ العربي الحديث. فلنستعرض مختلف النظريات العالمية والعربية والاسلامية بهذا الصدد.

من المعلوم اليوم، أن العصور التاريخية مقسمة بشكل عام إلى أربعة: قديمة، متوسطة، حديثة ومعاصرة.

١ ــ مفهوم التحديد الزمني للتأريخ البرجوازي عند مؤرخي أوروبا وأميركا

في القرون الوسطى[1] قسم العلماء ماضي التاريخ البشري إلى عالم قديم قام على أربع ممالك وهي: مملكة آشور ــ بابل، والمملكة الميدية ــ الفارسية، والمملكة اليونانية ــ المقدونية فالمملكة الرومانية. أما القرون الوسطى فقد افتكروها تكملة لعصر الامبراطورية الرومانية في مظهر (روما الثانية) أو بيزنطية.

أما انسانيو[2] القرنين الخامس عشر والسادس عشر، فقد تكلموا **لأول** مرة، على مفهوم القرون الوسطى (مديوم إيفوم Medium Oevum) في مقابل العصور القديمة (Antiquitas)؛ وقدموا بذلك بداية التأريخ الحديث. ومن أهم مؤشراته النضال لتخليص الفرد والمجتمع من السلطة الكلية للكنيسة الكاثوليكية. إذن، بداية التأريخ الحديث، أعلن

■ البحث من وضع الدكتور مروان عبدو، المحاضر في الجامعة اللبنانية، كلية الآداب والعلوم الانسانية الفرع الرابع كسارة ــ قسم التاريخ.

الانسانيون تطور العلوم والثقافة تحت علم النهضة وانبعاث التقاليد الكلاسيكية.

وقد جاء في الموسوعة السياسية لعام ١٩٧٤ عن مفهوم (عصر النهضة) في أوروبا ما يلي: «عصر النهضة مصطلح على فترة الانتقال إلى العصور الحديثة (القرنان ١٥ ــ ١٦) ويؤرخ لها بسقوط القسطنطينية عام ١٤٥٣م، حيث نزح العلماء إلى إيطاليا ومعهم تراث اليونان والرومان. وكان لهذه الحقيقة تأثير واسع النطاق في الفن والعمارة وتكوين العقل الحديث[٣].

في النصف الثاني للقرن السابع عشر الميلادي، صار تقليداً في جامعات أوروبا تقسيم تاريخ العالم إلى قديم (سقوط الامبراطورية الرومانية الغربية عام ٤٧٦م)، ووسيط وحديث. لكن بداية التأريخ الحديث، كما أسلفنا القول، هو سقوط بيزنطية عام ١٤٥٣م. بداية العصر الحديث تفهم بتنوع في التأريخ البرجوازي. ففي الكتابات الكنسية والارستقراطية هيمنت لمدة طويلة فكرة بداية العصر الحديث بسقوط القسطنطينية، لما سيطر عليها العثمانيون. ولكن، هذا التأريخ هو في الواقع قليل الأهمية، بما أن بيزنطية قبل عام ١٤٥٣م كانت قد تحولت إلى أنقاض حزينة لماضي دولة عظمى. وسقوط بيزنطية لم يحدث أية تحولات جذرية في مسيرة التاريخ العالمي[٤].

وتتفوق في الكتابات التأريخية البرجوازية ــ الليبرالية، فكرة مهيمنة في الوقت الحاضر في أوروبا الغربية، تزعم أن بداية التأريخ الحديث تتمثل في ظهور المبدأ الانساني والاصلاح (ق ١٥ ــ ١٦م).

في القرن التاسع عشر انتشرت في الولايات المتحدة الأميركية وفي أقطار أميركا اللاتينية، وجهة نظر تقول أن بداية التأريخ الحديث تعود إلى الاكتشافات الجغرافية، واكتشاف أميركا بشكل خاص في عام ١٤٩٢م. وانتشرت وجهة النظر هذه في كثير من مدارس وجامعات تلك البلدان.

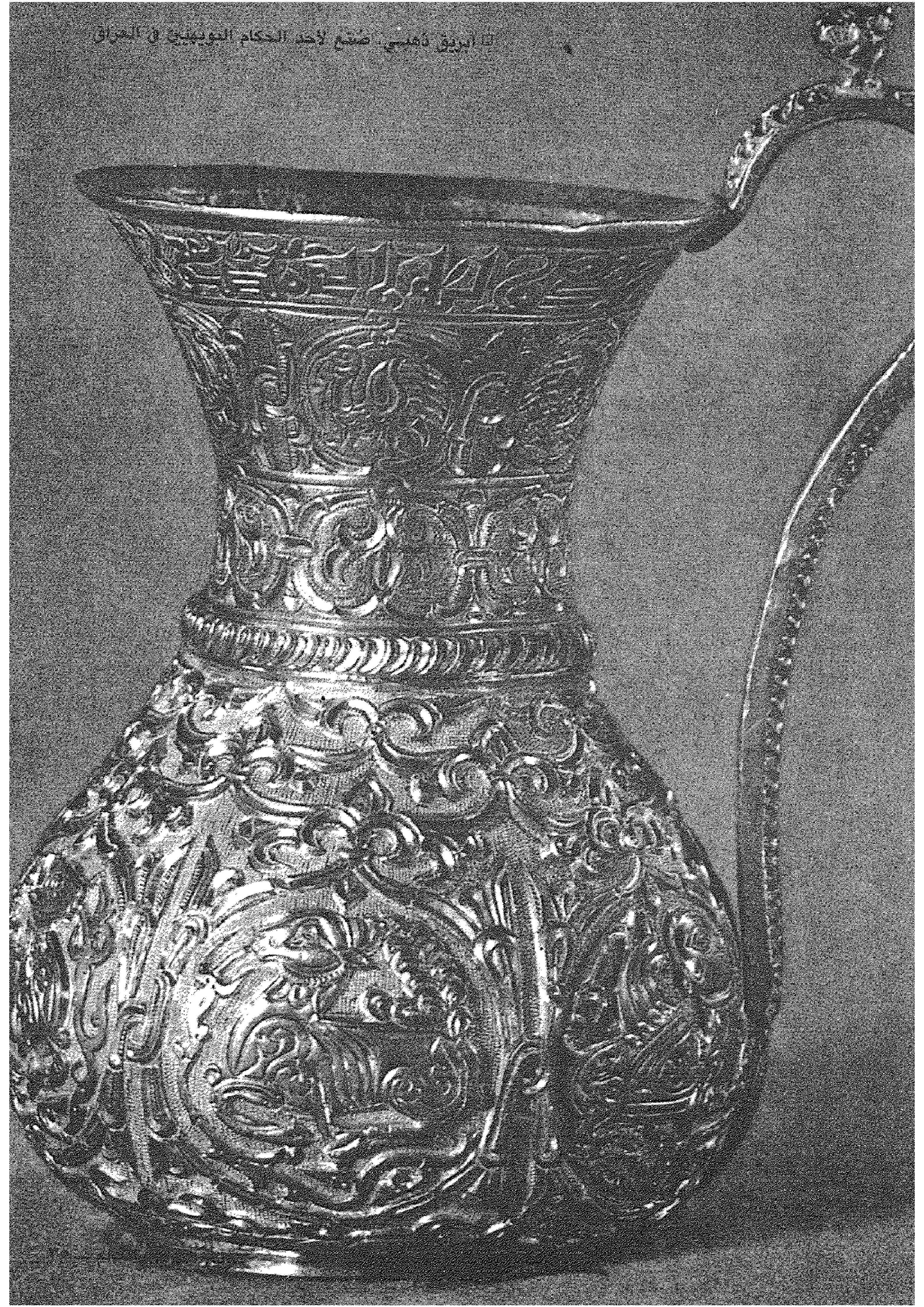
في أوروبا وفي ثمانينات القرن التاسع عشر قسم المؤرخ الروسي أ. ي. متشنيكوف في كتابه بعنوان «الحضارة والأنهار التاريخية العظمى»، التاريخ إلى ثلاث حقب: مرحلة الحضارات القديمة، والقرون الوسطى، وحضارة أوقيانيا. اما بداية الانتقال إلى الحضارة الأوقيانية فقد رآها في الاكتشافات الجغرافية[٥].

وينتقد مقدم الكتاب ــ الذي استقينا منه هذه المعلومات ــ هذا التأريخ قائلاً: «بلا شك فإن الاكتشافات الجغرافية نهاية القرنين الخامس عشر والسادس عشر اعطت دفعاً لتطور التجارة من جراء غزو ونهب المستعمرات. ولكنها لم تحدث التغيرات الجذرية في المجتمع. تلك التغيرات التي نتجت فقط مع الانتقال من الاقطاعية الى الرأسمالية».

٢ ــ مفهوم التحديد الزمني للتأريخ الحديث حسب النظرية الجدلية المادية

نظرية معاصرة خرجت إلى النور في منتصف ثلاثينات القرن العشرين، تلكم هي النظرية الجدلية المادية، وهي تفسر التاريخ الاجتماعي البشري بالاقتصاد. إذ يقوم هذا التفسير على إرجاع التغيرات الأساسية التي طرأت على التطور التاريخي والأحداث التي مر بها المجتمع الانساني، إلى تأثير التغيرات المادية والنوعية، التي حصلت في قاعدته الاجتماعية ــ الاقتصادية بالدرجة الأولى. هذه القاعدة ترتكز على دعامتين: وسائل الانتاج والقوى المنتجة، وعلاقات الانتاج بين الطبقات الاجتماعية المختلفة. فالتطور التاريخي مرهون بهذه القاعدة المادية والبشرية.

هذه النظرية التاريخية الجدلية تقسم تاريخ العالم منذ القديم إلى يومنا الحاضر إلى خمس تشكيلات اجتماعية ــ اقتصادية كبرى: التشكيلة المشاعية البدائية، التشكيلة العبودية (عصر الرق والأسياد)، التشكيلة الاقطاعية، التشكيلة الرأسمالية والتشكيلة الاشتراكية الحالية. كل تشكيلة اقتصادية ــ اجتماعية تتوافق مع العصر التاريخي الذي يقابلها. وتقسم العصور إلى خمسة حسب النظرية الجدلية المادية المذكورة: العالم القديم، العبودي، القرون الوسطى، العصر الرأسمالي؛ فالعصر الحالي وهو عصر الانتقال من الرأسمالية إلى الاشتراكية على المستوى العالمي.



▲ ابريق ذهبي، صُنع لأحد الحكام البويهيين في العراق

وتتخذ هذه النظرية بداية العصر الحديث منذ منتصف القرن السابع عشر، أي منذ الثورة البرجوازية الأولى في العالم، في انكلترا (١٦٤٠ ــ ١٦٤٨). والتي أدت إلى انتصار النظام الرأسمالي وانهزام النظام الاقطاعي (القرون الوسطى) بانتصار الثورات الرأسمالية على التوالي في الولايات المتحدة الأميركية (١٧٧٦)، وفي فرنسا (١٧٨٩).

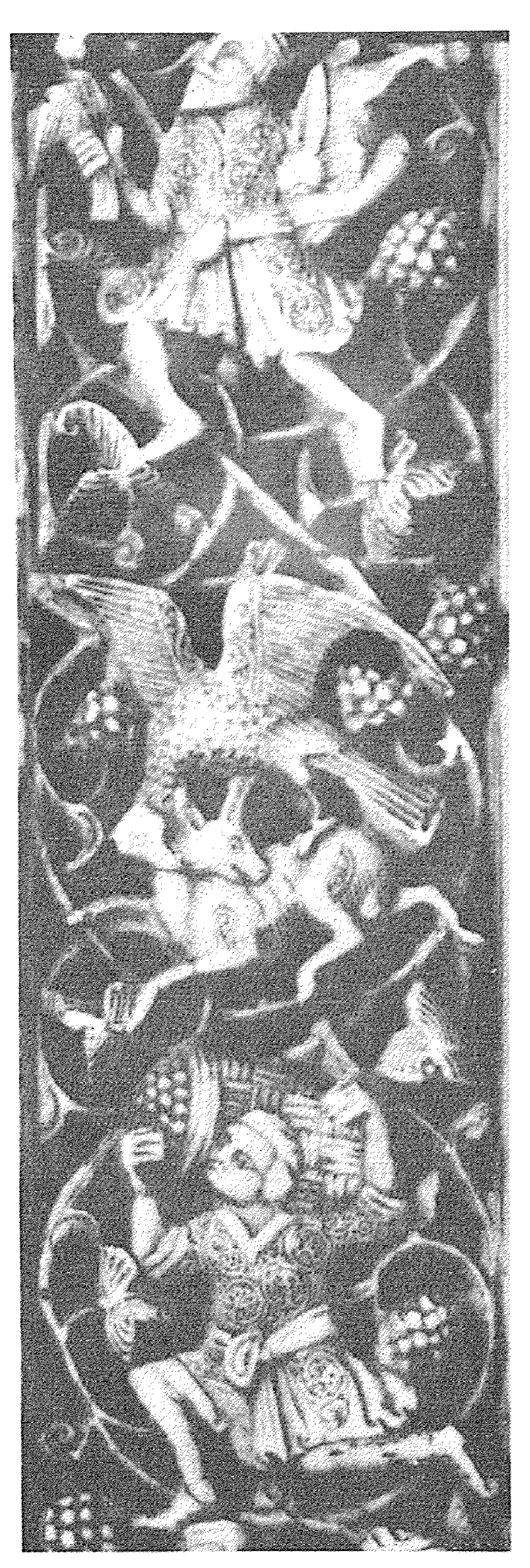
ويقسم العلماء هذه الفترة الطويلة إلى حقبتين أساسيتين:

الأولى، من عام ١٦٤٠ إلى ١٨٧٠ وهي حقبة انتصار وتمكين الرأسمالية في البلدان المتقدمة الأوروبية والأميركية. وتتبعها المرحلة **الثانية**، وهي مرحلة الرأسمالية المتأخرة. ومن سماتها نشوء الثورات البروليتارية مبتدئة بكومونة باريس عام ١٨٧١. وتمتد هذه الحقبة حتى عام ١٩١٧. الأحداث الأساسية لهذه الحقبة تكمن في انتصار الثورات البرجوازية في انكلترا وأميركا وفرنسا والبلدان الأخرى. والثورة الصناعية في انكلترا، وتطور الصناعات الكبرى، والحركات القومية والحروب وظهور البلدان القومية، ونمو الطبقة العاملة والحركة العمالية وتسارع تناقضات الرأسمالية. وظهور الاشتراكية العلمية وأول حزب ماركسي «اتحاد الشيوعيين عام ١٨٤٧».

لا يتسع المجال هنا لاعطاء تفصيل عن الخريطة السياسية في أوروبا والوضع الدولي حتى منتصف القرن السابع عشر، وكذلك، للكتابة بالمختصر عن حالة القوى المنتجة في بلدان غرب أوروبا المتطورة، وطرق ما يدعى بالتراكم الرأسمالي البدائي للقرنين السادس والسابع عشر. فيما يلي نعطي بالمختصر عن حالة القوى المنتجة وطرق التراكم الرأسمالي البدائي.

أولاً ــ حالة القوى المنتجة في بلدان غربي أوروبا المتطورة اقتصادياً:

حتى اقتصاد البلدان المتقدمة في العلاقات الاقتصادية اتسم بطابع زراعي. فكانت الزراعة أهم قطاع إنتاجي، وحيث لا توجد إحصاءات مؤكدة عن عدد السكان. فإن سكان أوروبا الغربية للقرن السابع عشر (١٦٠٠) لم يتفوقوا على ٩٠ ــ ٩٥ مليون نفس. وحتى مطلع القرن



□ أحد الواح علبة صغيرة صنعت من العاج وعليها رسوم، تعود للقرن الثاني عشر ميلادي.

الثامن عشر كانت أوروبا تعد ١٨٠ مليون نسمة. عاش أكثرهم في الريف، والمدن التي استوعبت أكثر من ١٠٠ ألف إنسان كانت ظاهرة نادرة. وقد هيمنت في الزراعة، وحتى القرن الثامن عشر السهول المثلثة والصمد والآلات اليدوية. وحيثما كان هيمن العمل اليدوي، بالرغم من استعمال مكثف لبعض التقنية في طواحين الهواء والماء وخاصة في هولندا.

ثانياً ـ طرق ما يدعى بالتراكم الرأسمالي البدائي للقرنين السادس والسابع عشر:

اتسمت هذه الطرق بالنمو السريع للبرجوازية التجارية التي تملكها جشع الثراء وتراكم الرساميل الكبيرة، وظهور وتطور المانفكتورة كالشكل البدائي للانتاج الرأسمالي(٦). وبهدف تلميع تاريخ الرأسمالية، قدم المؤرخون والاقتصاديون البرجوازيون تفسيرات مليئة بالتخيل حول تراكم الرأسمال الأولي. فبعضهم عزا ذلك إلى التوفير ـ الاقتصادي في النفقات.

أما كارل ماركس بالاستناد إلى مجموعة هائلة من الوقائع برهن أن جوهر التراكم الأولي(٧) نتج عن عزل المنتجين عن وسائل الانتاج، وإفلاس ومصادرة المنتجين الصغار ـ الفلاحين والحرفيين، باستعمال الوسائل الدموية والاجبارية. ويعزي ماركس إلى الوسائل الهامة للتراكم الأولي تلك التجارة غير المتكافئة مع المستعمرات، حيث ومن أجل شراء المشروبات وبعض الأوعية الزجاجية دفع المشترون المعادن الثمينة والحجارة الكريمة. وكذلك، النهب المباشر للمستعمرات والتبادل الاجباري ووضع الخوات والأعطيات، وتجارة العبيد. وأرصدة الدولة، أي إعطاء كبار البنكيين والتجار قروضاً للدولة لشن الحروب وأعمال أخرى بفوائد مرتفعة. وسددت الدولة تلك القروض من النهب الحربي، وغلاء الفوائد المحصلة من استغلال المنتجين. وإلى جعل أراضي الأوقاف عالمية وقسمتها وبيعها بأبخس الأثمان للبرجوازية والاقطاع.

وأول مؤشر عن استملاك المنتجين الصغار هو استمرار تطويق وطرد الفلاحين من الأراضي. بدأت هذه الطريقة في انكلترا حتى في نهاية القرن الخامس عشر. كل خطوة من التراكم الرأسمالي اتسمت بالقوة والدم. أحرز استمرار التراكم



□ احد الواح علبة صغيرة صنعت من العاج وعليها رسوم، تعود للقرن الثاني عشر ميلادي.

الرأسمالي نجاحات في انكلترا في بداية القرن السابع عشر، ثم أعطته الثورة البرجوازية قفزة هائلة في ذلك البلد.

أما **بداية التأريخ المعاصر** فقد حددت بدايته الثورة الاشتراكية الأولى في العالم عام ١٩١٧ في روسيا. وأخذت كل الدول الاشتراكية بهذا التأريخ الجدلي العلمي. وحتى الكتب البرجوازية تأخذ بتأريخ التاريخ المعاصر منذ نهاية الحرب العالمية الأولى. ولكن التفسير لما يعتبر البداية والمضمون فمختلف تماماً. مثلاً: في فرنسا، وفي التأريخ البرجوازي يعتبرون المرحلة التي ابتدأت مع الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ بداية للتأريخ المعاصر.

تأريخ التاريخ المعاصر في العالم الاشتراكي ينقسم إلى ثلاث مراحل: **المرحلة الأولى**، تبدأ مع انتصار الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩. ومضمون هذه المرحلة انتصار الاشتراكية في بلد واحد، وإصابة النظام الرأسمالي العالمي بأولى أزماته العامة. ومع ذلك، بقيت الرأسمالية أقوى من الاشتراكية(٨).

المرحلة الثانية، تبدأ مع الحرب العالمية الثانية وتنتهي في أواسط الخمسينات. هنا تخرج الاشتراكية من إطار دولة واحدة وتصبح نظاماً عالمياً، وتصاب الرأسمالية بأزمتها العالمية الثانية ومؤشرها انهيار النظام الاستعماري العالمي، وتظهر دول عديدة مستقلة، وتعزز الحركات العمالية والديمقراطية، وتتعزز الحركة العمالية والشيوعية العالمية، وتتبدل نسبة القوى بين النظامين العالميين لصالح الاشتراكية، وبفضل هذا التطور ظهرت إمكانية درء الحروب.

المرحلة الثالثة، للتاريخ المعاصر تبدأ مع منتصف الخمسينات، حيث يتوطد بناء الاشتراكية في الاتحاد السوفياتي، ويتمكن نهائياً النظام الاشتراكي في بلدان الديمقراطيات الشعبية. ويسير النظام الاشتراكي إلى النصر الحاسم بثقة في المباراة الاقتصادية مع الرأسمالية. وفي ظروف المباراة العالمية للنظامين تبدأ المرحلة الثالثة من الأزمة العامة للنظام الرأسمالي. لما يفقد هذا النظام سلطته على أكثرية البشرية ولا يستطيع إعادة خط التاريخ المتقدم حتى بالقوة النووية. في هذه المرحلة يظهر النظام الاشتراكي تأثيراً عارماً على مصائر الانسانية، وتفوقاً مادياً على الرأسمالية، وأبعاداً لشبح الحروب العالمية. إن تقوية الاشتراكي ستيسرُ تحطيم الاستعمار والعبور العالمي إلى الاشتراكية(٩).

نستنتج مما تقدم، أن نظرة العلماء في القرون الوسطى، والنظرة الانسانية قد خدمتا علم التأريخ بإقرار التطور التاريخي المتصاعد، وأن النظرة البرجوازية كانت الأقل انسجاماً مع نفسها. فبينما أقرت هي التقسيم التاريخي إلى قديم ووسيط، وحديث، فإننا لا نجد رأياً عاماً موحداً عن محتوى العصر الحديث، كما لا يوجد تقسيم التاريخ إلى حقب.

ونستنتج أيضاً، أن النظرية الجدلية في التحديد الزمني للعصور التاريخية هي الأكثر انسجاماً مع نفسها، لأنها أوجدت القوانين العامة لتطور المجتمع البشري منذ العصر البدائي إلى الزمن المعاصر. وتكمن أهمية هذه النظرية في تبنيها من قبل منظومة الدول الاشتراكية. فالنظرية الجدلية قسمت تاريخ المجتمع البشري منذ العصر البدائي إلى اليوم إلى تشكيلات اجتماعية ــ اقتصادية. وقسمت كل تشكيلة إلى حقب زمنية وأعطتها محتواها، مكتشفة روابط مشتركة بين العصرين البدائي والاشتراكي الحالي مع رؤية السمات الخاصة لكل منهما. كما رأت الروابط المشتركة بين أنظمة العبودية والاقطاعية والرأسمالية على أساس الملكية الخاصة لوسائل الانتاج، واستغلال الانسان للانسان.

مفاهيم المؤرخين العرب في التحديد الزمني للعصور التاريخية

والمؤرخون العرب والاسلاميون المعاصرون نظروا نظرات مختلفة في تحديد مفهوم العصر الحديث، وقد أدى ذلك إلى اختلافهم في تحديد نقطة البداية أو مرحلة البدء بهذا التأريخ لتاريخ العرب الحديث. فهناك النظرة الاسلامية، ونظرة الاتصال بالحضارة الغربية، ونظرة تعتبر ثورة الشريف حسين (١٩١٦) بداية للتأريخ العربي الحديث(١٠). وهناك نظرية إسلامية معاصرة

تتعدى العالم العربي إلى العالم الاسلامي الواسع[11].

فالنظرة الاسلامية اعتبرت حركات الاصلاح الاسلامية بداية التأريخ العربي الحديث، تلك الحركات التي بدأت منذ أواسط القرن الثامن عشر، بدعوة محمد بن عبدالوهاب (١٧٠٣ ــ ١٧٩٢) في شبه الجزيرة العربية، إلى التوحيد الديني والسياسي[12]. وتتابعت الدعوة فكان من أبرز رجالها جمال الدين الأفغاني (١٨٣٩ ــ ١٨٩٧)، الذي تزعم حركة الجامعة الاسلامية؛ وأديب اسحق نصيره المخلص (١٨٥٦ ــ ١٨٨٥)؛ ومنهم ناصيف اليازجي (١٨٠٠ ــ ١٨٧١)، الذي عنى بشؤون اللغة العربية وبعثها؛ ومحمد عبده (١٨٤٩ ــ ١٩٠٥) وعبدالرحمن الكواكبي (١٨٤٩ ــ ١٩٠٢) والشيخ رشيد رضا (١٨٦٥ ــ ١٩٣٥) ورفاعة الطهطاوي (١٨٠١ ــ ١٨٧٣) رائد التنوير العربي.

ومن المؤرخين من نظر إلى الموضوع نظرة أخرى، فكان **اتصال العرب بالحضارة الغربية** بداية للتأريخ الحديث. فهؤلاء يقولون: ما دمنا نعمل للحاق بالغرب الذي سبقنا في تقدمه، فاتصالنا بالغرب يمثل نقطة البدء الحقيقية لتاريخنا العربي الحديث.

وجاء في الموسوعة السياسية[13]، أن العصر الحديث يرتبط بعصر النهضة العربية التي بدأت بحملة نابليون المصرية عام ١٧٨٩ وما رافقها من اتصال ثقافي بين الشرق والغرب.

ويؤيد المستشرق السوفياتي إ.ليفين هذا الرأي موضحاً اختلاف النهضة الحديثة العربية عن النهضة الأوروبية قائلاً: فعلى الرغم من أن أولى مراحل تطور العلاقات الاجتماعية الرأسمالية في أوروبا الغربية وفي بعض البلدان العربية على التوالي، فليس هناك أساس للمقارنة بينهما، إذ أنهما ظاهرتان مختلفتان من حيث الجوهر ومن حيث الشكل.

فإذا كانت النهضة الأوروبية تعكس في البداية أن وعي البرجوازية الوليدة بنفسها قد تنبّه كما تعكس عملية الثقافة البرجوازية، فإن الدافع إلى النهضة العربية خلافاً لذلك كان يكمن باديء ذي بدء في تطلع الأوساط الاقطاعية الارستقراطية الحاكمة إلى صيانة مواقعها في صراعها مع أوروبا، كانت تبغي إحياء الحياة الثقافية بعد طول رقاد من الحكم التركي. وتشكلت النهضة العربية بوصفها ظاهرة عربية عامة، بحكم وحدة اللغة والتراث الثقافي أساساً[14].

وهناك نظرة اعتبرت ثورة الشريف حسين وأبنائه على الحكم العثماني عام ١٩١٦ بداية التاريخ العربي الحديث.

أما الدكتورة زاهية قدورة في كتابها «تاريخ العرب الحديث» الصادر عام ١٩٧٥ فإنها توافق على قسمة العصور إلى قديمة وحديثة ومعاصرة لكنها لا تأخذ بالنظرية الغربية التي تعتبر سقوط القسطنطينية أواسط القرن الخامس عشر بداية للتأريخ العربي الحديث، كما أنها لا تأخذ بالنظريات التي تتقيد بحادثة معينة، أو وجهة نظر واحدة تتخذ منها أساساً لتحديد بداية تاريخنا. وتعتبر د.قدورة فترة الاستيلاء العثماني على بلادنا العربية مرحلة «الركود والعزلة والتخلف». ولكنها تأخذ ببداية العصر الحديث منذ بداية القرن التاسع عشر. وحيث أن اقطارنا العربية وقعت تحت الحكم العثماني بين عامي ١٥١٦ و ١٩١٨ وإن بتفاوت، وحيث أن القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين الحالي هما ضمن الفترة العثمانية فإني أرى عدم الانسجام في نظرة قدورة للتاريخ الحديث.

والدكتورة قدورة لم تضع نظرية شاملة عن العصور الزمنية. وربما وقعت تحت تأثير مفهوم «المركزية الأوروبية» القائلة أن بلادنا عرفت التأخر منذ القرن الثاني عشر إلى القرن التاسع عشر، وأنها أخذت تنهض بفضل أوروبا والغرب خصوصاً. ومع أن المؤرخة لا تشير إلى هذا الاستنتاج بصراحة، غير أن فترة «الركود والعزلة والتخلف» أثناء الحكم العثماني فيها شيء من النظرة الأوروبية إلى تاريخنا الحديث.

ولقد حضت المستشرقة السوفياتية، إيرينا ميخائيلوفنا سميليانسكيا نظرية «المركزية الأوروبية». إذ يظهر معظم الباحثين والمستشرقين وكأن التاريخ العربي توقف عن التطور الاقتصادي والاجتماعي ابتداء من القرن الخامس عشر وحتى أواخر النصف الأول من

القرن الماضي. وقالت د. سميليانسكيا: «لا بد من دحض وجهة النظر الأوروبية القائلة بأن المرحلة العثمانية الطويلة كانت كلها بمثابة انحطاط للسلطنة والولايات التابعة لها، ومنها الولايات العربية.. وليس صحيحاً القول، استناداً إلى الوثائق الأوروبية وحدها، أن تطور المدن والأرياف العربية كان بطيئاً للغاية أو يمر في مرحلة ركود وانحطاط منذ القرن السادس عشر حتى القرن التاسع عشر: أي قرن السيطرة الاستعمارية الأوروبية على هذه المنطقة. لقد ربطوا تطور المشرق العربي أو النهضة العربية بالغزو الاستعماري لهذا المشرق، وذلك خطأ منهجي لا يجوز للباحثين العرب السقوط فيه. فقد كانت هنالك مؤشرات إيجابية جداً عن التطور الاقتصادي والاجتماعي لهذه المنطقة، وخاصة في القرن الثامن عشر، أي قبيل الغزو الاستعماري الأوروبي لها. وكان إنتاج الحرف، ونشاط التجار، والمردود الزراعي وغيرها تلبي احتياجات السكان وتصدر كميات هامة منها إلى الخارج وتمتاز بالجودة. وكانت الشرائح الارستقراطية في البلقان وروسيا وتركيا نفسها تفتخر باقتنائها. ومع دخول السلع الأجنبية وما رافقها من تهديم للحرف الداخلية وغزو للأسواق التجارية، ومع وقوف القوى المنفذة في المشرق العربي إلى جانب أصحاب الرساميل الخارجية وضد أصحاب الحرف الداخلية، وبسبب كثرة الحروب الفاشلة للسلطنة دون تخلي قادتها والقوى المحلية التابعة لها عن بذخهم وترفهم على حساب السكان المحليين، ومع التبدلات البنيوية في نمط الانتاج الأوروبي فمن الفيودالية إلى الرأسمالية.. هذه الأسباب وغيرها سدت الطريق على التطور الطبيعي للحرف المحلية وتراكم الرساميل فيها وتحويلها إلى صناعات كبيرة تتمتع بحماية وتشجيع القوى السياسية المسيطرة. فكانت نتيجة ذلك أن انهارت الحرف، وتشتت الحرفيون، وكثر النزوح والهجرة، وتبدل نمط الانتاج بشكل قسري مع ارتباط شديد بمراكز الرساميل الأجنبية. فهل تعتبر هذه السمات السلبية نهضة عربية؟ إنها مسألة منهجية مطروحة أمام الباحثين العرب»[١٥].

ولقد جاء هذا القول على لسان المستشرقة أثناء حوار لها مع الدكتور اللبناني مسعود ضاهر، ثم ترجم د. سهيل عامر مختصر كتابها بعنوان «البنية الاجتماعية والاقتصادية لبلدان الشرق الأوسط على مشارف العصر الحديث»، صادر من موسكو عام ١٩٧٩[١٦] والذي بنت المستشرقة على أساسه نظريتها هذه.

وهكذا، ثبتت الباحثة المستشرقة والمستعربة إ. سميليانسكيا خطأ وجهة النظر الغربية التي تقول بأن الاكتشافات الجغرافية العظمى في الغرب الحق الضرر الأكبر في التجارة الشرقية مما أدى إلى إنهاء الدور المزدهر للمدن الشرق — أوسطية.. وتبين الكاتبة بالاعتماد على الوثائق والأرقام والوقائع المتنوعة المصادر أن المدن السورية شهدت في العصر الحديث حركة ملحوظة في الترانزيت من جراء مرور الحرير الخام الايراني والقفقاسي. كما أن وتيرة حركة البضاعة الشرقية بين المدن الداخلية السورية البعيدة عن الساحل كانت تسير دون أزمات حادة والتبادل التجاري النشيط لم يتم على حساب تطور الانتاج المحلي. كما أن الترانزيت التجاري مع الخارج وبالذات مع الغرب لم يرسم حدود الامتداد الاقتصادي ولم يستطع تقليص دور المدينة السورية في القرن السابع عشر[١٧].

نستنتج أن أبحاث سميليانسكيا على المدينة الشرق — أوسطية ستحدث انقلاباً جذرياً في منهجية النظر ببداية ومحتوى وتطور الشرق الأدنى في العصر الحديث، وستوجه ضربة إلى الاستشراق الغربي، وستحفز باحثينا إلى النظر والبحث بعمق في تاريخنا القديم والوسيط والحديث — المعاصر.

النظرية الاسلامية المعاصرة لتقسيم الأعصر التاريخية

النظرية الاسلامية المعاصرة لتقسيم الأعصر التاريخية مثبتة في كتاب الدكتور اللبناني المؤرخ عمر فروخ، الصادر عام ١٩٨٠. فالمؤرخون المسلمون يودون إعادة النظر في التاريخ، في تعليله وتدوينه، كما يظهر من عنوان الكتاب «تجديد التاريخ»[١٨].

و «تجديد التاريخ» ينطلق من عدة أسس منها «تقسيم الأعصر التاريخية تقسيماً جديداً ينطبق

الموكب ثم أرسل يدك اليمنى بالدرقة

ب بها في وجه الموكب ثم اعقد بها عقدة مليحة وأعدها

سك الأيمن وعينك إلى الموكب ودر على حالك حتى تنتهي إلى

شره فاضرب بيدك اليمنى على قايم السيف الذي كان في

جرده من موضع الجهاز عقده من فوق راسك بنوصه ورد

فرسك شمالا وغطي وجهك بالدرقة وانظر من تحتها إلى

كب فيبقى السيف معارضا نحو يمينك وذبابة السيف

□ فارس مملوكي بسيفين وترسين. لقد اشتهر المماليك باهتمامهم بالأمور العسكرية.

على تاريخ الحضارة الصحيحة، وفيما يتعلق بتاريخ الاسلام خاصة»، وتخلية تاريخ الاسلام من الاسرائيليات؛ وتعريب الاعلام بنقلها من اللفظ الأجنبي.. وإثباتها بلفظ أهلها.

تأخذ هذه النظرية بقسمة العصور التاريخية الكبرى إلى ثلاثة: قديمة ومتوسطة وحديثة. لكن حدود ومحتوى هذه العصور تتفق حيناً وتفترق أحياناً عن النظريات الأوروبية البرجوازية. فالغربيون كما بينا سابقاً تنتهي العصور القديمة عندهم بسقوط رومية الغربية عام ٤٧٦م بيد القوط ــ البرابرة. وتبدأ هنا القرون الوسطى لتنتهي بسقوط القسطنطينية عام ١٤٥٣م، ثم تليها العصور الحديثة.

فحسب النظرية الاسلامية تمتد العصور القديمة منذ أقدم الأزمنة وتنتهي عند الهجرة النبوية أو عام ٦٢٢م. والعصور الوسطى تبدأ بالهجرة وتنتهي بفتح القسطنطينية لتبدأ العصور الحديثة، التي يقسمها إلى ثلاث حقب:

«أ ــ العهد الاستعماري على الحصر، من فتح القسطنطينية إلى حملة بونابرتة على مصر وبر الشام سنة ١٧٩٩م».

«ب ــ العهد الاستعماري، من حملة بونابرتة إلى نهاية الحرب العالمية الثانية (١٩٤٥)».

«ج ــ العهد المعاصر، منذ نهاية الحرب العالمية الثانية».

ويستخدم هذا التأريخ التقويم الهجري للفصل بين الأزمنة المختلفة، وإلى جانبه التقويم الميلادي ــ المسيحي.

والمفهوم الاسلامي هذا لا يشير إلى أي مضمون اقتصادي ــ اجتماعي، بل يطل بمفهوم الحضارات. وخاصة على الأساس الديني في القرون الوسطى المسيحي ــ الاسلامي. كما يطابق هذا المفهوم بين النظامين الرأسمالي والاشتراكي، لكي يبرز إلى العالم نظاماً جديداً اسلامياً.

كما تزعم هذه النظرية أن العصور الوسطى هي ملك للعرب وليس لأوروبا أي فضل عليها، كما أنه لا يجوز أن ننسب العصر الحاضر إلى الأمة العربية ولا أن نسميه بأي صفة من صفات العرب اليوم (ص ١٩).

إذن، المؤلف لا يرى أية وحدة في تاريخ العالم بل حضارات سامية أو أمم بلا حضارة «أوروبا في العصور الوسطى». من هنا يمكن القول أن المؤلف ومن يجاريه في هذه النظرية متأثرون بعلم الاجتماع البرجوازي الذي ينفي عملية التطور، وينفي ربط المدنيات المختلفة. ولا شك بأن نظرية المؤرخ البريطاني أرنولد توينبي ١٨٨٩ ــ ١٩٧٥ «عن الحلقات الثقافية» التاريخية، قد أثرت على النظرية الاسلامية المعاصرة. إن تاريخ المجتمع، كما يرى توينبي لا يمكن دراسته كعملية موحدة فيها عنصرا الرابطة والاستمرار. ويعتبر «توينبي» أن ثمة مدنيات مختلفة في التاريخ، كل منها منطوية على نفسها، ولا تنتقل إلى الأخرى. وشبّه المدنيات بغابة من النخيل، كل شجرة نخل قائمة بذاتها من الناحية البيولوجية إذ لا تحتاج إلى تلقيح كبقية الأشجار. وقد ربط «توينبي» في معالجته لمشكلة القوى المحركة للتاريخ الايمان ــ كما جاء في الموسوعة الفلسفية ــ بـ «كشف الهي» باعتباره معنى التاريخ وأمل في «الاتحاد بالله» بعبادة الأفراد أو «الأفراد الخلاقين» أو «الأقليات الخلاقة»[١٩].

لقد تأثر «توينبي» بالفيلسوف الألماني شبنفلر، أوزفالد (Spengler Oswald) (١٨٨٠ ــ ١٩٣٦) الذي ينكر فكرة التقدم التاريخي، ويرى التاريخ «حضارات» مستقلة فريدة، تكوينات عضوية فائقة لكل منها مصيرها الفردي وتمر بفترات النشوء والازدهار والموت[٢٠].

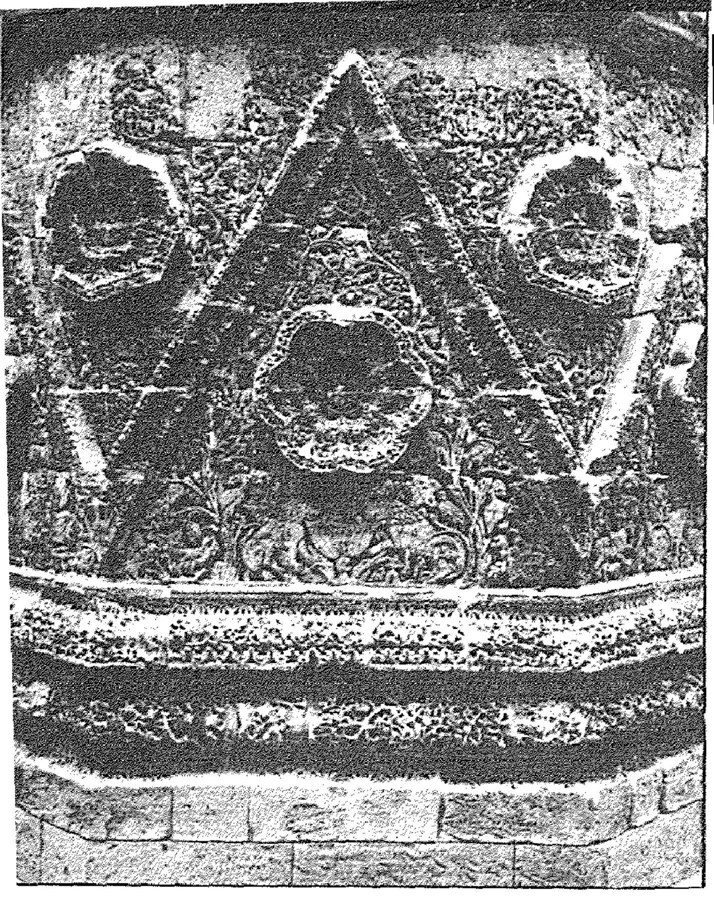
إن فكرة «الخلاء الحضاري» التي تروجها النظرية الاسلامية ليست بعيدة عن فكرة «المركزية الأوروبية» التي شرحناها سابقاً. ومفادها أن العرب في العصر الحديث والزمن المعاصر توقفوا عن التقدم والتطور؛ وعليهم أن يلحقوا بالغرب كي يتطوروا، كما لحق الغرب بحضارة العرب في القرون الوسطى.

وهكذا، نستنتج من كل ما تقدم عن النظريات المختلفة في تقسيم الأزمنة التاريخية، وتحديد نقطة البداية ومحتوى العصور التاريخية، إن النظرية الجدلية المادية هي أقوى تلك النظريات وأكثرها انسجاماً مع نفسها، وأقربها إلى الواقع والعلم الموضوعي.

وبعد كل الذي وضعناه عن النظريات المختلفة وبعد أن ندحض أن تكون حادثة واحدة معينة كبداية لتأريخ التاريخ العربي الحديث، مثل غزوة نابليون، أو قيام ثورة الشريف حسين عام ١٩١٦ لأن التأريخ يجب أن يأخذ العملية التاريخية بمجملها، والتي تنقله من مرحلة إلى مرحلة أخرى هي بالطبع أعلى من سابقتها، متقدمة عليها. إن التأريخ العربي الحديث عندما يدرس العملية التاريخية المشخّصة (المعينة والملموسة) يسعى إلى اكتشاف القوانين العامة التي تعمل في تاريخ المجتمع البشري. إنه يكشف عنها في ارتباطها العضوي الوثيق مع الحقائق المشخصة لأعمال الأفراد والطبقات الاجتماعية والأحزاب السياسية المعينة في زمن ما ومكان ما.

إذن، يمكن القول مع د. قدورة، «ان التاريخ مجموع حركات ومنجزات وسجل لمختلف الجوانب الفكرية والثقافية والسياسية والاقتصادية»[٢١] بالدرجة الأولى. ولا شك، بأن النهضة العربية يجب أن نبحث عنها في أسلوب الانتاج، اي في تفكك العلاقات الاقطاعية وبناء العلاقات الرأسمالية. هذه العملية بدأت منذ نهاية القرن الثامن عشر في مصر وسوريا ولبنان وفلسطين، ثم أخذت تنتقل إلى العالم العربي الواسع. وكان للتفاعلات الداخلية والخارجية أثر في هذا النهوض أو محاولة كبحه مع الغزو الاستعماري على شكل بضاعة أولاً ثم رساميل ثانياً. فإحياء اللغة العربية والثقافة العربية والاصلاح الديني الاسلامي، والاحتكاك بأوروبا واستعمار بلادنا وقيام حركات التحرر الوطني. وهناك فرق كبير بين القومية الأوروبية الساعية إلى الوحدة السياسية، وبين قوميتنا العربية التي كانت تبحث عن التخلص من الاستعمار، وما زالت تصبو إلى الوحدة القومية حتى اليوم.

بالنسبة لبداية التأريخ المعاصر، يكاد يجمع المؤرخون في العالم، وفي العالم العربي على بدايته منذ نهاية الحرب العالمية الأولى. مع اختلاف في تفسير محتواه بين المنظرين البرجوازيين والمنظرين الاشتراكيين العلميين، وأصحاب النظرية الاسلامية التي تأخذ ببداية التأريخ المعاصر بنهاية الحرب العالمية الثانية.



□ واجهة قصر المشتى في الأردن. احد اشهر نماذج النقوش الاسلامية الأولى.

أما بالنسبة لما يجب اعتباره بداية التأريخ الحديث لتاريخ العرب، فإن د. قدورة تعتبر بداية القرن التاسع عشر بداية له «وحسب أن يكون فترة التغيير الممهدة إلى النهضة الكبرى. إنه هو الفترة التي انتهت في زمننا هذا إلى بعث الأمل في نهضة الأمة العربية وتحررها وقيامها بواجبها الأكمل في بناء الحضارة الانسانية ومن هنا نعتبر بهذا التاريخ لأننا عشنا فترة من أصعب فتراته وأحفلها بالأحداث سواء ما كان منها نصراً أو انتكاساً»[٢٢].

والواقع أن تاريخ العرب الحديث هو أساساً تاريخ تشكيل علاقات اجتماعية جديدة، وحركات قومية تحررية[٢٣].

إن مراحل التأريخ الحديث منذ بداية القرن التاسع عشر إلى نهاية الحرب العالمية الأولى تتميز بالفترات التالية:

أولاً: النصف الأول للقرن التاسع عشر، وهي فترة انحطاط الامبراطورية العثمانية واستقلال مصر عنها، وبداية النهضة الثقافية العربية.

ثانياً: من خمسينات القرن التاسع عشر إلى سبعيناته وفيها تنشط العلاقات السلعية النقدية

تحت تأثير تغلغل الرأسمال الأجنبي والبضاعة الأجنبية. وتظهر عوامل تفكك الاقطاعية والانتقال البطيء إلى الرأسمالية وتظهر طبقات اجتماعية جديدة، وتظهر حركة تنويرية ـــ ثقافية في لبنان وسوريا.

ثالثاً: من سبعينات القرن التاسع عشر إلى بداية القرن العشرين، وفيها يزداد تغلغل الرأسمال الأجنبي، والتدخل السياسي، وتصبح الامبراطورية العثمانية وولاياتها العربية أشباه مستعمرات، وتشتد الحركة القومية وتتشكل الأيديولوجية البرجوازية المعبرة عن الحركة القومية، وتظهر أفكار الاصلاح الاسلامي، والجامعة الاسلامية (شمال أفريقيا)، والنزعة القومية العربية (آسيا العربية) ودعوات الاقليمية (مصر).

رابعاً: تتميز فترة العقدين الأولين للقرن العشرين بالحرب العالمية الأولى وبالتطور السياسي، والوعي الاجتماعي البرجوازي، وبالثورة العربية الأولى. والوعي السياسي برز على شكل التنظيمات والأحزاب والجمعيات وتكوين أول دولة عربية معاصرة (١٩١٨ ـــ ١٩٢٠) في دمشق.

وما يميز تطور العلاقات الاجتماعية ـــ الاقتصادية أو التحول من الاقطاعية إلى الرأسمالية، بشكل غير كامل وغير نهائي فتعايش العلاقات الاقطاعية ـــ الرأسمالية جنباً إلى جنب.

كما تميزت فترة التاريخ الحديث بالنسبة إلى لبنان بقيام حركات فلاحية زعزعت أساس النظام الاقطاعي في القرن التاسع عشر. كما أن الاصلاحات العثمانية بين عامي ١٨٣٩ و ١٨٥٦ ساعدت على خلق أفكار وعلاقات جديدة في الملكية العقارية. حيث حازت هذه الملكية الخاصة على شكلها الحقوقي الرسمي.

ولا شك بأن نظام الامتيازات الأجنبية قد اضعف أولوية المسلمين على سكان الامبراطورية العثمانية المسيحيين. فعززت العلاقات التجارية بين بلدان الشرق الأدنى وأوروبا مركز المسيحيين (الأرمن واليونان ومسيحي لبنان وسوريا) الذين تمتعوا بحماية قنصلية أجنبية.

وكانت الحركة الوهابية في منتصف القرن الثامن عشر، ونجاحها في الاستيلاء على مكة والمدينة قد أضعفت هيبة السلطان التركي، ووضعت العنصر العربي في مواجهة العنصر التركي. فالوهابية هي أول محاولة في العصر الحديث، لبعث الحياة الاجتماعية العربية. وبرأي البعض فإن الدولة الوهابية دعت لا إلى تضامن عربي، بل إلى تضامن إسلامي(٢٤). ●

الهوامش

(١) القرون الوسطى هي عصر نشوء وتشكل واستقرار ثم موت التشكيلة الاجتماعية ـــ الاقتصادية الاقطاعية. القرون الوسطى مصطلح عليها في أوروبا الغربية على الفترة الواقعة بين القرنين الخامس والخامس عشر الميلادي. وبصدد بحثه عن «أثر الحضارة الاسلامية في قيام النهضةالأوروبية»، كتب الدكتور عبدالعزيز محمد الشناوي، في كتابه بعنوان: «**تاريخ أوروبا في مطلع العصور الحديثة**»، الصادر عام ١٩٦٩ ما يلي: «يطلق اسم العصور المظلمة في التاريخ الأوروبي على الشطر الأول من العصور الوسطى خلال الفترة الواقعة بين سقوط الامبراطورية الرومانية الغربية في أواخر القرن الخامس الميلادي وقيام «النهضة الوسيطة» في أواخر القرن الحادي عشر. وقد رانت على أوروبا خلال هذه القرون سحابة كثيفة الظلام من التخلف الحضاري: توارت معالم الحضارة الرومانية تدريجيا من إيطاليا وفرنسا واسبانيا وانكلترا.. واضمحلت المدن الزاهرة وأغلقت المدارس وانتشرت الجهالة.. وقد ساعد على انتشار الجهل والانحطاط العلمي أن الجرمان الذين اقاموا لهم ممالك في غرب أوروبا على أنقاض الدولة الرومانية كانوا يظهرون نفورا شديدا من التعليم، كما أن البابوات كانوا لا يشجعون سوى الدراسات الدينية المسيحية..» ويبين المؤلف أثر الحضارة الاسلامية التي أخذت تزحف إلى أوروبا منذ أواخر القرن الحادي عشر الميلادي عن طريق الترجمة والدراسة والاقتباس وما ترتب عنها من «قيام وثبة حضارية ازدهرت في القرن الثاني عشر واطلق عليها اسم «النهضة الوسيطة»، كانت هي في حد ذاتها ثمرة من ثمرات الاتصال الحضاري بين غرب أوروبا ومراكز الحضارة الاسلامية. وقد ادت هذه النهضة الوسيطة إلى تمهيد طريق الرقي وتحرير العقل الأوروبي من القيود الثقيلة التي فرضتها عليه الهيئات والأنظمة المختلفة، واصبحت النفوس مهيأة لقبول الانقلاب العظيم الذي حدث بعد قرن وبعض قرن أي في بداية القرن الرابع عشر حوالي سنة ١٣٠٠ ونعني بهذا الانقلاب النهضة الأوروبية الحديثة».

إذن، حسب كتابة د. الشناوي ينقسم تاريخ القرون الوسطى في أوروبا إلى ثلاث حقب. الأولى، وتسمى العصور المظلمة من أواخر القرن الخامس الميلادي إلى أواخر القرن الحادي عشر، حيث تبدأ الحقبة الثانية وتسمى «النهضة الوسيطة»،

وتبدأ في بداية القرن الرابع عشر «النهضة الأوروبية الحديثة».
انظر: دكتور عبدالعزيز محمد الشناوي «**اوروبا في مطلع العصور الحديثة**» الجزء الأول، دار المعارف بمصر، ١٩٦٩، ص ٢ و ٣ و ٤.
وفي أوروبا الشرقية وعند كل الآخذين بالنظرية المادية التاريخية، فإن القرون الوسطى مقسومة لديهم إلى ثلاث مراحل كبرى، وهي:
أولاً ــ القرون الوسطى البدائية، من القرن الخامس إلى القرن الحادي عشر الميلادي؛
ثانياً ــ القرون الوسطى المزدهرة، وتمتد من منتصف القرن الحادي عشر إلى القرن الخامس عشر؛
ثالثاً ــ القرون الوسطى المتأخرة، وتشمل القرن السادس عشر والنصف الأول من القرن السابع عشر.
انظر: فيكتور فدوروفيتش سميونوف (Victor Fedorovich Simionov) «**تاريخ القرون الوسطى**»، دار «المعارف» موسكو، ١٩٧٠، ص ٦ ــ ٧ (روسي).

(٢) المذهب الانساني: (Humanisme) هو نسق من الأفكار المبنية على احترام كرامة الانسان والاهتمام برفاهيته وتطوره الشامل وخلق الظروف الملائمة للحياة الاجتماعية. المذهب الانساني أصبح إيديولوجية في عصر النهضة (ق ١٤ ــ ١٦). وهو مذهب تقدمي يعلن حرية الفرد الانساني ويعارض القهر البدني والديني، ويدافع عن حق الانسان في التمتع وإشباع الرغبات الدنيوية. من اتباع المذهب الانساني: بترارك، دانتي، بوكاشيو، ليونارد دي فنشي، رابليه، مونتيني، كوبرنيك، شكسبير وفرنسيس بيكون. وهؤلاء مثلوا نخبة متعالية من الجماهير الشعبية. أما توماس مور وكامبنيلا فقد عبرا عن مصالح الشعب. بلغ المذهب ذروته برفع شعارات الحرية والمساواة والاخاء في القرن الثامن عشر، وهو مذهب لا ينتبه إلى مصالح الشعب. وبنى مثله العليا على حيازة الملكية الشخصية والنزعة الفردية.
المصدر: الموسوعة الفلسفية، ترجمة سمير كرم، دار الطليعة، بيروت، ١٩٨٠، الطبعة الثانية.

(٣) د. عبدالوهاب الكيالي، كامل زهيري: الموسوعة السياسية، مطبعة المتوسط، بيروت، ١٩٧٤، ص ٣٨٢ ــ ٣٨٣.

(٤) التاريخ الحديث، القسم الأول ١٦٤٠ ــ ١٧٨٠، الطبعة الثانية، إصدار دار «المعارف»، موسكو، ١٩٧٢، ص ٧ (روسي).

(٥) المصدر السابق، ص ٧ ــ ٨.

(٦) من أراد الاستزادة عن المانفكتورة: كارل ماركس: «رأس المال»، القسم الأول ترجمة محمد عيتاني، مكتبة المعارف، بيروت، ١٩٨١، ص ٦٣٥ ــ ٦٨٥، المجلد الثاني.

(٧) حول التراكم الأولي انظر: كارل ماركس، «رأس المال»، الفصل السادس والعشرون، المجلد الثالث، الطبعة الثالثة، ١٩٧٨، ص ١٠٥٠ ــ ١٠٥٦. وعن نزع ملكية السكان الريفيين: نفس المرجع الفصول التالية.

(٨) التاريخ المعاصر، مجموعة من المؤلفين، وزارة التربية، موسكو ١٩٦٢، ص ٣ ــ ٨ (روسي).

(٩) المصدر السابق، ص ٨.

(١٠) د. زاهية قدورة: تاريخ العرب الحديث، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٧٥، المقدمة.

(١١) د. عمر فروخ: تجديد التاريخ في تعليله وتدوينه، دار الباحث، بيروت ١٩٨٠، ص ١٦ ــ ٢٣.

(١٢) انظر محاضرة بعنوان: المملكة العربية السعودية، للدكتور مروان عبدو. الجامعة اللبنانية، كلية الآداب، الفرع الرابع (فيما يختص بالوهابية وتقييم البحاثة لتلك الحركة).

(١٣) د. عبدالوهاب الكيالي، كامل زهيري: **الموسوعة السياسية**، مطبعة المتوسط، بيروت، ١٩٧٤، ص ٣٨٢ ــ ٣٨٣.

(١٤) ز. ل. ليفين: **الفكر الاجتماعي والسياسي الحديث في لبنان وسوريا ومصر**، دار ابن خلدون، بيروت ١٩٧٨.

(١٥) حوار علمي مفتوح مع الباحثة السوفياتية الدكتورة إيرينا ميخالفنا سميليانسكايا في قضايا تاريخ لبنان والمنطقة. حاورها الدكتور مسعود ضاهر. مجلة «الطريق» البيروتية، العدد الرابع، آب ١٩٨٤، ص ١٤٧ ــ ١٧٦؛ والمقتطف الذي أوردناه هنا هو من الصفحة ١٧٤.

(١٦) انظر: مجلة «الطريق» البيروتية، العدد الخامس، تشرين الثاني، ١٩٨٤، ص ١٢٤ ــ ١٣٢، كتاب المستشرقة هو باللغة الروسية.

(١٧) المرجع السابق، ص ١٢٧ ــ ١٢٨.

(١٨) مرجع مذكور، ص ١٤ ــ ١٥.

(١٩) الموسوعة الفلسفية بإشراف روزنتال، ب. يودين، ترجمة سمير كرم، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٠، ص ١٥٠ ــ ١٥١.

(٢٠) الموسوعة الفلسفية، المصدر السابق، ص ٢٥٧.

(٢١) د. زاهية قدورة، تاريخ العرب الحديث، مذكور، ص ١.

(٢٢) د. زاهية قدورة، المصدر السابق، ص ٢.

(٢٣) استعنا على تقسيم ومحتوى هذه المراحل بكتاب «الفكر الاجتماعي والسياسي الحديث...»، لـ ز. ل. ليفين، مذكور.

(٢٤) البرت حوراني: «الفكر العربي في عصر النهضة ١٧٩٨ ــ ١٩٣٩»، دار النهار، بيروت ١٩٧٧، طبعة ثالثة.

الزراعة وصناعتها في طرابلس (١٨٨٠ ــ ١٩١٤)

■ شذا عدرة

الزراعة، هي ذات علاقة شديدة بالإنسان ومن أهم العناصر المعيشية المتعلقة بالحياة الإنسانية، بل هي نقطة الالتقاء بين الطبيعة والقوى البشرية، وبقدر ما يقوى ويتطور هذا الالتقاء، بقدر ما تكون نتائجه إيجابية تنعكس غنى ورفاهية على الحياة الإنسانية.

والتزاوج بين الزراعة والصناعة، ليس إلّا صورة متطورة من صور ذلك الإلتقاء الطبيعي ــ البشري. وقد شهدت طرابلس والمدن اللبنانية أيضاً، منذ القدم، نماذج ناجحة من هذا التزاوج الزراعي ــ الصناعي، فكان ما سمي «بالصنائع الزراعية»[١].

إن دراسة تتناول أية ناحية من نواحي تاريخ طرابلس الحضاري، تتطلب جهداً معيناً ليس لقلة المعلومات أو عدم وفرتها، بل لتبعثرها بين طيات الكثير من الكتب والمقالات والمؤلفات القديمة والحديثة، وانتقاء المطلوب والجيد منها هو الذي تكمن فيه تلك الصعوبة، خاصة وأن طرابلس قد لعبت على مر العصور دوراً مهماً في مختلف المجالات الحضارية. والدور الاقتصادي، خاصة بفرعيه الزراعي والصناعي، هو أحد تلك الأدوار المهمة التي قامت بها طرابلس عبر العصور[٢].

وقد كان لي أن أختار حقبة من تاريخ طرابلس الحضاري، والاقتصادي بشكل خاص، فاخترت أواخر القرن التاسع عشر ــ أوائل القرن العشرين وبالتحديد من عام ١٨٨٠ حتى عام ١٩١٤م، وذلك لما شهدته المناطق اللبنانية وجميع المناطق الخاضعة للامبراطورية العثمانية بشكل عام، من تغيرات على جميع الصعد السياسية والاجتماعية والاقتصادية[٣]. وبالتالي فإن الفترة الممتدة من ١٨٨٠ إلى ١٩١٤، ليست إلا الجزء الأخير من الحقبة المهمة الممتدة من عام ١٨٣٥ إلى ١٩١٤ التي تشكل القاعدة الأساسية لمرحلة لبنان الانتقالية من المجتمع الاقطاعي التقليدي إلى مجتمع لبنان الحديث[٤].

كانت طرابلس في تلك الحقبة من الزمن خارج نظام جبل لبنان، وتؤلف سنجق أو لواء تابعاً لولاية سورية. وكان قضاء عكار ومديريات المنية والضنية يتبعون سنجق طرابلس[٥]. وفي سنة ١٨٨٨، جعلت بيروت مركز ولاية والحق بها عدا أقضيتها الثلاثة ــ صيدا وصور ومرجعيون ــ طرابلس واللاذقية وعكا ونابلس، واستمرت على هذه الحالة حتى نهاية الحرب العالمية الأولى ١٩١٨م[٦].

الزراعة وأحوالها في لبنان عامة

يعتبر لبنان بشكل عام من البلدان الزراعية التي تلعب الزراعة دوراً أساسياً في اقتصاده الوطني. وقد ساهمت الزراعة منذ القدم في إعالة الغالبية الساحقة من سكانه، فهم قد عرفوها واتقنوا فنونها خاصة فيما يتعلق بزراعة التوت والزيتون والكرم والصنوبر وبعض الفواكه والحبوب. وقد كان لهم خبرة في مواقيت الزرع وأوان الحصاد وقطف الثمار وإحراق الحطب فحماً وزرع الدخان وتحضيره[٧]. وقد ساعد خصب التربة والأنهار التي تتفجر في لبنان وتسقي منعطفاته وهضابه وسهوله وتوزع الخصب في كل أنحائه، بالإضافة إلى الأحوال المناخية الجيدة، كل ذلك جعله بلداً زراعياً بالدرجة الأولى. «فالرطوبة والجفاف مبذولان في هذه البلاد، وهما شرطان مهمان في الحياة الزراعية. ولا ينقص هذه البلاد شيء من نظام الاقليم واطراد سيره وانتظام التعاقب في المواسم والفصول. وكثرة الأمطار، حتى أن بدائع الحياة الأرضية ونضرتها المباركة تظهر في كل ناحية من أرجاء هذه البلاد ما عدا الجبال القاحلة والعقيمة في جبل لبنان وترى الطبيعة ضاحكة باسمة في وجه إنسان»[٨]، إلاّ ان البحث عن زراعة لبنان من الوجهة العلمية في تلك الحقبة، لأمر ميئوس منه، لأن «زراعة



□ نهر ابو علي، الذي ما زال يغذي بساتين طرابلس بمياهه

سورية(*) قد تقهقرت وبلغت إلى حد من الانحطاط يرثى له.. والعلّة الكبرى لهذا التقهقر إنما هي التواني الذي مدّ رواقه على أهل وطننا. وبينما نرى الزراعة تنمو راقية معارج الفلاح في جميع البلاد لا يكاد مواطنونا يبدون حراكاً لتحسين التربة واتخاذ الوسائل العديدة التي بلغت الحراثة في أنحاء المعمورة أوج كمالها فاستغلّ من سوانا الغلّات الوافرة من أراضيهم ونحن لم نحصل من تربة أرضنا إلّا الزهيد»[٩].

كما أن «الآلات التي تعمل في تربة هذه البلاد لا تزال ابتدائية وعلى غاية في البساطة المطلقة. ولا تزال الفائدة التي تستحصل من الزراعة محدودة جداً. ولا ينتظر استحصال المواسم والأرباح العظيمة التي تأتي بها أصول الزراعة المتناوبة أو المتكاثفة أو العناصر المنبتة الكيماوية منها أو المعدنية. ولكن يجب علينا أن ننظر بعين الدقة والاعتبار إلى تأثير الحاجيات الاقتصادية في الزراعة السورية. ولا ينكر أن سواحل الولاية البيروتية الممتدة على البحر الأبيض جامعة لقسم كبير من حاجيات الزراعة الاقتصادية مثل الطرق المعبدة وخطوطها الحديدية ووسائطها النقلية في البحر. ولا يخفى على أحد أن الزراعة تأتي بأرباح وفوائد كثيرة إذا توفرت لها مثل هذه الأسباب»[١٠].

وهكذا نستنتج أن الزراعة ــ وهي العمل الاقتصادي الرئيسي الذي كانت تعتمد عليه البلاد في تلك الآونة ــ كانت على مستوى بدائي وضيق، أي أنها لم تكن عملاً اقتصادياً تجارياً واسعاً بالمعنى المفهوم حالياً، والفائدة التي كانت تستحصل من الزراعة محدودة جداً. صحيح أن المساحات الصالحة للزراعة كانت شاسعة، إلّا أن طرق الاستفادة منها كانت عقيمة. لذلك كان مردود تلك الأراضي من المحاصيل الزراعية قليلة، بحيث لا تسمح لها بالانتقال الفعّال والناجح إلى دور الصنائع الزراعية، وهو الدور الذي يستوجب الترقّي في استخدام الفنون والوسائل العلمية الزراعية.

ولكن على الرغم من ذلك، لا نستطيع إلّا أن نستثني بعض الصنائع الزراعية، كالحرير، الصابون، التبغ، الكرمة وحتى قصب السكر. وقد أصابت جميعها بعض النجاح بفضل المزارع اللبناني. وعلى سبيل المثال، كاد لا يخلو بيتاً قروياً من بيوت أولئك المزارعين من نول يدوي لحياكة الأقمشة[١١]. ففي عام ١٩٠٩م كانت عدد الأنوال في سورية حوالي (٢٠٠٠٠) نول، كان عدد الحرفيين قبل الحرب العالمية الأولى حوالي (١١٠٠٠٠) حرفي، منهم (١٠٠٠٠) حرفي في لبنان فقط[١٢]. وعلى الرغم من أن تلك الصنائع الزراعية قد فقدت في وقتنا الحاضر الكثير من بريقها، إلّا أنها قد أصبحت تؤلف جزءاً مهماً من تراث لبنان الشعبي.

إن أردنا التكلم عن أهم محاصيل لبنان الزراعية في تلك الحقبة ١٨٨٠ ــ ١٩١٤، فهي تشمل الحبوب كالحنطة، الشعير، الذرة البيضاء والصفراء، والقطاني كالعدس، الحمص، الفول، اللوبياء والبقول والخضر والزراعات الصناعية وغيرها من النباتات[١٣].

والأشجار المثمرة كالتين والليمون والتفاح والإجاص والمشمش والخوخ والقراصيا والدرّاق والكرز والسفرجل والايكي دنيا والرمان. ويزرعون أيضاً، العنّاب والزعرور واللوز والجوز والتوت والفستق والبندق والنخيل والقشطة، تلك الشجرة التي قدم عنها الأديب سليم أصفر في مجلة «المشرق» دراسة، دعا من خلالها المزارعين في بلاد الشام إلى الاعتناء بزراعتها وتحسين غرسها لزيادة محصولها، وذلك للربح الذي قد تدرّه على أصحابها[١٤]. وهذا يدل على أنه كان هناك وعياً وإدراكاً في مجتمع ذلك العصر، لمدى أهمية الزراعة والدور المفيد والإيجابي الذي قد تلعبه على صعيد الاقتصاد الوطني. ولكن يبدو أن هذا الوعي والإدراك قد اقتصر على الأفراد ولم يتعدّ إلى الصعيد الرسمي، أي إلى السلطات العثمانية، التي لم تعرِ هذه المسائل طيلة فترة حكمها الطويل اهتماماً جدّياً حتى أوائل القرن العشرين عام ١٩٠٩، حيث خصصت في الميزانية العمومية تخصيصات لمدير الزراعة ولمعلمي الزراعة في حيفا وعكا وطرابلس واللاذقية وبيروت. وأنشأت في بيروت عام ١٩١٠ داراً للحرير يصرف عليها من الميزانية العمومية[١٥]. هذا إلى جانب ظهور مؤسسات للتسليف العقاري في السلطنة العثمانية منذ أواسط القرن التاسع عشر، ففي عام ١٨٦٨ ظهرت شركة تسليف


□ كاد لا يخلو بيت لبناني من نول للحياكة.

عقاري في الأستانة تسمى «صندوق النفع العام» وتهدف إلى إقراض المزارعين بفوائد مدروسة. واستمرت هذه الشركة حتى عام ١٨٩٨ عندما أبدل اسمها إلى «البنك الزراعي العثماني» ومقره في الأستانة أيضاً[١٦].

إن هذا المسح التقريبي الذي أجريناه على أحوال الزراعة وصنائعها في لبنان بشكل عام، لا يمكن أن نستثني منه طرابلس أو أي بقعة من بقاعه. وذلك لأن الموقع الجغرافي هو واحد والمناخ وخصائص التربة تقريباً واحدة، هذا إلى جانب أن صغر مساحته لا تسمح بفرزه إلى مقاطعات زراعية تختلف عن بعضها البعض بشكل جوهري. لذلك عندما نتناول طرابلس بالحديث، فإنما نتناول منطقة من مناطق لبنان الساحلية.

الزراعة وأحوالها في طرابلس

«طرابلس الشام، مدينة تجارية تقع على البحر وتؤلف القسم الشمالي الغربي من لبنان. تشتهر بزراعة الحمضيات، القطن، الفواكه، والدخان وصيد الاسفنج وتكرير النفط»[١٧].

هذا أحدث ما جاء من وصف مقتضب لمدينة طرابلس في معجم وبستر الجغرافي. أمّا ما ذكر عن أهميتها قديماً، فقد جاء على ألسنة المؤرخين والرحالة العرب والأجانب، الذين أكثروا من الحديث عن جمال عمرانها وكثرة غلالها الزراعية وجودتها في البلاد.

فابن حوقل، رحّالة القرن العاشر، قد أعجب غاية الاعجاب بخصب تربة طرابلس التي تعود إلى نهر أبي علي، كما أعجب برخص أثمان سلعها المنتجة[١٨]. وهذا يعني أن السلع كانت كثيرة، وبالتالي يكون ذلك مؤشراً على أن الحالة الاقتصادية كانت مزدهرة آنذاك في طرابلس.

أمّا الدمشقي، الجغرافي، السوري المتوفى عام ١٣٢٧م، فيذكر أن بساتين طرابلس التي يسقيها نهر أبو علي، لا مثيل لها في العالم. ويذكر بصورة خاصة قصب السكر وأشجار الحمضيات[١٩].

ويقول ابن بطوطة، «ثم وصلت إلى مدينة طرابلس وهي إحدى قواعد الشام وبلدانها الضخام، تخترقها الأنهار وتحفها البساتين



□ الزنار الطرابلسي

ويكتنفها البحر بمرافقه العَميمة والبر بخيراته الثمينة ولها الأسواق العجيبة...»[٢٠].

أمّا أهم صناعات طرابلس في تلك الفترة، فيخبرنا عنها المقريزي، الذي يذكر أن طرابلس في أواخر الحروب الصليبية، أي أواخر القرن الثالث عشر، كانت تفاخر بأن في المدينة أربعة آلاف نول[٢١]. بينما يذكر الرحالة جون بولونر، الذي زار طرابلس عام ١٤٢٢، أن في المدينة ألفاً ومئتي (١٢٠٠) حائك يصنعون الأنسجة الحريرية والمخملية[٢٢].

هذا إلى جانب أنها كانت ودمشق المدينتين اللتين بقيتا تمونان أوروبا حتى أواخر العصور الوسطى بالسكر بجميع أشكاله المعروفة آنذاك، رقائق أو ناعم بشكل دقيق أو بشكل حلوى. أما الزيت والصابون فقد كانت طرابلس وبيروت تصدرانه إلى مصر[٢٣].

نستنتج من جميع تلك الأقوال، أن طرابلس قد شهدت في تلك الآونة ازدهاراً اقتصادياً كبيراً ارتكز في الدرجة الأولى على زراعتها وصنائعها الزراعية، اللذين بقيا عبر العصور يشكلان القاعدة الأساسية لاقتصاد طرابلس. ففي بداية العصور الحديثة وتحت حكم الأتراك العثمانيين، كانت أهم الغلال الزراعية والمصنوعات المصدرة من لبنان عامة، الحرير والزيت والصابون والزبيب والصوف والبضائع القطنية. وكان الحرير اللبناني يعتبر من أجود وأثمن أنواع الحرير، وكان الطلب على حرير طرابلس الناصع البياض كبيراً لأن الصنّاع كانوا يؤثرونه على غيره من الحرير في أعمال التطريز المذهب والمفضّض[٢٤].

إذا أردنا أن نعالج مسألة الزراعة والصناعة في طرابلس خلال الفترة الممتدة من عام ١٨٨٠ إلى عام ١٩١٤، فنجد أن التقارير التجارية للقناصل ولنواب القناصل الفرنسيين في المدن اللبنانية (بيروت ــ طرابلس)، من أهم المصادر التي تساعد في إلقاء الضوء على أحوال طرابلس الزراعية والصناعية في تلك الحقبة. وهذا بالطبع لا يقلل من أهمية المصادر الأخرى.

ويبدو أن أرشيف وزارة التجارة الفرنسية غني بالوثائق التي تتعلق بالتاريخ الاقتصادي للبنان في هذه الفترة، منها التقارير عن التجارة الخارجية والملاحة البحرية ومنها تقارير عن بعض الأنشطة الاقتصادية كإنتاج الحرير والزراعة والأحراج والصناعة والمناجم وغيرها.

وتغطي هذه التقارير الفترة الممتدة من عام ١٨٧٠ إلى عام ١٩١٤، وهو عام القطع الذي أحدثته الحرب العالمية الأولى بالنسبة لتاريخ لبنان الاقتصادي[٢٥].

إن أول ما يطالع المرء من مظاهر الغنى الزراعي لأي بلد من البلدان هو الأحراج. وقد كانت تتميز بها منطقة طرابلس وجبال عكار، حيث تمركزت المناطق الحرجية فيهما إلى جانب بعض المناطق الأخرى[٢٦]. وتشغل هذه الأحراج حوالي ١٥٠ ألف دونم من قرى وسفوح لا يزيد ارتفاعها عن ١٥٠ متراً. ومعظم أشجار هذه الأحراج هي من نوع السنديان، الصنوبر، العرعر، التي تصلح لأعمال الألواح والأخشاب القصيرة التي يمكن استعمالها في الأبنية البسيطة، وشجر الأرز الذي يبلغ ارتفاع بعضه

عشرة أمتار وقطره متراً ونصف ويصلح لجميع الأعمال[٢٧].

إن الأراضي في منطقة طرابلس خصبة منبتة، يساعدها إقليم معتدل حار ورطب في ساحلها، وبارد إلى معتدل البرودة في جبلها[٢٨]. وتتألف تلك الأراضي من التراب الذي يجرفه نهر أبو علي من الربوع اللبنانية، لذا فهي على قدر كبير من قوة الانبات بسبب ما يتراكم فيها من بقايا الأحجار الكلسية والصوانية وذرات الصلصال التي تنهال عليها من أصقاع لبنان.

وطرابلس غنية بالمياه بفضل نهر أبو علي الذي ينبع من موقع تحت أرز لبنان، ومياه نبع رشعين الذي يصب في نهر أبو علي. ويقطع ذلك النهر طرابلس من مبدأها إلى منتهاها متجهاً من الشرق الجنوبي إلى الغرب الشمالي ليصب في البحر بعد أن يكون قد وزع الخصب على كل أراضيها[٢٩].

ونجد بساتين الليمون تمتد حتى تصل ساحل البحر فتشمل مساحة تبلغ حوالي ٢٥٠٠ فدان، وكانت قيمة كل فدان تتراوح بين ٢٠ و ٢٥ الف غرش عثماني. وكانت طرابلس تصدر، قبل عام ١٩١٤، إلى كل من اسطمبول ورومانيا وروسية حوالي ٤٠٠٠٠٠ صندوق من الليمون كل سنة، هذا عدا ما كان يصرف منه أيضاً داخل البلاد السورية كبيروت وحمص وحماه[٣٠]. وعلى هذا فإن مواسم الليمون والحمضيات خلال تلك الفترة[٣١] قد عادت بالربح الوفير على أصحاب البساتين في طرابلس. وقد عرف أبناء طرابلس كيف يستفيدون أيضاً من وفرة إنتاج الليمون لديهم، عن طريق صناعة ماء الزهر الذي يستحضر بواسطة تقطير زهر الليمون. وقد لا نجد مرجعاً معيناً وافياً، يفيدنا بتاريخ بدء هذه الصناعة، سوى مرجع واحد قد أتى على ذكرها كإحدى المنتجات المتنوعة التي تصنع في طرابلس. وهو التقرير المرفوع بتاريخ ٨ تشرين الأول عام ١٨٩٠ من نائب قنصل طرابلس إلى وكيل القنصلية في بيروت حول واردات وصادرات طرابلس عام ١٨٨٩م[٣٢].

وإن كنّا لم نجد مرجعاً وافياً لتاريخ تلك الصناعة المحلية التي اشتهر بها أبناء طرابلس منذ آمد بعيد إلّا أن ذلك لا يخفي حقيقة وجود



□ اصابت طرابلس نجاحاً في صنعة الحرير، من حيث صنع الألبسة الحريرية كالقمصان والسترات والشالات والزنار الحريري المعروف باسمها «الزنار الطرابلسي».

معامل لاستقطار ماء الزهر إلى جانب صنع الحلويات منذ أواخر القرن التاسع عشر، كمعامل الحلاب.

أمّا الزيتون، فإن مساحة زراعته كانت تقرب من ٢٥٠٠ فدان، وتضم حوالي ٣٠٠٠٠ شجرة، كان يستغلّ منها مقدار ١٥٠٠٠٠٠ أقة(*) من الزيت[٣٣].

وقد دخل تطور كبير في تلك الفترة على إنتاج الزيتون وزيادة إنتاج الزيت الذي كان يذهب قسم كبير منه إلى التصدير ويسد الطريق أمام الزيوت الأجنبية من فرنسية أو إيطالية[٣٤]. والقسم الآخر، كان يذهب للمصابن لصنع الصابون الذي كانت الطبخة الواحدة منه تزن حوالي عشرين قنطاراً، أي ما يقارب ٥٠٠٠ كلغ(*)، يتراوح ربحها قبل الحرب ما بين ٢٠ و ٢٥ ليرة عثمانية. وإذا علمنا أن تلك الطبخات كان يبلغ عددها حوالي ١٢٠٠ طبخة، استطعنا أن ندرك مدى الربح الوفير الذي كان يجنيه أرباب هذه الصناعة التي انحصرت

تقريباً، في تلك الآونة، ببعض العائلات الطرابلسية المعينة كآل الذوق، آل عدره وآل عويضة[٣٤].

ونجد فرنسا، ممثلة بنائب قنصلها في طرابلس، قد أعطت صناعة الصابون في طرابلس المرتبة الأولى في الأهمية من بين صناعات تلك المدينة، حيث كان هناك أربعة عشر مصبنة تعمل بمعدل ستة أشهر سنوياً وتنتج ٢٥ مليون كلغ من الصابون الذي كان يصدر إلى تركيا ومصر[٣٦].

وتجدر الاشارة، إلى أن طرابلس كانت من أوائل المدن اللبنانية، إن لم تكن الأولى، التي استحضرت معصرة حديثة لاستقطار الزيت تشتغل على الجفت (بقايا الزيت المعصور) الموجود في الكورة[٣٧].

كانت صناعة الحرير حتى أوائل القرن العشرين، تمثل الصناعة الأساسية في الاقتصاد اللبناني. وكانت تعد من أهم منابع ثروة البلاد السورية بشكل عام والمناطق اللبنانية بشكل خاص. وطرابلس كان لها دور مهم في هذا المجال لا يقل أهمية عن غيره في المدن اللبنانية. لذلك نجد أن اهتماماً خاصاً قد بذل في تربية شجرة التوت، أهم الأشجار الصناعية، التي شغلت منذ القدم قسماً كبيراً من أراضي طرابلس، فالأمير فخر الدين الثاني، الذي تطورت في عهده صناعة الحرير وبلغ اللبنانيون حدّاً كبيراً من المهارة فيها، قد أمر بغرس ١٤ ألف نصبة توت في جنائن طرابلس وحدها[٣٨].

وزراعة التوت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وحتى أوائل القرن العشرين، امتدت كثيراً في طرابلس وغيرها من المناطق اللبنانية[٣٩]، حيث كانوا يقومون بتربية دود القز على أوراقه بعد قطفها.

أمّا بزر القز، فقد ظلّ اللبنانيون أجيالاً يربون جنساً واحداً من البزر يدعونه البلدي، لونه أبيض أو أصفر. ولكن عند ظهور بعض الأمراض، كمرض الذبلان، والقرن الأحمر والفلفلي، والتي أخذت تفتك بالديدان، ابتدأوا باستيراد البزر من فرنسا وزوّجوه من الجنس البلدي فحصلوا على بزر جيد أكثر ما يصلح للسواحل. ومن ثمّ أحضروا البزر الصيني إلى البلاد، حيث يجري تبزيره مع تجديده فتحسن جنسه وأخذت أوروبا تستورد قسماً منه. فأصبحت صناعة التبزير رائجة مدة في لبنان. ويبدو أن طرابلس في تلك الفترة كانت من المراكز المهمة التي شهدت صناعة التبزير لأنه عندما انتشر نحو عام ١٨٧٢، مرض المحروق، أخذوا يأتون بالبزر من طرابلس التي لم يصلها ذلك المرض[٤٠].

وعندما اكتشفت طريقة باستور عام ١٨٧٤[٤١] لانتقاء البزر الجيد، لم ينجح أصحاب تربية القز في البلاد السورية في تطبيق تلك الطريقة، وأصبحوا منذ عام ١٨٨٠ عاجزين عن تبزير ما يكفي حاجتهم من بزر دود القز[٤٢] وأخذوا يعتمدون كلّياً على ما يستوردونه من بزر كورسيكا[٤٣].

كان إنتاج الحرير يمر بخمس مراحل مهمة، وأي طارىء سوء، جوي أو مرضي، قد يطرأ على أحد تلك المراحل، يؤثر على إنتاج الحرير.

المرحلة الأولى، تتعلق بزراعة أشجار التوت ومن ثمّ قطف أوراقه وتحضيرها لتصبح جاهزة كغذاء لديدان القز.

المرحلة الثانية، هي مرحلة تفقيس البيض، الذي تبدأ فيه دودة القز بغزل شرنقتها. وكان يتم شراء البيض بواسطة تجار كانوا يشترونه بدورهم من مصادر لبنانية أو أجنبية. وكان يقوم بعمل هذه المرحلة المزارعين، وعادة النساء منهم الذين ينقلون البيض إلى أكواخ تكون قد أقيمت خصيصاً لهذا الغرض في الأراضي المزروعة بأشجار التوت.

المرحلة الثالثة، وهي مرحلة إنتاج الشرانق التي كانت تصدّر إلى الخارج أو ترسل إلى مصانع حلّ الحرير المحلية. وفي كلا الحالتين، كان من الضروري الاحتفاظ بالشرانق داخل أفران ساخنة ليتم فيها خنق الديدان لئلا تخرج من الشرنقة وتقطع خيط الحرير المتكامل.

المرحلة الرابعة، كان يتم في هذه المرحلة وضع الشرانق في أحواض كبيرة من المياه الساخنة لازالة المادة الصمغية عن الشرنقة واستخراج خيط الحرير كاملاً، أي حلّه ومن ثمّ غزله.

المرحلة الخامسة والأخيرة، كان يتم فيها تصدير خيوط الحرير، أو يتم نسجه وتحويله إلى أنسجة حريرية على أيدي النساجين المحليين[٤٤].

بعد أن علمنا المراحل المهمة التي تمر بها صناعة الحرير، نجد أن طرابلس قد عرفت صناعة الحرير بمراحله الثلاثة وبمراحله الخمسة، أي أنها قد اكتفت في بعض الأحيان بالمراحل الثلاثة الأولى فقط، عند مرحلة إنتاج الشرانق، حيث كان لواء طرابلس يصدر كل سنة حوالي ٢٧ ألف كيلو من الشرانق إلى معامل ليون[٤٥].

أمّا صناعة الحرير بمرحلته الخامسة، فقد عرفتها طرابلس بشقّيها، التصدير إلى الخارج وحياكته في الداخل. أما التصدير إلى الخارج، فقد كان لواء طرابلس يرسل إلى معامل ليون سنوياً ٣٠٠ رزمة «بالية» من الحرير، وقبل الحرب بسنتين شرع تجار الحرير ببيع عشر حاصلهم إلى معامل إيطاليا. وكانت تباع في فرنسا رزمة الحرير الطرابلسي بثمن يتراوح بين ٤٥ و ٦٠ فرنك فرنسي[٤٦].

أمّا حياكة الحرير في الداخل، فنجده في أقمشة القمصان والحبرات والمناديل والشالات والسترات الحريرية والزنار الطرابلسي[٤٧] الذي اشتهرت به البلاد وكان يتزيّن به الأغنياء من أبناء المنطقة.

وقد عرفت صناعة الحرير في طرابلس في تلك الفترة صعوداً وهبوطاً من حيث الانتاج وبالتالي من حيث التصدير إلى الخارج. وعام ١٨٨٠ كان بمثابة نقطة تحول نحو الأسوأ بالنسبة لصناعة الحرير ليس في طرابلس وحدها، بل في لبنان بشكل عام. ويعود ذلك إلى سببين هامّين:

أولاً، بدأ السوق الفرنسي، وهو السوق الأهم بالنسبة لتسويق الحرير اللبناني بشكل عام ولحرير طرابلس بشكل خاص، فهي كما ذكرنا سابقاً، كانت تصدر جميع ما تنتجه من الحرير الخام والشرانق إلى أسواق ليون في فرنسا، وقبل الحرب بسنتين فقط بدأت تبيع حاصلها من الحرير إلى إيطاليا[٤٩]. بدأ السوق الفرنسي يشهد تدهوراً في أسعار الحرير اللبناني بسبب عودة فرنسا إلى إنتاج شرانق الحرير من جديد وإلى إنتاج الحرير الخام.

والسبب الثاني، فهو مزاحمة الحرير الياباني للحرير اللبناني في الأسواق الفرنسية[٥٠]، علماً أن «الحرير الطرابلسي كان أقل ظرافة ومتانة من الحرير الياباني والصيني»[٥١].

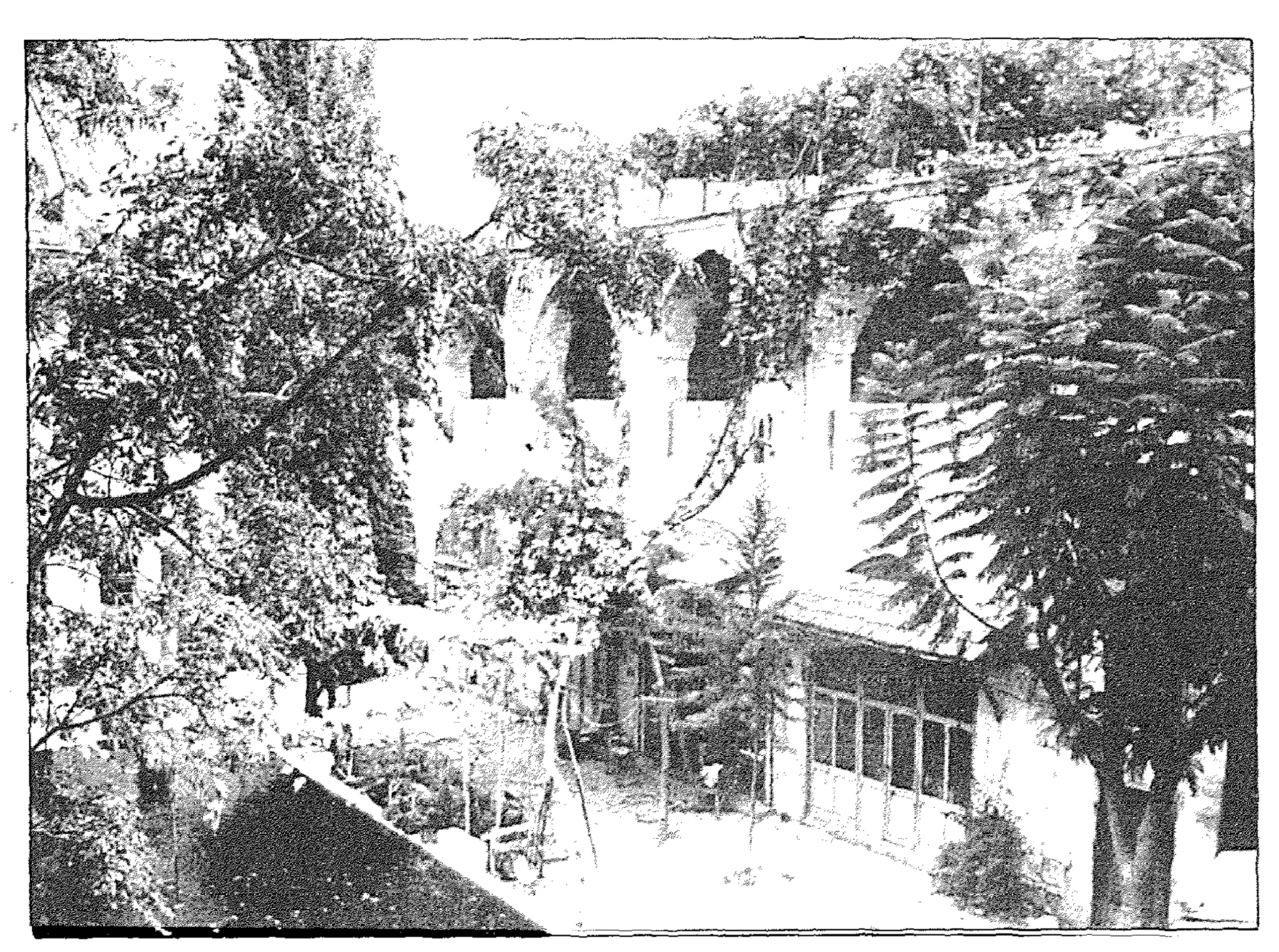
وإزاء هذا التدهور، لم يكن على أصحاب إنتاج الحرير، إلّا أن يأخذوا بالأسباب التي تزيد من حسنات إنتاج حريرهم من حيث النوعية والكمية. فالنوعية، تحتاج إلى اختيار الأفضل من أنواع البزر، أي اتقان تطبيق طريقة باستور في انتقاء بزر القز، ومن ثمّ تهيئة الأجواء المناخية الملائمة لحفظه من حيث وضعه في أماكن ذات حرارة باردة معينة، أي بمعنى أدق تحضير مشتى خاص لحفظ بزر القز يكون قليل الرطوبة متجدّد الهواء دائماً حتى يحين موعد تفقيس البزر.

ولكن يبدو أن هذا الأمر لم يكن متوفراً عند أصحاب إنتاج الحرير في تلك الأيام[٥٢].

أمّا من حيث الكمية، فيبدو أن فائدتها تعتمد أيضاً على جودة نوعية بزر القز. وهذا ما نجده قد حصل بالنسبة لمحصول طرابلس من شرانق الحرير لعام ١٨٩٢ الذي كان جيداً من حيث الكمية ولكنه كان رديئاً من حيث النوعية. والسبب في ذلك، يعود إلى أن مزروعات شرانق الحرير في طرابلس وضواحيها قد تعرضت في شهر أيار (مايو) لأمطار غزيرة، وفي شهر حزيران (يونيو) تعرضت لعواصف شديدة مما ألحق ضرراً بالغاً بديدان القز عند مرحلة التفقيس، فقتل الكثير كما أصيب الكثير أيضاً بالبقع، أي بالمرض الفلفلي. ولكن على الرغم من ذلك، فقد اعتبر محصول طرابلس لتلك السنة من الشرانق جيداً، ولكنه كان رديئاً من حيث النوعية. فالشرانق كانت صغيرة الحجم وليست لها أهمية تذكر لذلك أعطت مردوداً سيئاً ولم يكن محصول إنتاج الحرير جيداً لتلك السنة.

وفي أواخر القرن التاسع عشر، أي في عام ١٨٩٩، نجد بعض التحسن يطرأ على كميات إنتاج الحرير وتصدير الشرانق والخيوط، حيث قد فاقت جميعها كميات العامين الماضيين، ١٨٩٧، و ١٨٩٨[٥٤].

أمّا في بداية القرن العشرين، فنجد زيادة في انتشار زراعة أشجار التوت في سهل طرابلس



□ خان الصابون، الذي لا يزال من معالم طرابلس الحضارية.

مصحوبة بمساعي لتصدير خيوط الحرير إلى الولايات المتحدة الأميركية عبر المغتربين. وهذا يعني أن تحسناً ملموساً قد طرأ على إنتاج الحرير في طرابلس من حيث الكمية والنوعية مما دفع حتى بنائب قنصل فرنسا في طرابلس إلى توجيه دعوة إلى فرنسيين لإنشاء معامل للنسيج مبرراً موقف أثرياء البلد من عدم إنشائهم لتلك المعامل بسبب خشيتهم من جشع الموظفين الحكوميين[٥٥]. ولكن يبدو أن بعض المعامل لحلّ الحرير كانت قد انشئت فعلاً في طرابلس ولكن على أيدي الراهبات اللواتي كنّا يجلبن الحرير الخام إلى معاملهن الحريرية في طرابلس، حيث تحلّل البنات اليتيمات الشرانق. وكان يبلغ مجمل ما يخرج سنوياً من الأنسجة الحريرية من ٣٠٠٠ إلى ٥٠٠٠ متراً، كان يقبل على شرائها التجار من أهل الشام وغيرهم[٥٦].

ولكن ما كادت الزيادة تطرأ على زراعة أشجار التوت وبالتالي نلمسها في زيادة إنتاج الحرير مع بداية القرن العشرين، حتى ابتدأ العدّ العكسي نحو التدهور والتلاشي يصيب صناعة إنتاج الحرير في طرابلس وفي كل المناطق اللبنانية، ففي عام ١٩١٠، أفاد التقرير التجاري البريطاني، أن المزارعين في بعض المناطق اللبنانية قد أخذوا يقتلعون أشجار التوت ويستبدلونه بأشجار الليمون، وهذا يعني أن ذلك كان يجري في المناطق الساحلية، حيث يزرع الليمون. ومما أكّد صحة ما جاء في ذلك التقرير البريطاني، قول نائب القنصل الفرنسي في بيروت جايمس الرّوي فلاكر بأن صناعة إنتاج الحرير في لبنان قد أصبحت بحكم المتلاشية[٥٧].

ويعزو غستون دو كوسّو، أحد القائمين بأعمال القنصلية الفرنسية في بيروت، يعزو ذلك التلاشي إلى الأوضاع السيئة التي كانت تصاحب كلّ مرحلة من مراحل تربية دود القز وإنتاج الحرير، ابتدأ من الأماكن الغير صالحة لحفظ بزر القز وانتهاء بالمعامل والآلات اليدوية والبدائية التي كانت تستعمل في حلّ الحرير[٥٨]. فالشرانق كانت تحل بواسطة آلات يدوية وأجهزة

بدائية لم يطرأ عليها أي تعديل أو تطور منذ أن عرف لبنان صنعة الحرير. فجميع أعمال الحل كانت أولية تمر بتسعة مراحل بدائية[٥٩].

في الوقت ذاته، كنّا نجد المعامل الأوروبية واليابانية تعتمد في أعمال حلّ الحرير وإنتاجه على أدوات متطورة من شأنها الاسراع بالعمل وتحسينه والاقتصاد بتكاليفه. وهذا بدوره كان ينعكس سلباً على حركة تسويق الحرير اللبناني في الأسواق الفرنسية.

وما كاد يطل عام ١٩١٤، حتى ابتدأت تزداد الأراضي المستبدلة أشجار التوت فيها بأشجار الليمون والحمضيات على السواحل اللبنانية أو بزراعة البطاطا في البقاع. وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدل على مدى التقهقر والاهمال الذي وصلت إليه صناعة الحرير في طرابلس[٦٠] ولبنان عامة[٦١].

بعد هذا العرض الدراسي والزمني حول صناعة إنتاج الحرير في طرابلس، إحدى مراكز لبنان لتلك الصناعة، يتبين لنا أن عدم اتباع أصحاب تلك الصنعة للطرق والوسائل الحديثة في تربية دودة القز، كتطبيق طريقة باستور في انتقاء البزر الجيد وتحضير مشتى خاص ذات حرارة باردة معينة تساعد على حفظ البزر في حالة جيدة حتى يحين موعد تفقيسه ومن ثمّ حمايته من التقلبات الجوية، وافتقارهم إلى المصانع الحديثة لحلّ الحرير واعتمادهم الكلي على الأدوات اليدوية والبدائية، إلى جانب المضاربة التجارية ومزاحمة الحرير الياباني والصيني للحرير اللبناني في أسواق ليون، كلّ هذه الأسباب إلى جانب غيرها من الأسباب، كاعتمادهم على استيراد البيض من فرنسا[٦٢]، ساعد كلّ ذلك على تدهور تلك الصناعة الجميلة وتلاشيها والتي كانت حتى زمن قريب تشكل مصدراً هاماً من مصادر الدخل الوطني.

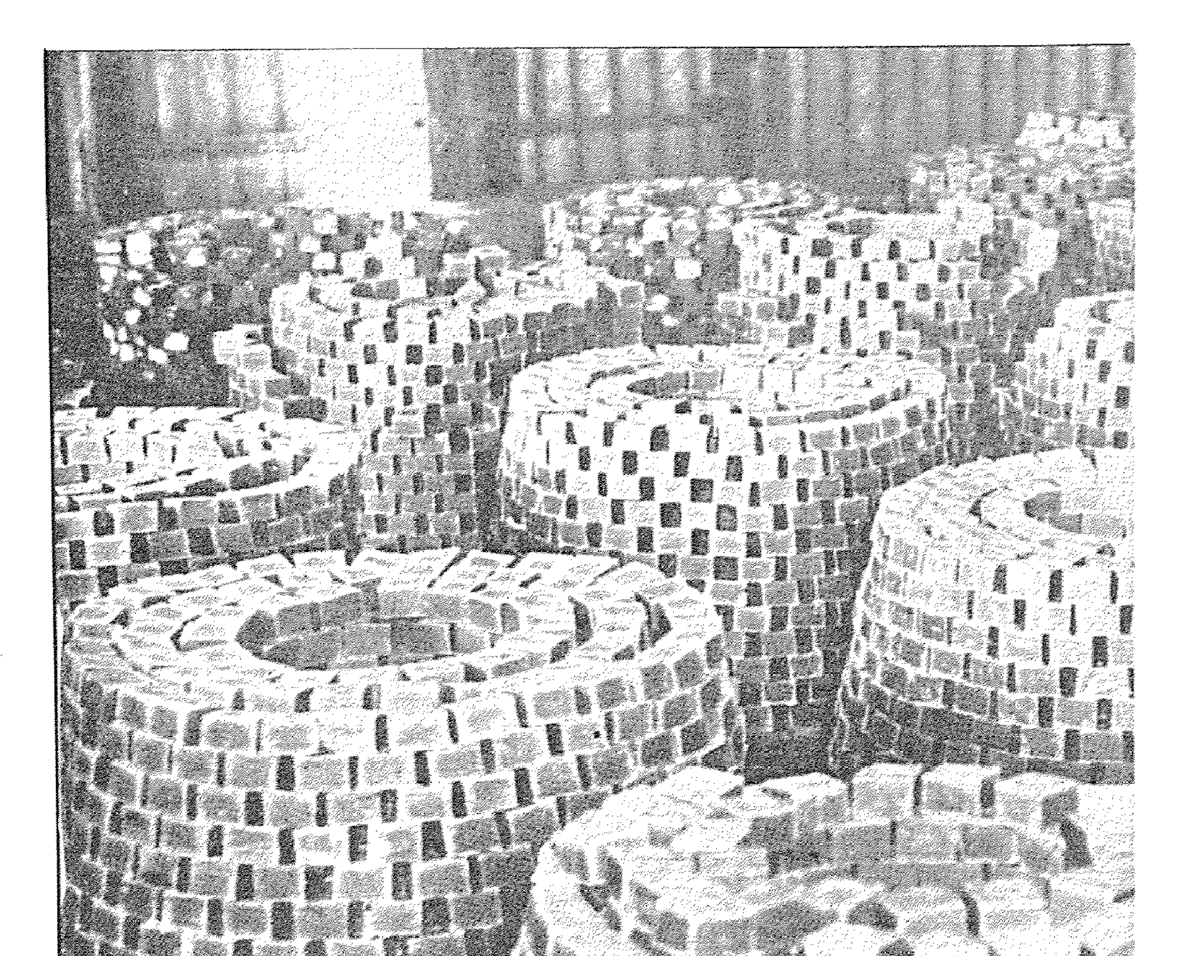
إلى جانب تلك المنتجات الزراعية ـ الصناعية الهامة، كانت طرابلس تصدر الكثير من محصولها الزراعي كالقمح، الذرة الصفراء والبيضاء، العدس، الفاصوليا، الكمون، السمسم، البطاطا، البصل، الخضار الطازجة، اللوز، الحمضيات، الخروع، العرق سوس والتبغ[٦٣].

كان يعتبر التبغ من المحاصيل الهامة في السلطنة العثمانية، إذ كان لا يقل محصوله السنوي عن ٦٠٠٠٠ طن، يصدر منه حوالي ١٢٠٠٠ طن إلى الخارج والباقي كان يستهلك داخل الولايات العثمانية[٦٤]. وكان التبغ ذو أنواع منها الريحاني والجبيلي والكوراني، أو ما يعرف بالتبغ الوطني، وقد قدّر محصوله أواسط القرن التاسع عشر في عموم سورية بحوالي ١٥٠٠٠٠ آقة. وقد اشتهر شمالي لبنان بزراعة هذا الصنف الذي كان مفضلاً في بلاد مصر[٦٥]. وعندما أنشئت شركة «حصر التبغ» عام ١٨٨٣، أخذت زراعة التبغ اللبناني بالتناقص عاماً بعد عام حتى كادت أن تنقرض[٦٦]. والسبب في ذلك يعود إلى أن تلك الشركة كانت لها صفة استغلالية من حيث أنها قد أنشئت عقب إعلان إفلاس السلطنة العثمانية، وهي التي كانت قد أوجدتها بالاشتراك مع دائنيها الأوروبيين كإجراء من ضمن سلسلة إجراءات كانت قد اتخذتها، بغية الحد من تصاعد ديونها[٦٧].

وفي عام ١٩٠٤، أصبح لتلك الشركة الحق في تحديد الأراضي والشروط التي يجب اتباعها في زراعة وتحصيل التبغ، ضمن نطاق الامبراطورية العثمانية. كما أصبح لها الحق في تحصيل ضريبة العشر عن محصول التبغ، وأعطت لنفسها حق احتكار شراء محصول التبغ المعفى من الضريبة، كما أصبح لها الحق في تحصيل جميع الرسوم الجمركية التي كانت تفرض على الصادر والوارد من منتوجات التبغ، وأخيراً، أصبح لها الحق في تحصيل ضريبة التنباك.

هذا بالاضافة، إلى أن تلك الشركة كانت تملك مصنعين كبيرين لصنع السجاير والسيجار في المناطق السورية، وكان إنتاج ذلك المصنعين يباع لصالحها من خلال تجار عملاء محليين[٦٨]، أي بمعنى أدقّ، أنها قد احتكرت زراعة وصناعة التبغ في البلاد السورية الخاضعة للسلطنة العثمانية.

إن تلك الأسباب، إلى جانب غيرها من الأسباب كمزاحمة التبغ التركي (الاسلامبولي) للتبغ الوطني، قد أدّت إلى كساد الانتاج في سوق البلاد لفترة من الوقت ما لبث أن عاد بعدها



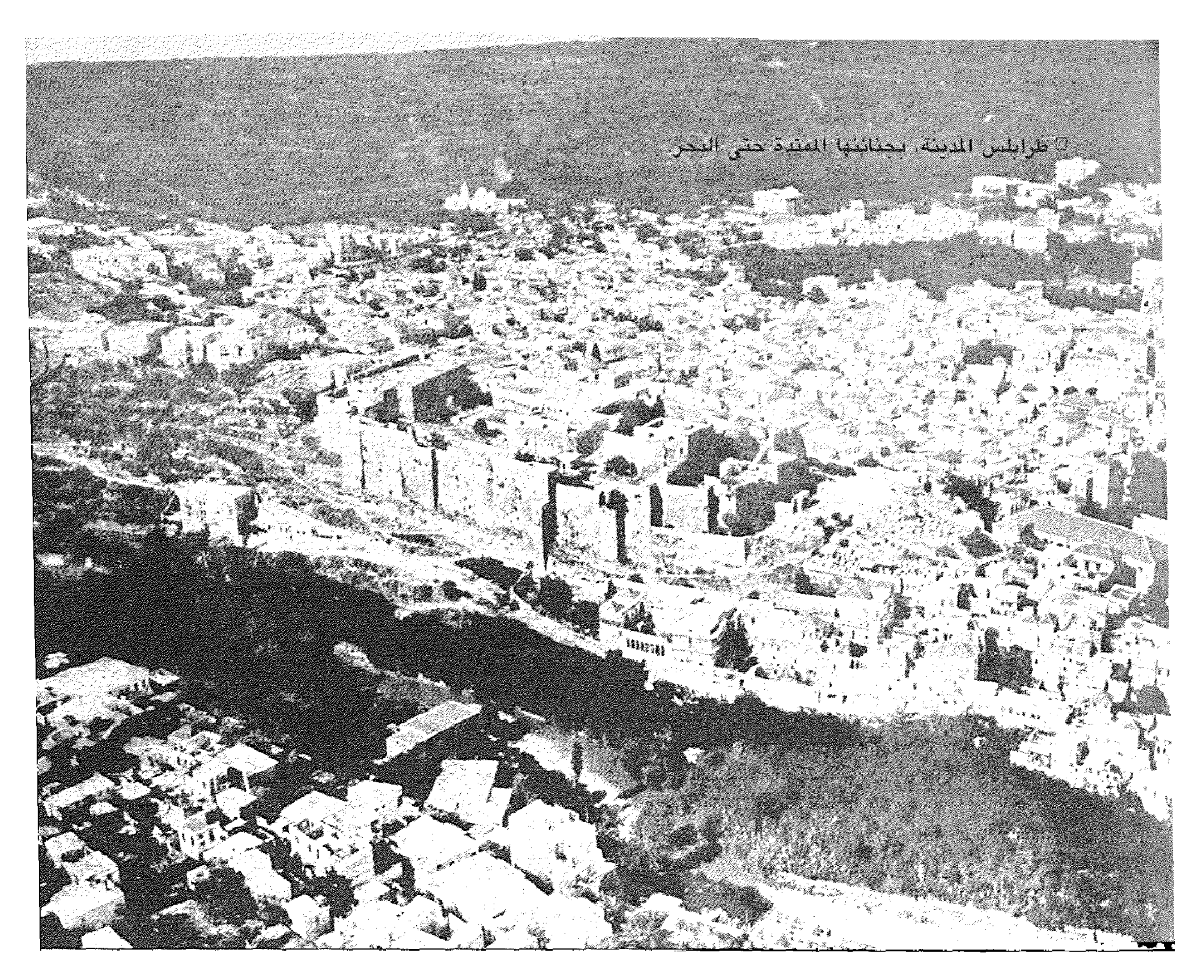
□ صناعة الصابون التقليدية التي ما زالت طرابلس تشتهر بها.

المزارعين إلى تحسين غلّات إنتاجهم من التبغ، عن طريق زراعة بزر التبغ التركي ذو الرائحة الزكية فأعطى مردوداً ناجحاً[٦٩]. أمّا التبغ الوطني، فقد بقيت زراعته جارية في شمالي لبنان، وكان يصدر منه كمية لا تقل عن ٢٠٠٠٠ آقة إلى بلاد مصر[٧٠].

الخاتمة

وأخيراً، نستنتج من هذا البحث حول أهم المزروعات الصناعية في طرابلس خلال الفترة الممتدة من عام ١٨٨٠ إلى عام ١٩١٤، نستنتج مدى أهمية الدور الذي كانت تلعبه طرابلس في تلك الفترة على صعيد الاقتصاد المحلي والاقليمي، وخاصة في مجال الصناعات الزراعية. فالليمون، قد استفادت من وفرة إنتاجه وصنعت منه ماء الزهر، الذي أصبح مع الأيام مادة أساسية يكاد لا يخلو منه أيّ منزل في طرابلس أو في لبنان. والزيتون، استغلّوا كثرة غلّته وصنعوا منه زيتاً وصابوناً. فأنشأوا المصابن العديدة وصدّروه إلى كلّ من تركيا ومصر. وممّا يلفت الانتباه، أن أصحاب معاصر الزيت في طرابلس لحقوا بركاب التطور الصناعي. وكانت لهم الأسبقية في استحضار أول معصرة للزيت تشتغل على الجفت. وتجدر الاشارة، إلى أنّ كلاً من هاتين الصناعتين لا تزال حيّة إلى يومنا هذا. فمصانع ماء الزهر لا تزال ظاهرة للعيان، والمصابن لصنع الصابون كثرت حتى أصبح لها خاناً خاصاً بها، يسمى «خان الصابون»، وقد أصبحت كل واحدة من تلك الصنعتين جزء من تراث طرابلس الشعبي.

أمّا الحرير، وهو أهم صنعة لبنانية محلية في تلك الفترة، فلم تتخلّف طرابلس عن الأخذ



طرابلس المدينة، بجنائنها الممتدة حتى البحر.

بركابها، بل كانت أحد المراكز الهامة لانتاج الحرير وتصديره إلى الخارج بفضل خصب تربتها الملائمة لزراعة أشجار التوت وبفضل مينائها البحري.

لكن في الوقت الذي نجد فيه، أنّ كلاًّ من صناعة ماء الزهر والصابون لا تزال طرابلس تحافظ عليهما، لا بل تكاد تتصدر المرتبة الأولى في صنعهما بين المدن اللبنانية، نجدها في مضمار صناعة الحرير تواكب بقية المناطق اللبنانية في تدهور تلك الصناعة وعدم الأخذ بتطبيق الوسائل الحديثة من أجل تطوير وزيادة وتحسين إنتاج الحرير فيها. فطرابلس في الوقت الذي استحضرت فيه معصرة حديثة للزيت، نجدها تغفل عن تربية بزر القز تربية صحيحة مما جعل الأعاصير التي ضربتها والمناطق المحيطة بها عام ١٨٩٢، تنزل أكبر الضرر بإنتاج الحرير لتلك السنة.

ولكن بالرغم من كل ذلك، لا نستطيع أن نقول إلّا أن صنعة الحرير في طرابلس في تلك الفترة كانت من أهم منابع ثروتها. وقد أصابت نجاحاً في تلك الصنعة من حيث صنع الأنسجة والألبسة الحريرية، كالقمصان والشالات والزنار الحريري المعروف باسمها «الزنار الطرابلسي».

وأمّا التبغ، الذي يبدو أنه كان يحتل المرتبة الثانية في تلك الفترة، من حيث الأهمية بالنسبة لمزروعات طرابلس الصناعية، إلّا أنني لم أشأ أن أذكره عرضاً، وذلك لأن أهميته تحتّم علينا ذكره بشيء من التفصيل خاصة وأن الشركة التي تحكّمت بزراعته وإنتاجه، لا تزال أسسها قائمة حتى الآن، ولكن بعد أن تمّ تحويلها إلى شركة لبنانية وطنية تحت اسم «إدارة حصر

التبغ والتنباك اللبنانية». وبما أن طرابلس كانت تشكل لواء تابعاً لولاية بيروت في تلك الآونة، وبالتالي تقع ضمن نطاق السلطنة العثمانية، فإن الأحكام التي أصدرتها شركة حصر التبغ آنذاك، قد شملتها بالتطبيق.

وأخيراً، بعد أن ألقينا الضوء على جانب من جوانب تاريخ طرابلس الاقتصادي، نستطيع أن ندرك مدى الأهمية القصوى التي تمتعت بها تلك المدينة على صعيد من أهم الأصعدة اللازمة لتقدم الأمم وصنع الحضارات.

ولو أنّ طرابلس قد استعاضت في تلك الآونة، عن آلاتها البدائية بآلات حديثة في كثير من المجالات الزراعية والصناعية، لكان من الممكن أن يكون دورها أجدى وأكثر فعالية في المجال الاقتصادي.

الهوامش

(١) التميمي، رفيق وبهجت، محمد: **ولاية بيروت**، (بيروت، دار لحد خاصر ١٩٧٩)، ص ٨.

(٢) لمزيد من الاطلاع، انظر:
Guy le Strange: *Diary of Journey* through Syria and Palestine, (London, 1896), pp. 6-8. This is a translation of Naser Khosro's book, *Sifir-Nameh*.

(٣) Saba, Paul: «The Creation of the Lebanese Economy, Economic Growth in the Nineteenth and Twentieth Centuries», In *Essays on the Crisis in Lebanon*, Edited by Roger Owen, (London — Ithaca Press 1976), pp. 1-22.

(٤) Buheiry, Marwan: British Official Sources and the Economic History of Lebanon: 1835-1914», *DIRASAT, Lettres et Sciences Humaines*, (Beyrouth, Université Libanaise, Faculté de Pedagogie, 11e Année 13-14/1984), pp. 9-10.

(٥) الحكيم، يوسف: **بيروت ولبنان في عهد آل عثمان**، (بيروت، دار النهار للنشر، ط. ٢، ١٩٨٠).

(٦) الحكيم يوسف: المصدر السابق، ص ٢٦.

(٧) ـــ: لبنان، مباحث علمية واجتماعية، (بيروت، منشورات الجامعة اللبنانية، قسم الدراسات التاريخية، ١٩٦٩)، ج ١ ص ٢٠١.

(٨) كاظم، حسين: «كلمة عن الزراعة في سورية»، **ولاية بيروت**، ص ٥٧.

(*) تعني سورية الجغرافية.

(٩) اصفر، سليم: «الزراعة السورية في الزمن القديم وفي أيامنا». مجلة **المشرق** (بيروت، المطبعة الكاثوليكية، ١٨٩٩)، ج ٢ ص ١٦٨ ـ ١٦٩.

(١٠) تميمي وبهجت: المصدر السابق، ص ٥٨.

(١١) حتي، فيليب: **لبنان في التاريخ**، (بيروت ـ نيويورك، مؤسسة فرنكلين المساهمة للطباعة والنشر، ١٩٥٩)، ص ٥٧٢ ـ ٥٧٣.

(١٢) Issawi, Charles: *An Economic History of the Middle East and North Africa*, (New York, Columbia University Press, 1982), pp. 152-153.

(١٣) ـــ: لبنان، مباحث، (بيروت، ١٩٧٠) ج ٢ ص ٣٩٠ ـ ٣٩٥.

(١٤) أصفر، سليم: «شجرة القشطة»، **المشرق**، (١٩٠١) ج ٤ ص ٤١٤ ـ ٤١٧.

(١٥) تميمي وبهجت: المصدر السابق، ص ٦٢ ـ ٦٣.

(١٦) ضاهر، مسعود: **الجذور التاريخية للمسألة الزراعية ـ اللبنانية، ١٩٠٠ ـ ١٩٥٠**. (بيروت، منشورات الجامعة اللبنانية، قسم الدراسات التاريخية، ١٩٨٣).

(١٧) ——: *Webster's New Geographical Dictionary*, (Springfield — Massacusetts, Merriam Company Publishers, 1980), p. 1225.

(١٨) ابن حوقل، أبو القاسم محمد: **المسالك والممالك** (ليدن، طبعة دي غويه ١٨٧٣)، ص ١١٦.

(١٩) الدمشقي، شمس الدين أبو عبدالله محمد الأنصاري: **نخبة الدهر في عجائب البر والبحر**. (ليدن، تحقيق أ. مهزن، ١٩٢٣)، ص ٢٠٧.

(٢٠) ابن بطوطة: **تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**، (باريس، طبعة وترجمة: C. Defrémery and B.R. Danguinatti، ١٨٩٣، المجلد ١، ص ١٢٧ ـ ١٢٨.

(٢١) المقريزي، ابو العباس أحمد بن علي: **السلوك لمعرفة دول الملوك** (القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، صححه ووضع حواشيه محمد مصطفى زيادة، ١٩٣٩ ـــ ١٩٧١) ج ١ قسم ٣ ص ٧٤٨.

(٢٢) Poloner, John: *Description of the Holy-Land* (London, tr. by Aubery Stewart, 1894), p. 33.

(٢٣) حتي، فيليب، المصدر السابق، ص ٤١٤ ـــ ٤١٥.

(٢٤) حتي، فيليب: المصدر السابق، ص ٤٨٤ ـــ ٤٨٥.

(٢٥) لبكي، بطرس: «ارشيف وزارة التجارة الفرنسية»، **دراسات في الآداب والعلوم الإنسانية** (بيروت، السنة ١١ ـــ العددان ١٣ ـــ ١٤/ ١٩٨٤) ص ٥٩ ـــ ٦٠.

(٢٦) التقرير الرابع الصادر عن قنصلية فرنسا في دمشق بتاريخ ٦ آب ١٨٩١، كما جاء في مقال بطرس لبكي: المصدر السابق، ص ٦٣.

(٢٧) تميمي وبهجت: **ولاية بيروت**، ص ١٥٧.

(٢٨) ـــــ: المصدر السابق، ص ١٥٠.

(٢٩) ـــــ: المصدر السابق، ص ١٧٧.

(٣٠) ـــــ: المصدر السابق، ص ١٨٤.

(٣١) لبكي، بطرس: المصدر السابق، ص ٦٣.

(٣٢) ـــــ: المصدر السابق، ص ٦٥.

(*) ١،٥٠٠،٠٠٠ آقة تساوي ١،٨٧٥،٠٠٠ كلغ.

(٣٣) تميمي وبهجت: المصدر السابق، ص ١٨٤ ـــ ١٨٥.

(٣٤) لبكي، بطرس: المصدر السابق، ص ٦٣.

(*) القنطار يساوي ١٠٠ رطل، والرطل بدوره يساوي ٢،٥ كلغ لذا فالعشرين قنطاراً تساوي ٢٠٠٠ رطل × ٢،٥ = ٥٠٠٠ كلغ.

(٣٥) تميمي وبهجت: المصدر السابق، ص ١٨٥.

(٣٦) A.N.F.[12] 7197, «Commerce et Navigation de Tripoli de Syrie en 1884», Lettre du Vice Consul A.O. Geofroy au Consul — Géneral a Beyrouth, M. Patrimonio du 3 Février 1885. As quoted by Boutros Labaki in *Dirasat*, p. 65.

(٣٧) ـــــ: لبنان مباحث، ج ٢ ص ٤٣٦.

(٣٨) «الحرير اللبناني يعود إلى المغازل»، **النهار الاقتصادي والمالي**، عدد خاص (بيروت ٢٢/١١/١٩٧٠) ص ١٦ ـــ ١٧.

(٣٩) ـــــ: لبنان مباحث، ج ٢ ص ٤٠٨.
انظر أيضاً:
Saba Paul, «The Creation of the Lebanese Economy», *Essays on the Crisis in Lebanon*, p. 18.

(٤٠) ـــــ: لبنان مباحث، ج ٢ ص ٤١٠.

(٤١) Owen, Roger: *The Middle East in the World Economy, 1800-1914*, (London - New York, Ist ed. 1981) p. 157.

(٤٢) Owen, Roger: Ibid., p. 157.

(٤٣) ـــــ: لبنان مباحث، ج ٢ ص ٤١٠.

(٤٤) Owen, Roger: Ibid., p. 154.

(٤٥) تميمي وبهجت: المصدر السابق، ص ١٨٥.

(٤٦) تميمي وبهجت: المصدر السابق، ص ١٨٥ ـــ ١٨٦.

(٤٧) الزين، سميح وجيه: **تاريخ طرابلس قديماً وحديثاً، منذ اقدم الأزمنة حتى عصرنا الحاضر**. (بيروت، دار الأندلس للطباعة والنشر، الطبعة الأولى ١٩٦٩)، ص ٢٩٧.

(٤٨) Saba, Paul: The Creation of the Lebanese Economy», p. 19.

(٤٩) تميمي وبهجت: المصدر السابق، ص ١٨٥.

(٥٠) Saba, Paul: Ibid., p. 19.

(٥١) تميمي وبهجت: المصدر السابق، ص ١٨٥.

(٥٢) أصفر، سليم: «بزر دود القز، عمل الطوارىء الجوية لا سيما البرد في البزر وذكر مشتاه» **المشرق**، ١٨٩٨، ج ١ ص ٣٢١ ـــ ٣٢٢.

(٥٣) Rapport: La Campagne Sécricicole de 1891-1892 dans le Sandjak de Tripoli de Syrie, Par M.P. Savoye Vice-Consul de France A Tripoli de Syrie, le 16 Août 1892.

(٥٤) A.N.F.[12] 7197, «L'industrie Sécricicole dans le district de Tripoli Pendant la Campagne 1898-1899.» Rapport de Séjour du Vice-Consul de France à Tripoli au Ministre des Affaires Etrangères en date du 7/9/1899. As quoted by Boutros Labaki in *Dirasat*, p. 68.

(٥٥) A.N.F.[12] 7197, «Note sur le Commerce de la Soie à Tripoli de Syrie» Du Vice-Consul de France à Tripoli de Syrie au Ministère des Affaires Etrangères. Communiquée au Ministère du Commerce le 19 Aôut 1905. As quoted by Boutros Labaki in *Dirasat*, p. 69.

(٥٦) غستون دوكوسو: «تاريخ الحرير في بلاد الشام»، **المشرق** (١٩١٢) ، ج (١٥) ص ٢٧٨.

(٥٧) Owen, Roger: Ibid., p. 250-251.

(٥٨) ——: Ibid., p. 251.

(٥٩) ــــ: لبنان مباحث، ج ٢ ص ٤٩٤ ــ ٤٩٥.

(٦٠) تميمي وبهجت: المصدر السابق، ص ١٨٥ ــ ١٨٦.

(٦١) Consultant Général de France en Syrie: «Rapport Commercial de 1914», Annexe à la lettre de Monsieur Georges Picot, Consul Général de France à Beyrouth à Monsieur le Directeur de l'Office de Commerce Extérieur (Paris) Beyrouth le 26/10/1914, as quoted by Boutros Labaki in *Dirasat*, p. 69.

(٦٢) Owen, Roger: *The Middle East in the World Economy*, p. 252.

(٦٣) لبكي، بطرس: **دراسات**، ص ٦٢.

(٦٤) ــــ: **لبنان مباحث**، ج ٢ ص ٤١٧.

(٦٥) ــــ: **لبنان مباحث**، ج ٢ ص ٤١٧.

(٦٦) ــــ: **لبنان مباحث**، ج ٢ ص ٤١٧.

(٦٧) Saba, Paul: «The Creation of the Lebanese Economy», p. 17.

(٦٨) Saba Paul: Ibid, p. 17.

(٦٩) ــــ: **لبنان مباحث**، ج ٢ ص ٤١٧ ــ ٤١٨.
انظر أيضاً: الجميل، يوسف: **زراعة التبغ التركي في لبنان**، (بيروت، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين ١٩١١)، ص ٣ ــ ٤.

(٧٠) ــــ: **لبنان مباحث**، ج ٢ ص ٤١٧.

مصادر البحث

الــكتب:

(١) التميمي، رفيق وبهجت، محمد: **ولاية بيروت**، بيروت، دار لحد خاطر، ١٩٧٩.

(٢) الحكيم، يوسف: **بيروت ولبنان في عهد آل عثمان**، بيروت، دار النهار للنشر، الطبعة الثانية، ١٩٨٠.

(٣) ــــ: **لبنان، مباحث علمية واجتماعية**، منشورات الجامعة اللبنانية، قسم الدراسات التاريخية، الجزء الأول، ١٩٦٩ والجزء الثاني، ١٩٧٠.

(٤) حتي، فيليب: **لبنان في التاريخ**، بيروت ــ نيويورك، مؤسسة فرنكلين المساهمة للطباعة والنشر، ١٩٥٩.

(٥) ضاهر، مسعود: **الجذور التاريخية للمسألة الزراعية اللبنانية، ١٩٠٠ ــ ١٩٥٠**، بيروت، منشورات الجامعة اللبنانية، قسم الدراسات التاريخية، ١٩٨٣.

(٦) ابن حوقل، أبو القاسم محمد: **المسالك والممالك**، ليدن، طبعة دي غويه، ١٨٧٣.

(٧) الدمشقي، شمس الدين أبو عبدالله محمد الأنصاري: **نخبة الدهر في عجائب البر والبحر**، ليدن، تحقيق أ. مهران، ١٩٢٣.

(٨) ابن بطوطة: **تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**، باريس، طبعة وترجمة: المجلد ١، ١٨٩٣.

(٩) المقريزي، أبو العباس أحمد بن علي: **السلوك لمعرفة دول الملوك**، القاهرة، صححه ووضع حواشيه محمد مصطفى زيادة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، الجزء الأول، القسم الثالث، ١٩٣٩ ــ ١٩٧١.

(١٠) الزين، سميح وجيه: **تاريخ طرابلس قديماً وحديثاً منذ اقدم الأزمنة وحتى عصرنا الحاضر**، بيروت، دار الأندلس للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، ١٩٦٩.

(١١) الجميل، يوسف: **زراعة التبغ التركي في لبنان**، بيروت، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين ١٩١١.

المقـــالات:

(١) كاظم، حسين: «كلمة عن الزراعة في سورية»، **ولاية بيروت**، بيروت، دار لحد خاطر، ١٩٧٩.
(٢) أصفر، سليم: «الزراعة السورية في الزمن القديم وفي أيامنا»، **مجلة المشرق**، بيروت، المطبعة الكاثوليكية، الجزء الثاني، ١٨٩٩.
(٣) أصفر، سليم: «شجرة القشطة»، **المشرق**، بيروت، الجزء الرابع، ١٩٠١.
(٤) أصفر، سليم: «بزر دود القز، عمل الطواريء الجوية لا سيّما البرد في البزر وذكر مشتاه»، **المشرق**، بيروت، الجزء الاول، ١٨٩٨.
(٥) لبكي، بطرس: «أرشيف وزارة التجارة الفرنسية»، **دراسات في الآداب والعلوم الإنسانية**، بيروت، تصدر عن كلية التربية في الجامعة اللبنانية، السنة ١١، ١٣ ـــ ١٤/ ٨٤.
(٦) ـــــ: «الحرير اللبناني يعود إلى المغازل»، **النهار الاقتصادي والمالي**، عدد خاص، بيروت، ٢٢ تشرين الثاني، ١٩٧٠.
(٧) غستون دو كوسّو: «تاريخ الحرير في بلاد الشام»، **المشرق**، بيروت، الجزء ١٥، ١٩١٢.

Books:

(1) Guy Le Strange: Diary of a Journey Through Syria and Palestine, London 1896.
(2) Issawi, Charles: An Economic History of the Middle East and North Africa, New York, Columbia University Press, 1982.
(3) ——: Webster's New Geographical Dictionary, Springfield Massachusetts Merriam Company Publishers, 1980.
(4) Poloner, John: Description of the Holy Land, London, tr. by Aubery Stewart, 1894.
(5) Owen, Roger: The Middle East in the World Economy, 1800-1914, London — New York, first edition, 1981.

Articles:

(1) Saba, Paul: «The Creation of the Lebanese Economy, Economic Growth in the Nineteenth and Twentieth Centruies», Essays on the Crisis in Lebanon, London, Edited by Roger Owen, Ithaca Press, 1976.
(2) Buheiry, Marwan: «British Official Sources and the Economic History of Lebanon: 1835-1914».
DIRASAT, Lettres & Sciences Humaines, Beyrouth Université Libanaise, Faculté de Pedagogie 11e Année, No. 13-14/1984.



أحب الناس إلى الرسول:

● عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قيل يا رسول الله: أي الناس أحب إليك؟ قال: أنفع الناس للناس. قيل يا رسول الله: فأي الأعمال أفضل؟ قال: إدخال السرور علىَ المؤمن، قيل: وما سرور المؤمن؟ قال: إشباع جوعته، وتنفيس كربته، وقضاء دينه. ومن مشى مع أخيه في حاجته، كان كصيام شهر واعتكافه، ومن مشى مع مظلوم يعينه ثبت الله قدمه يوم تزل الأقدام، ومن كف غضبه ستر الله عورته؛ وإن الخلق السيء ليفسد العمل كما يفسد الخل العسل.



جيسّب مزّيني

١٨٠٥ ـ ١٨٧٢

□ ساعة المجد:
قائد الجمهورية الرومانية

كان مزّيني ثائر أوروبا الأول في الفترة ما بين ١٨٣٥ ـ ١٨٦٠. فحيثما طرح موضوع الثورة الحمراء في منتصف القرن التاسع عشر كان اسمه أول ما يتبادر إلى الأذهان؛ ومع أن أسماء أخرى برزت في تلك الفترة أمثال ماركس وباكونين فقد ظل في الطليعة. وعلى نقيض سلفه روبسبيير وخلفه القوي ماركس فإن تعاليمه وممارساته قد اتسمت بالمثالية الدينية السامية. فمرجعُه الأول كان الله والإيمان والواجب. فهو، في أكثر من مجال، شبيهٌ للقائد البيوريتاني الواضح الرؤيا والتفكير: الكتاب المقدس في اليد اليسرى والسيف في اليد اليمنى. ومن الأصح استبدال الكتاب المقدس برسالته المشهورة «الإيمان والمستقبل» واستبدال السيف بالبنادق المكدسة والمخبأة في جبال سافوى أو صقلية. فمن منظار اتساع كتاباته وإطار نشاطاته، يقف مزّيني مُميّزا بين الثوريين الأوروبيين. فمجموعة أعماله مثلاً تناهز المائة مجلد، كما ان ثائراً آخر لم ينظم هذا العدد الكبير من الانتفاضات. وقد عُرف عنه أيضاً رهافة الحس والكرم مما حدا بالايطاليين تسميته بالنبي أحياناً وبالقديس أحياناً أخرى.

وُلد مزّيني في جنوى في العام ١٨٠٥ من والدين ينتميان إلى الطبقة المتوسطة. فوالده كان

□ إيطاليا عام ١٨٥٩.



«ان شجرة الحرية تُصبح أصلب عودًا عندما ترويها دماء الشهداء»

مـزّيـني

■ بقلم: إ.ي. هيـلز

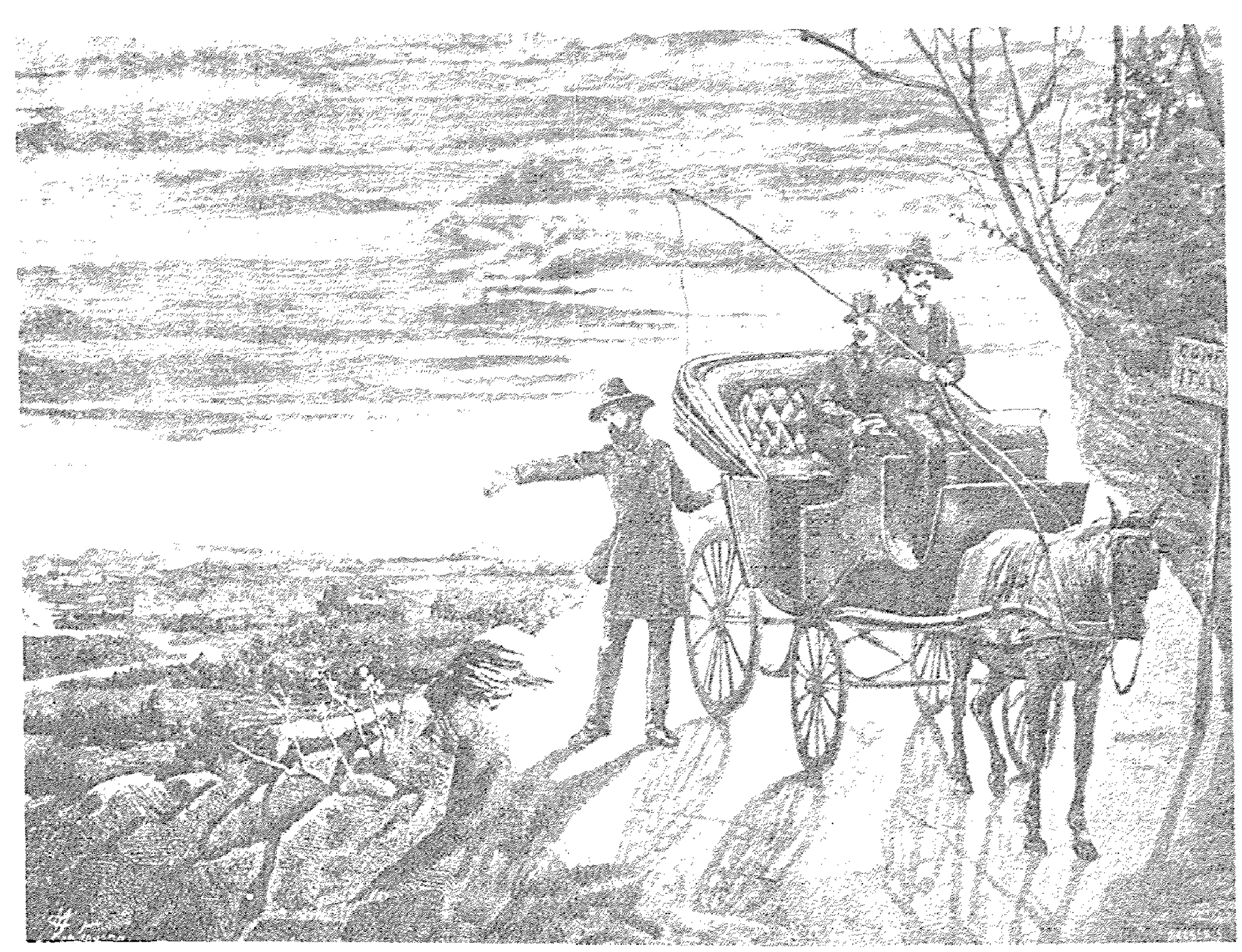
■ ترجمة: مكرم حداد

طبيباً واستاذاً جامعياً. وامه التي طبعت شخصيته بمزاياها كانت من اتباع جنسنت وهي التي اعتقدت أن ولدها هو مختار الله. ومذهب جنسنت هذا الذي نما في شمال ايطاليا يتلخصُ ايماناً بالنظام الجمهوري. من هنا ندرك أثر أمه حين كرّس مزّيني نفسه لهذا النظام السياسي.

يُضاف إلى ذلك أن هذا الشاب، وعوضاً عن متابعته دراسة الحقوق في الجامعة، انكبّ على قراءة روسّو وهيغو ولامارتين وشيلر وبايرون وغوته (مترجماً) مما اقنع هذا الطالب الجامعي مع أن الأنظمة الملكية والأرستقراطية والكنسية هي مدعاة للضحك، وان الشعب مخدوع ومنقسم على ذاته وغارق في الجهل بفعل سياسة رؤسائه، مع أن الشعب وحده يحمل بذور الحقيقة ولا يحتاج إلا إلى عبقري كي يجعل هذه البذور تنضج وتثمر.

كان مزّيني مُؤمناً في تعاليمه إن الله خلق البشر أمماً متعددة؛ إلا أن القليل من هذه الأمم نَعِمَ وتمتّع بالاستقلال والوحدة. أما الأكثرية الباقية من ايطاليين والمان وبولونيين وسائر الشعوب السلافية، فكانت منقسمة ومقهورة. وفي اعتقاده ان الايطاليين كانوا الأكثر تَميُّزاً؛ فلم يكن لغيرهم هذا التراث الحضاري المجيد ولا هذا الميل الطبيعي والعفوي للاخلاص والتضحية. فالحضارة انبعثت مرتين من روما: مرة عبر قياصرة روما؛ ومرة أخرى عبر باباوات روما. وقد حان الوقت ليكون هناك روما ثالثة هي روما الشعب الايطالي. لتكن إذن ايطاليا، التي ثارت وطردت النمساويين بالتعاون مع الأمراء والبابا، جمهورية موحدة دون امتيازات ودون نظام أرستقراطي. ولن يمضي زمن طويل لتتخلّى ايطاليا عن الدين المسيحي كي تضم في جنباتها دين الإنسانية، دين الشعوب كلها.

بهذه الكلمات القليلة يتلخص المذهب المزيني وهذه كانت رسالة الرجل الذي رحَّب بملء إرادته بفكرة الذهاب إلى المنفى في مرسيليا عام ١٨٣١ حيث أسس الجمعية الثورية المعروفة باسم «ايطاليا الفتاة». وبعد عدة سنوات من الدعاية الحثيثة وبعد سلسلةٍ من المحاولات الفاشلة لتثوير ايطاليا، التقى مزّيني بحفنة من أصدقائه في برت وأسس جمعية «أوروبا الفتاة» وهي التي تنطبقُ مبادِئُها على جميعِ شعوب أوروبا. وفي ميثاق «أوروبا الفتاة» الموقّع عام ١٨٣٤ من قبل ١٧ شخصاً أعطى مزّيني وأصدقاؤه أول تعريف أو تحديد عقائدي للمفهوم القائل بأن على أوروبا أن تكون مجموعة متجانسة من الجمهوريات الشعبية. وقد جاء هذا التعريف أو التحديد تحدياً واضحاً وصارخاً لسياسة مترنيخ في فينّا



□ مزّيني مودعاً وطنه يوم ذهابه إلى المنفى عام ١٨٥١.

ولفكرة هذا الأخير حول الحكم والنظام السياسيين.

وفي مواجهة «تحالف الحكام المقدس» كان مزّيني يَجْهَد لإقامة «تحالف الشعوب المقدس». ومع أنه ومترنيخ كان في موقعين مختلفين، فاحترامهما لبعضهما كان قائماً وملموساً لمعرفتهما ان الخط السياسي لكل منهما كان يقوم على مبادىء واضحة. وقد التقيا حول فكرة احتقار الدستوريين والمعتدلين من السياسيين. فمبدأ مترنيخ قام على فكرة امبراطورية الأمة الواحدة كما كان الحال في روما القديمة.

وإن كان القرن العشرين قد أثبت صوابية نظرية مترنيخ إلا أن هذا لا يستلزم دحضاً لمبادىء وتعاليم مزيني. فلم يكن هذا الأخير ليرى في الدول إلا مبادىء احترام الله وقوانينه واحترام حقوق الآخرين والتمتع بالحريات الإنسانية. فالأمم بنظره كالعائلات تتعاون فيما بينها وتنعم بسلام دائم. أما الصراعات وسوء العلاقات فهي باعتقاده نتيجةً للأنظمة الملكية والأرستقراطية، وانتهاؤها رهن بقلب هذه الأنظمة. والجدير بالذكر هنا أنه ليس من قبيل الصدف أن يعمد الرئيس ولسون ولويد جورج في العام ١٩١٩ على إعادة رسم خريطة أوروبا على الطريقة المزّينيّة.

وحري بنا القول انه على الصعيد التنظيمي للثورات لم يحرز مزّيني أي نجاح يُذكر. فأهم محاولاته كانت غزو سافوي في نهاية شهر كانون الثاني من العام ١٨٣٨ حيث قاد الحملة الجنرال رامورينو إذ توجه بقواته نحو شامبري لملاقاة ثلاث ماية عنصر بولوني والماني وايطالي كانوا قد تجمعوا في بحيرة جنيف، كما قال مقرراً أن يسبق عملية الغزو انتفاضة في نابولي وأخرى مساندة لها في تورين؛ إلا أن اكتشاف الأمر والاعتقالات التي تلت ذلك والرسائل التي وصلت

إلى غير أصحابها وبعضها وصل ولم يُقرأ لرداءة الحبر... كلها أسباب أدت إلى الكارثة الكبرى. فالعناصر البولونية المقاتلة التي أُرغمت على البقاء في قواربها وسط بحيرة جنيف والتي مُنعت من الاقتراب من الشاطىء حدث بمزّيني التقدم إلى الأمام في طقس بارد ودون ارتداء عباءته مما أدى إلى إصابته بالحمى ثم نقله إلى كوخ قريب في حالة من الهذيان والمرض الشديد.

ولم تكن نتائج المحاولات في كلاريا (١٨٤٨) وميلانو (١٨٥٣) وجنوى (١٨٥٧) أحسن حالاً. من هنا يبدو من الخطأ تقييم شهرة مزّيني على اساس انجازاته في حقل التنظيم الثوري. فصيته ذاع كنبي قوي، وان فشله المتكرر يخدم شخصه بحيث ثُبّت قوة عزيمته ومثابرته واستعداده الدائم للتضحية. «إن شجرة الحرية»، يقول مزيني، «تصبح أصلب عوداً عندما ترويها دماء الشهداء». وفي مجال الاستشهاد له قول مأثور أيضاً إذ يقول بمرارة: «إن خنجر الاغتيال يُصبح أكثر إيلاماً عندما يُسَن على ضريح الشهيد». ورغم محاولات مُحبّيه تبرير مسلكيته هذه حول موضوع الاغتيال، تبقى الحقيقة التي لا بد منها وهي انه حاول جاهداً ضمان اغتيال شارل البرت السرديني ولويس فيليب الفرنسي. صحيح أنه لم يكن ضالعاً في محاولتي اغتيال لويس فيليب ولويس نابليون، إلا أنه آمن أن الاغتيال هو أحد الأسلحة المتاحة للتأثر. وقد اقرَّ بها كسلاح عَرَضي يُلجَأ إليه احياناً على عكس الأسلحة الأخرى كالتبشير والتعليم والتحريض على العمل الثوري، والتي تتسم بالاستمرارية وتحتاج إلى جهد متواصل.

ورغم فشل الثورات التي قام هو بتنظيمها بقي لمزيني الوهج الثوري في انتفاضات ١٨٤٨ ــ ١٨٤٩. وقد صَحَّت توقعاته حول الثورة الأوروبية الشاملة، وكانت جمعية «أوروبا الفتاة» قد استبصرت شيئاً من هذا القبيل. فعندما عمّت الانتفاضات باريس وفينا وروما وعواصم أوروبية اخرى أقل أهمية، ظهر جلياً أن الثورة الشعبية قد أبصرت النور وبدأت تتحقق بحيث أن مزيني الموجود في المنفى في لندن (وبعد قضائه فترة إحدى عشر عاماً هناك) دُعي إلى روما ليصبح ولمدة ثلاثة أشهر فقط رئيساً للجمهورية الرومانية



□ والدة مزيني، التي اعتبرته مختار الله.

التي لم تكتب لها الحياة أكثر من ذلك. فوجود مترنيخ في بريتون والبابا في جيتا ومزّيني في كويرينال أظهر أن العالم قد انقلب رأساً على عقب وبالطريقة التي أرادها مزّيني شخصياً حتى ولو حصل ذلك لفترة وجيزة وبدا كغيمة صيف.



□ مزّيني في غرفته خلال زيارته لانكلترا.

فأتباعه في روما أُزيلوا من قبل التقليديين و «تحررت» ايطاليا والمانيا على يد كافور وبسمارك وبذلك انتهت قيادة مزيني في العام ١٨٤٩.

مهما يكن من أمر، فإن الحقبة الأخيرة من حياته كانت في بعض جوابنها مؤثرة جداً وإن لم تكن ذات تأثير كثير. فقد بقي متمسكاً بمبادئه وتعاليمه وإيمانه دون التسليم بأي شيء إلى منافسيه؛ كما بقي مناهضاً لكافور وغاريبلدي وماركس والبابا ونابليون وفكتور إيمانويل. ومع إطلالة منتصف القرن التاسع عشر بدا أن أكثرية التقدميين الايطاليين متحمسة ومجنّدة لفكرة الاتحاد بين الدويلات الايطالية برئاسة البابا أو عمانوئيل أو الإثنين معاً. أما مزيني، فلم يكن متحمساً ولا مجنداً للتسويات السياسية بل بولادة جديدة لايطاليا. وبعد أن توحدت ايطاليا في العام ١٨٦٠، بدأ يشعر أنّ ما قالته رفيقته وعشيقته جيديتا سيدولي حول الاتحاد صحيح. وقد جاء قولها معبراً جداً «لقد استطاعوا توحيد إيطاليا ولكنهم الآن ينهشون جسدها».

مع أن المعتقدات الوطنية والديمقراطية كانت مشتركة بين مزّيني وغاريبلدي، إلا أن هذا لم يكن كافياً لتوحيد موقفهما. كذلك الأمر بالنسبة إلى النقاط المشتركة بين مزّيني من جهة وماركس وقادة الأمميّة الأولى من جهة أخرى. فاجتماعه الأول بكارل ماركس في لندن جعله يشعر بكره غريزي نحوه. وكان الأمر مماثلاً بالنسبة إلى شعوره تجاه باكونين. فهذا الأخير شرع بانشاء خلايا للعمل الاشتراكي في شمال ايطاليا حيث النفوذ المزيني الكبير، كما حاول استمالة العمال المنتمين إلى مزّيني مما حثه على شن هجوم على الاشتراكية متّهماً إياها شتى التهم منها الالحاد وتقديم المصلحة على الواجب

الوطني والطغيان. بينما كان هو التـوّاق أبداً ودائماً إلى الإيمان والمحبة والمساعدة المتبادلة ضمن عمل جماعي وطوعي. وقد اعتبره ماركس من بقايا الماضي الميؤوس منهم.

وفي آخر أيام حيـاته انشغل مزّيني كلياً بأوضاع ومشاكل العمّـال، لذا اعتُبِرَ بجـدارة أفضل صديق للرجل الكادح ورائداً لفكرة ايطاليا الموحـدة. ويوم جنازته مشى وراء النعش جمع غفير يتقدمهم ممثلو الجمعيات العماليـة التي اشرف شخصياً على تأسيسها.

هكذا كان أثر شخصيته عظيماً في نفوس أبناء وطنه الايطاليين، حتى في أحلك الظروف التي مرت عليهم. فعندما تهجموا عـلى الكنيسة في الثمانينات والتسعينات، وعندما اشتركوا بالحرب العـالمية الأولى عـام ١٩١٥، وعنـدمـا أيّـدوا مـوسوليني... في جميـع هذه الظروف، شعـر الإيطاليون أن الكثير من تعاليم مزّيني كانت تُنير خـطاهم. فشهرتـه طغت على شهـرة كـافـور وغـاريبلدي. ولا يعود السبب في ذلك لصحـة توقعاته وتنبؤاته بل للعاطفة الخالصة التي كان يَكنّها شعبه له. فاخلاصهم له كان استجابـة لاخلاصه الطوعي والدؤوب لهم ولايطاليا معاً، ولايمانه بمستقبل وطنه الزاهر، مما ترك له أتباعاً كثيـرين ومنهم صديق صبـاه بـرنسيبيـا دي بلجيوزو الذي قال فيه: «سعى مزّيني ليصبح حليف الله؛ ولكن إلهه كان من طينة إله الثوار الفـرنسيين وليس من طينـة الإله الذي عبَدَه الايطاليون. مع هذا فقد نجح في سنوات قليلة بالايحاء لشعبه بكراهية السيطرة وخاصة سيطرة الغرباء وبمحبة الحرية والاستقلال لجميع شعوب الأرض».



لا بد للمحزون أن يسلى!!

● لما عزل الخليفة المعتصم بالله، وأرغم على مبارحة قصر الملك، وترك أبهة الخلافة.. دمعت عيناه وقال: سبحان من يرث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين. ولما أنزله الثوار قهراً إلى سفينة تقلع به خارج المملكة، نظر إلى قصره في أسى وحسرة، وأنشد:

يـا مـنـزلا لم تـبـل أطلاله ... حـاشـا لأطلالك أن تـبـلى
لم أبـك أطلالك لكـنـنـي ... بـكيـت عـيشي فـيـك إذ ولى
والعيش أحـلى ما بكاه الفتى ... لا بـد للمحـزون أن يسـلى

فلما سمعه أحد الأمراء أخذته الشفقة عليه، ولكنه تذكر تصرفاته التي أدت إلى خلعه فأنشد:

أعطيت ملكاً فلم تحسن سياسته ... كذاك من لا يسوس الملك يخلعه

أوصيك بأولادي

● دخل أعرابـي على الحجاج وأمامه نوع من الحلوى اشتهر طاهيه بإجادته. وكان الأعرابـي من المولعين بهذا الصنف. فدعاه الحجاج ومن كان حاضراً المجلس إلى مشاركته. ولم يكد الأعرابـي يتذوق الحلوى ويعجب بها حتى التفت الأمير إلى الحاضرين وقال: أيها الناس كفوا أيديكم عن الأكل، ومن أكل من هذا الطبق ضربت عنقه. فكفوا جميعاً إلا الأعرابـي الذي مد يده في نهم وقال: أيها الأمير أوصيك بأولادي خيراً! فضحك الحجاج وأعطاه الطبق كله.

العلوم المساعدة للتاريخ

■ د. حسّان حلّاق

من الخطأ الاعتقاد أنه بإمكان المؤرخ أن يقوم بالكتابة التاريخية اعتماداً على معلومات ومصادر تاريخية فحسب، ومن الخطأ الاعتقاد بأن التأريخ (Historio-graphy) يمكن فصله عن بقية العلوم. فبالرغم من أنه علم قائم بذاته، غير أن منهج البحث التاريخي أثبت أن للعلوم المساعدة مكانة هامة في العمل التاريخي، وأن هناك ارتباطاً وثيقاً بين التاريخ وبين هذه العلوم.

فالدراسات التاريخية التقليدية تعتمد في منهجيتها على سرد المعلومات التاريخية فحسب دون أن تأخذ بعين الاعتبار ما للعلوم الأخرى من أهمية في مثل هذه الدراسات. في حين أن الدراسات التاريخية المعاصرة تحرص على ربط التأريخ بالعلوم المساعدة بما فيها الكمبيوتر.

وفي هذه الدراسة التي يقدمها د. حسان حلاق لقراء «تاريخ العرب والعالم» دلائل على ما للعلوم المساعدة من أهمية في كتابة البحوث التاريخية.

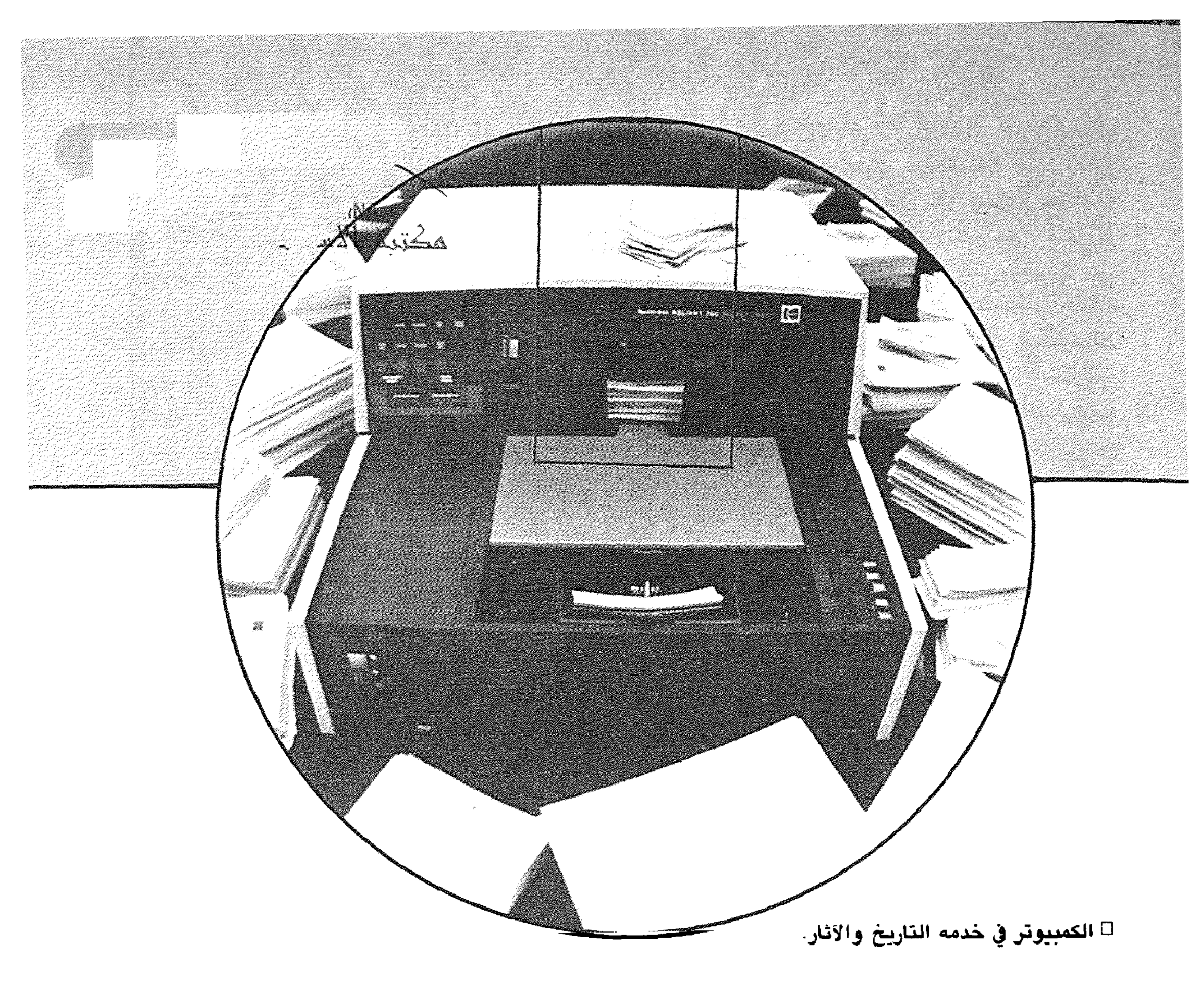
ما هو التاريخ؟ هل التاريخ علم؟



يقول «جوزف هورس» (Joseph Hours) في (Valeur de L'Histoire) «قيمة التاريخ»: إن بين التاريخ والعلوم فارقاً أساسياً يُباعد بينهما حتى المعارضة، فالعلم يبحث في الحوادث الملحوظة، عن المشابهات التي تظهر، ويكشف عن العناصر المشتركة في الوقائع حيث يتعرفها في حقيقتها، فيبحث بعد ذلك عن أسباب تكرار هذه الملامح تكراراً متشابهاً في وسط ظروف مختلفة جداً. فيصوغ لهذا الناتج احتمالات تثبت حقيقتها في ما بعد بالاستدلال العقلي أو بالاختبار. وهكذا ينتهي العلم إلى إثباتات تقرر ميزة عامة أو قوانين وتجتهد في تنسيقها في نظام.

يضيف هورس قائلاً: أما التاريخ فعلى العكس لأنه لا يرتبط بالوقائع التي يضع لها حدوداً، إلا بحكم ما هو موحد بينها. وهذا ما كشف عنه كورنو بقوة لا مثيل لها، ذاهباً إلى حدّ أنه لم يترك للتاريخ كحقل خاص به إلا فضلة «كل ما يرفض بطبيعة أن يخضع للعقل، وكل ما ينزل منزلة ما لا حلّ له في حدود العلاقات الضرورية لوضع نظام». ثم ختم هورس قائلاً: «بلا ريب، إن التاريخ يبحث عن الأسباب التي كانت وراء تتابعها ويجتهد في جعلها مترابطة متسلسلة، يعني يبحث للوصول إلى تفسير يرضى عنه العقل، ولكن صفة العلم تبقى غير متوفرة على حقيقتها».

أما ج. هرنشو (G. Hearnshaw) فيجيب عن سؤال: هل التاريخ علم مستشهداً بأقوال عدد من العلماء والفلاسفة والأدباء، فقد أشار



□ الكمبيوتر في خدمه التاريخ والآثار.

د. ج. ب. بـيـوري (J. B. Bury) (١٨٦١ ــ ١٩٢٧).. وهـو من أشهر مـؤرخي إنجلترا في الربع الأول من القرن العشرين ــ «من أن التاريخ علم لا أكثر ولا أقل». بينما أشار هرنشو إلى أن الفلاسفة الطبيعيين انبروا من ناحية ليثبتوا أن التاريخ دون العلم بكثير، في حين انبرى رجال الأدب ليثبتوا بأن التاريخ هو فوق العلم بكثير. ويذهب رجال الأدب في آرائهم إلى أن التاريخ سواء كان علماً أم غير علم، فهو لا ريب فن من الفنون.

ويرى «هرنشو» بأن التاريخ ــ بما للطبيعة البشرية من خصائص ثابتة، وبما للانسان من تأثير دائم على البيئة الجغرافية ــ يقـوم على أصول تضارع قيمتها على أقل تقديـر، ذرات الكيماوي الغامضة والكترونات الفيزيقي الرواغة. «إن التاريخ يبحث في الفعل وردّ الفعل الصادرين عن إنسان غير متغيّر أصلاً، وعن بيئة غير متغيرة أصلاً، ذلك هو التاريخ». ويضيف بأن التاريخ علم ولكنه ليس علماً كالفلك الذي هو علم معاينة مباشرة، ولا كالكيمياء علم تجربة واختبار، ولكنه علم نقد وتحقيق. ومراحل بحثه الأساسية ثلاث:

١ ــ **مرحلة التجميع**: وهي مرحلة تجميع الوثائق وهذه المرحلة تتطلب مؤرخاً قادراً يملك ملكة فنية عالية، ودراية علمية فائقة بفقه اللغة، وقراءة النقوش والخطوط والرسائل الدبلوماسية..

٢ ــ **مرحلة النقد**: وهي مرحلة يفحص فيها المؤرخ عبارات الوثائق الخطية، والأدلة التاريخية ليتثبت من صحتها وقابليتها للتصديق، وصحة أصلها ودقة روايتها.

٣ ــ **مرحلة التأويل**: وهي من أصعب المراحل لا سيما عند كتابة تاريخ غامض أو كتابة التاريخ الذي يكثر فيه الجهل وسرعة التصديق

وافتراء الكذب، التي يوصف بها من كتبوا عن العصور الوسطى مثلاً، فالتأويل في هذا المجال يحتاج إلى عناية ودقة وتؤدة.

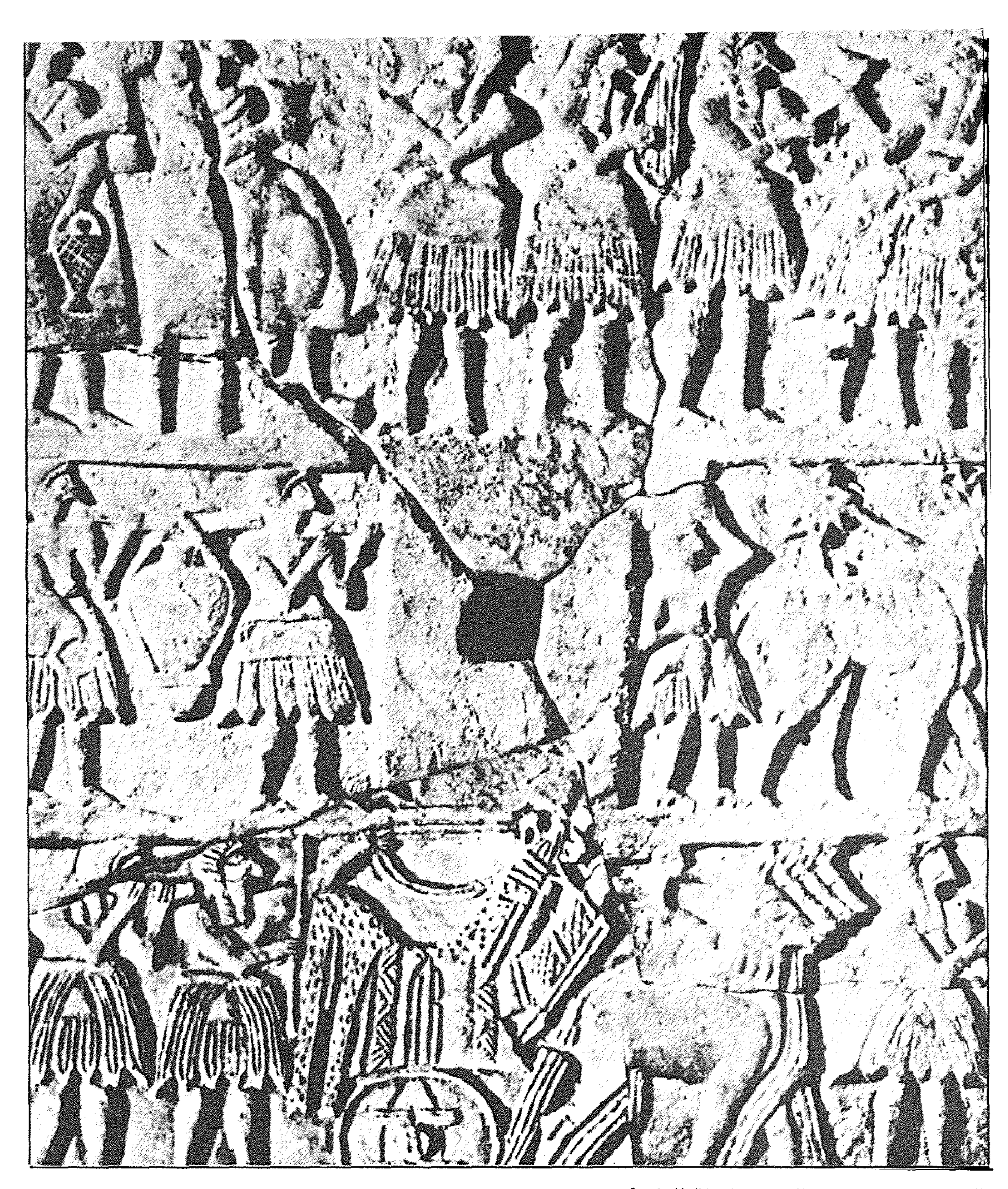
ويرى «إدوارد كار» بأن التاريخ يتكون من مجموعة كاملة من الحقائق المؤكدة التي تكون متوافرة للمؤرخ من خلال الوثائق والنقوش وما إلى ذلك، ويقوم المؤرخ بجمعها ثم ينظمها ويقدمها بالأسلوب الذي يروق له. ونقل قول العالم «اكتون» (Acton) الذي قال: «إن واترلو التي نؤرخها يجب أن ترضي الفرنسيين والانجليز، والألمان والهولنديين بالطريقة نفسها...» وأضاف «كار» أنه في المقام الأول احصل على حقائقك بصورة صحيحة ومن ثم أقحم نفسك في خطر رمال التفسير والتأويل المتحركة، تلك هي الحكمة المطلقة للمدرسة التجريبية والفطرية. إنها تذكّر بقول مأثور للصحافي الليبرالي سي. بي. سكوت (C.P. Scott): «الحقائق مقدسة أما الرأي فهو حر» (Facts are sacred, Opinion is free).

ورأى «كار» بأنه مهما يكن فإن حقائق التاريخ لا تصل إلينا مطلقاً بصورة بحتة لأنها لا توجد ولا يمكن أن توجد. إنها دائماً تنعكس من خلال ذهن المدوّن. ومن المهم «إذا ما تناولنا عملاً تاريخياً فينبغي أن لا يكون اهتمامنا الأول منصبّاً على الحقائق التي يتضمنها وإنما على المؤرخ الذي كتبها». ذلك أن المؤرخ ابن عصره وابن بيئته وفي بعض الأحيان هو ابن لطائفته كما هي الحال في بعض البلدان والمناطق، وابن لحزبه كما هي الحال في بعض البلدان الأخرى، وهو مقيد بهذه الظروف بحكم اتجاهاته وانفعالاته وميوله.

ومن هنا يمكن القول بأن الحقائق التاريخية والوثائق الأصلية قد تختلط مع الاتجاهات الخاصة للمؤرخ، كما أن بعض المؤرخين قد يستخدمون وثائق بين أيديهم تخدم اتجاهاتهم الفكرية، ويغضّون الطرف عن وثائق يملكونها لأنها تدين التيار الذي ينتمون إليه. علماً أن الحكومات والدول تعمد بدورها إلى تشويه التاريخ حين تفرج وزارات الخارجية في بعض البلدان الأوروبية مثلاً عن بعض وثائقها ومراسلاتها السرية، وتمتنع عن الافراج عن بعضها الآخر. بالاضافة إلى ذلك فإن الوثائق المسموح بالاطّلاع عليها قد تشطب منها بعض العبارات أو الأسطر، وهذا كله يساهم مساهمة أساسية في تزوير الحقائق وتشويهها. فالمؤرّخ وإن اعتمد على جميع الوثائق التي وضعت بين يديه، غير أن هذه الوثائق هي بطبيعتها منتقاة ومختارة بأسلوب رسمي من قبل الحكومات والدول (على سبيل المثال وثائق وزارة الخارجية البريطانية .F.O، ووثائق وزارة الخارجية الفرنسية Quai d'orsay). بينما تعتبر مثلاً وثائق وسجلات المحاكم الشرعية أكثر صدقاً من الوثائق السياسية المنتقاة[1].

وحول علاقة التاريخ بالعلم يرى «إدوارد كار» بأن المؤرخين أنفسهم هم الذين يتحاملون على التاريخ بإدخالهم له في إطار «الآداب الانسانية». ورأى أن لا تعارض بين التاريخ والعلم ومما قاله: «إن اعتراضي الرئيسي على رفض تسمية التاريخ علماً هو أن ذلك يبرّر الانشقاق بين ما يسمى «ثقافتين» ويحافظ عليه. وهذا الانشقاق هو أحد مخلّفات ذلك التحامل القديم المستند إلى البنية الطبقية للمجتمع الانجليزي الذي صار من مخلّفات الماضي. وأنا لست مقتنعاً بأن الهوّة التي تفصل المؤرخ عن الجيولوجي أعمق أو أكثر تعذراً من الهوّة التي تفصل الجيولوجي عن الفيزيائي. لكن الطريقة لرأب الانشقاق ليست — في رأيي — تعليم العلم الابتدائي للمؤرخين أو التاريخ الابتدائي للعلماء. إن ذلك طريق مسدود قادنا إليه التفكير المشوّش. إن العلماء أنفسهم لا يتصرفون على هذا النحو، فلم يسبق لي أن سمعت أحداً ينصح المهندسين بحضور دروس ابتدائية في علم النبات. إن العلاج الذي اقترحه هو تحسين مستوى تاريخنا، أي جعله — إذا تجرأت على هذا القول — أكثر علمية، والتشدّد في ما نطلبه من الذين يتولّون هذا العمل.. إن التاريخ موضوع أكثر صعوبة من الكلاسيكيات وأنه يعادل في جديته أيّ علم آخر».

ويمكن القول بأن التاريخ بما يتميز من صفات مرنة، باستطاعته أن يحوي كل العلوم، إذ بإمكان المؤرخ ضمن اختصاصه أن يكون مؤرخاً للشعوب والدول والأحداث وفي الوقت



□ الآثار والنقوش من العلوم المكملة للتاريخ.

نفسه يمكن أن يكون مؤرخاً للعلوم والهندسة والطب والفلك والكيمياء والفيزياء والرياضيات.. وبمعنى آخر فإن التاريخ باستطاعته أن يستوعب مختلف العلوم والآداب وهو الوحيد القادر على احتوائها في قالبه التاريخي المميز. فالملاحظ أن هناك تاريخاً للعلوم كالهندسة والطب مثلاً، ولكن ليس في المقابل هندسة تاريخية أو طب تاريخي إنما هناك تاريخ للطب...

ويرى «لويس جوتشلك» (Louis Gottschalk) في كتابه «كيف نفهم التاريخ؟» (Under Standing History) «من المؤكد أن التاريخ علمي في منهجه، فإن ملايين الحقائق التاريخية يمكن أن تقرر بحيث تقنع غير المختصّين والخبراء على حدٍّ سواء.. فالمنهج التاريخي علمي في حدود، أي إن نتائجه تخضع للتحقيق والاتفاق بين الخبراء وعدم الاتفاق بينهم عن فهم وإدارك، وتدوين

التاريخ أقرب إلى الفن أو الفلسفة أو الجدل أو الدعاية أو الدفاع الخاص. فقد يدعو المؤرخ أحياناً، عن وعي منه، إلى الأخلاق، ويقوم بهذه العملية أحياناً عن غير قصد، وهو في هذه الحالة الثانية صاحب فلسفة.. فالكاتب الذي يظن أنه ليست لديه فلسفة للتاريخ أو الذي يعتقد أنه في معزل عن كل تأثير يخدع نفسه بنفسه، اللهمّ إلا إذا كان يتمتع بصفات لم يحرزها البشر، وهو عند ذاك أدعى إلى خداع الآخرين مما لو كان يعتمد الكذب. والمؤرخون عندما يتطرقون إلى الدفاع عن الموضوعية العلمية للتاريخ، فإنهم في الغالب يعنون قدرة المؤرخ على إثبات حقائق مفردة أو إثبات تسلسل الحوادث. فإن لم يصروا على أن تفسيراتهم الخاصة هي التفسيرات الوحيدة الممكنة الصحيحة، فليس في مقدورهم أن يزعموا بأنهم يتجاوزون المعقول كثيراً في تقييمهم واختيارهم وتوكيدهم وترتيبهم لتلك الحقائق أو التسلسلات. ولما كانت هناك عوامل كثيرة متغيرة تدخل في الأحكام التاريخية فليس المدهش هو اختلاف المؤرخين وإنما هو اتفاقهم كلما اتفقوا».

العلاقات القائمة بين التاريخ والعلوم المساعدة

وفي هذا المجال يمكن أن نطرح موضوع العلاقات القائمة بين التاريخ والدراسات والعلوم الانسانية والاجتماعية. فالتاريخ يتصف في أحد جوانبه بصفات العلوم الاجتماعية، وعلى هذا فإن المؤرخ كعالم اجتماعي أو كعالم إنساني لا يحتاج بالضرورة أن يكون ذا شخصيتين منفصلتين، إذ أنه من اليسير الجمع بينهما في شخص واحدٍ. ولا شك في أن الايجابيات التي تعود على كلٍ من الدراسات الانسانية والعلوم الاجتماعية تزداد أهمية إذا لم يحدث في شخصية المؤرّخ انفصام. فالاختلاف بين العلوم الانسانية والعلوم الاجتماعية يمكن أن يظهر بسهولة، فإن كلاً منهما يعالج موضوع الانسان من حيث هو كائن اجتماعي يتميز بالذكاء والدراية، ولكن العالم الاجتماعي عادة يميل إلى التنبؤ ويلتفت للحاضر والمستقبل، في حين أن العالم الانساني لا يهتم بالحاضر والمستقبل فحسب، بل يهتم بالماضي أيضاً ويحرص على توجيه عنايته إلى هذا الماضي وسبر أغواره. ومهما يكن من أمر فلا بدّ من الاشارة والتأكيد على العلاقة الوثيقة القائمة بين العلوم الانسانية والعلوم الاجتماعية.

أما فيما يختصّ بالعلوم المساعدة للتاريخ، فالعلوم الاجتماعية أحدها، وهناك العلوم الجغرافية والاقتصادية والسياسية، والعلوم العسكرية أيضاً، بالاضافة إلى العلوم البحتة والآداب وفقه اللغة (Philology)، وعلم خصائص الشعوب «الأتنولوجيا» (Ethnology) وعلم الانسان «الأنتروبولوجيا» (Antropology) وكتب علوم الكرونولوجي (Chronology) (التأريخ حسب التسلسل التاريخي)، وسوى ذلك من علوم يمكن أن تقدم مادة مساعدة للتاريخ بما فيه الشعر والمعلّقات الذي قد تصوّر لنا بعض وجوه الحياة السياسية والعسكرية والدينية والصراعات القبلية...

ومن الأهمية بمكان القول إن «علم الآثار» «الأركولوجيا» (Archaeology) و «علم النقوش» (Epigraphy) تعتبر من العلوم المكمِّلة أو المساعدة للتاريخ، ذلك لأن الأثريين والمنقبين يقدّمون عادة للمؤرّخ معلومات ميدانية مستقاة من معاينتهم للأماكن الأثرية ودراسة ظواهرها العمرانية المتعددة. كما أن علماء النميات أوالمنمنمات يقدمون للمؤرّخ معلومات عن النقود التي يكتشفونها ويفكّون رموز كتاباتها، وكذلك الأختام. ولا ينسى في هذا المجال أهمية علماء الأنساب الذين قدموا قواميس للأعلام وجداول للأنساب. كما لا بدّ من الاشارة إلى أهمية المفهرسين الذين وضعوا مؤلفات عدّة ومتنوعة حددوا بموجبها أسماء المؤلفين ومؤلفاتهم، وكذلك المعاجم اللغوية، وعلماء الجغرافية الذين قاموا بتأليف مصنفات جغرافية عن البلدان. والعلوم الاحصائية سواء المتعلقة بأعداد السكان أو بالأوضاع الاقتصادية أو بالأوضاع الاجتماعية، يمكن تكريسها في خدمة التأريخ لا سيما عند الكتابة لبلد ما عن حالة سكانية أو اقتصادية. ومن العلوم المساعدة للتاريخ علم «حساب التواريخ»، وهو العلم الذي يسهّل للمؤرّخ مسألة هامة، وهي مسألة قياس ومقارنة

الزمن وضبطه. فعالم حساب التواريخ يشرح التقاويم والتواريخ العديدة التي كانت مستعملة — أو لا تزال — ويجعل بمقدورنا أن نحوّل التواريخ من تقويم إلى آخر. وهذا أمر على غاية كبرى من الأهمية بالنسبة للمؤرخين فقد تواجه الكثيرين منهم بعض التواريخ الهجرية أو العبرية أو القبطية، ويحرصون على معرفة ما تعادله في التاريخ الميلادي مثلاً. فكتب ومصنفات التقاويم تحلّ هذه المشكلة وتعرّف المؤرّخ إلى أن هذا التاريخ الهجري يعادله ذاك التاريخ الميلادي وهكذا، ومصنفات التقاويم الأجنبية والعربية موجودة في المكتبات العامة ويمكن الاستعانة بها لدى الدارسين والباحثين والطلبة. وفي الفترات الأخيرة أمكن ترتيب هذه التقاويم اعتماداً على الكومبيوتر. ومن المعروف مثلاً أن الدولة العثمانية، اتبعت في بعض فتراتها التاريخية لتواريخ الهجرية والشمسية والميلادية وكذلك كان لها سنة مالية تختلف عن السنة الميلادية المعروفة وكان على الدارس أن يقارن بين هذه التواريخ المختلفة. هذه العلوم جميعها تعتبر من العلوم الهامة والمساعدة والضرورية في كتابة التاريخ. وبالرغم من أن «كولنجوود» (Collingwood) يعتبر أن التاريخ علم مستقلّ غير أن التاريخ منفصل عن بقية العلوم يعتبر علماً مبتوراً ومنقوصاً. ومن هنا ضرورة التأكيد على عملية «التكامل العلمي» الموجودة فعلاً بصورة أو بأخرى بين مختلف العلوم. بل إن المؤرّخ البريطاني «إدوارد فريمن» (E.A. Freemen) يقول بأن المؤرّخ يجب أن يعرف كل شيء: الفلسفة، القانون، المالية، الأجناس، الجغرافيا، علم الانسان، العلوم الطبيعية.. ويضيف متسائلاً: «أوليس المؤرخ معرضاً لأن يصادف في دراسته للماضي، مسائل في الفلسفة والقانون والمالية..؟ وبقدر ما تتعدد الفروع الخاصة في المعارف التي يكون حجة فيها، يكون أكثر استعداداً لعمله الذي اتخذه مهنة له»[٢]. ومن هنا لا بدّ من الاشارة إلى ما للعلوم الاحصائية من أهمية بالغة كعلوم مساعدة في التاريخ، لا سيما وأن الدول المتقدمة استطاعت أن تستخدم هذه العلوم ليس في مجال الاحصاء البحت فحسب، وإنما في مجال الاحصاءات المرتبطة مباشرة بالدراسات التاريخية. ويمكن أن نلخص هذه العلوم المساعدة للتاريخ على النحو التالي[٣]:

١ ـ اللغة وفقه اللغة «الفيلولوجيا» (Philology): إن من واجب المؤرّخ أن يعرف اللغة كلغة يستطيع بواسطتها ترجمة النصوص وتحليلها و.. ثم إن معرفة فقه اللغة مسألة على غاية من الأهمية. بمعنى إدراك المؤرّخ للمعاني والتعابير اللغوية التي كتبت بها النصوص والوثائق لا سيما إذا كانت في تاريخ العصور القديمة والوسيطة والقرون الانتقالية الحديثة إلى القرن التاسع عشر، ذلك أن الكثير من التعابير التي كانت متداولة في السابق هي غيرها اليوم.

ولقد اعتبر حلّ رموز اللغات القديمة من العلوم المساعدة للمؤرّخ على التأريخ للحقب التاريخية المجهولة. فمنذ أن توصل العالِم الفرنسي «جان فرنسوا شامبليون» (J.F. Champollion) عام ١٨٢٢ إلى فك رموز الكتابة الهيروغليفية، فإن الغموض الذي كان يكتنف تاريخ مصر القديم بدأ ينقشع وينحسر، ذلك لأن المؤرخ تمكّن من الاطّلاع على النصوص والنقوش (Inscriptiones) والكتابات على أوراق البردى (Papyri)، مما سهّل المساهمة في كتابة تاريخ مصر القديم. ومنذ أن تمكن العالم البريطاني «السير هنري رولنسن» (S.H. Rawlinson) بين أعوام ١٨٤٧ ـ ١٨٥٠ من حل رموز الكتابة المسمارية لبلاد ما بين النهرين بدأت الدراسات التاريخية والأثرية تظهر تباعاً عن تلك المنطقة وتعمل على إماطة اللثام عن عالم مجهول التاريخ القديم. ومن يودّ التخصّص في حقبة تاريخية معينة عليه إتقان وإلمام باللغات التي كانت سائدة ولا تزال. ذلك أنه من اللافت للنظر أن الكثير من المؤرخين ممّن يدرسون ويعملون على التاريخ اليوناني مثلاً، لا يتقنون ولا يلمّون باليونانية أو اللاتينية، والكثير من المتخصصين في الدراسات القديمة لا يتقنون الفينيقية أو المسمارية أو الهيروغليفية، وهذا قُصُور واضح من قِبَل الجامعات الأجنبية والعربية على السواء. وكم من الدارسين يخيّل إليهم — دون أن يدرسوا اللغة الفرنسية واللغة

اللاتينية المستعملتين في العصور الوسطى ــ أنهم يعرفونهما لأنهم يفهمون اللغة الفرنسية الحديثة أو اللغة اللاتينية الكلاسيكية، ويستبيحون لأنفسهم تحليل وتفسير الوثائق والنصوص التي لا يدركون حقيقة معناها، مما يسيء إلى النص وروحيته. وما ينطبق على هذه اللغات ينطبق أيضاً على اللغة التركية التي كانت تستخدم الحروف العربية، فاللغة التركية ــ اللاتينية (بالحرف اللاتيني) هي غيرها بالحروف العربية من حيث قواعدها وتعابيرها، وإن كانت تلتقي معها في الكثير من التعابير. فمن يتقن التركية المعاصرة ليس بالضرورة قادراً على فهم حقيقة التركية القديمة. علماً أن أحداً لا يستطيع أن ينكر ما للغة التركية (بالحروف العربية) من أهمية في فهم وكتابة تاريخنا الحديث نظراً لوجود العثمانيين في البلدان العربية ما يقارب الأربعمائة سنة (١٥١٦ ــ ١٩١٨).

وما يقال عن تلك اللغات يقال أيضاً عن الخط العربي القديم الذي لا يمكن لغير المتخصصين من قراءته وتفسيره. ولهذا حرص بعض البحّاثة في التاريخ الوسيط والحديث والمعاصر على إصدار قواميس مساعدة، لا تقوم بمهمة الترجمة، بقدر ما تقوم بمهمة تفسير الألفاظ والتعابير التي كانت شائعة في عصر ما. ومنها على سبيل المثال قواميس تاريخية لدوزي (Dozy) وللأب رفائيل نخلة اليسوعي: غرائب اللهجة اللبنانية ــ السورية، كما صدر في السنوات الأخيرة كتاب للدكتور أحمد السعيد سليمان يفسر فيه التعابير الغريبة الواردة في تاريخ الجبرتي، واسم هذا الكتاب ــ القاموس: تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل. وقد تجابه المؤرخ بعض العبارات المختصرة وهو الأسلوب الذي اتبعه الأوائل. وقد واجهت شخصياً وجود مثل هذه الاختصارات أو الادغامات أو التقطيعات أثناء بحثي في سجلات المحكمة الشرعية في بيروت، غير أن الدراسة والعمل المستمر يمكن أن يذللا هذه العقدة. وقد ورد عند ابن سينا في «كتاب الشفاء» مثل هذه الاختصارات، ومن يجهل معنى الاختصارات لا يستطيع فهم البحوث المعتمدة عليها، ومنها على سبيل المثال: مح = محال، مع = معلول، لامحة = لا محالة، لا ينح = لا يخلو، كك = كذلك، المقص = المقصود، ظ = ظاهر، يق = يقول، ح = حينئذ، ومنها أيضاً: ش = شوال، ص = صفر، ر١ = ربيع الأول، ج١ = جمادى الأولى...

٢ ــ علم قراءة الخطوط (Paleography):

وهو من العلوم الأساسية لدراسة أوجه كثيرة من التاريخ، منذ أقدم العصور حتى الأزمنة المتأخرة. ذلك لأنه توجد أنواع متعددة من الخطوط الشرقية والغربية هي بمثابة الطلاسم لكل من يجهل قراءتها. وهذه المعضلة واجهت الكثير من طلبة التاريخ الذين كانوا يعملون على الأرشيف الفرنسي أو البريطاني أو الايطالي في الفترة الممتدة بين القرن السادس عشر إلى القرن الثامن عشر. كما واجهت الطلبة الذين كانوا يعملون على الأرشيف التركي سواء في تركيا أو في البلدان العربية[٤]. فهناك اللغة التركية المكتوبة بخط القيرمة. وهناك الخطوط العربية المتعددة منها: الطومار، النسخي، الرقعة، الثلث، الموفي، الفارسي، المغربي، والغبار. هذا عدا الخطوط ــ الطلاسم العائدة للعهود اليونانية والرومانية والفرعونية...

٣ ــ علم التوثيق (Documentation):

وهو غير علم الوثائق، ولكن يرتبط به بصورة أو بأخرى. وعلم التوثيق هو العلم الذي يهتم بالعمل التوثيقي نفسه وحفظ المعلومات التاريخية وغير التاريخية. وهو علم تجميع واختزان وتنظيم المواد والوثائق المدوّنة لتصبح في متناول الباحث. وهو يعرف أيضاً بفن استخدام المعلومات المتخصصة، بواسطة تقديمها ونسخها واسترجاعها في الوقت المناسب، وذلك بهدف استخدامها في كشف الحقائق ودعم حق من الحقوق أو الاستدلال والبرهان على رأي أو حالة من الحالات.

والحقيقة فإن التوثيق حالة أو علم قديم يعود إلى نشوء الكتابة. ففي بلاد ما بين النهرين عثر على نصوص وسجلات محفوظة على ألواح من الطين، وفي العهد الأشوري تميزت مكتبة «أشور بانيبال» بتنظيم متقدم. وقد عثر في معبد مدينة «نفر» السومرية على خزانة ضمت آلافاً من الألواح الطينية تضمنت نصوصاً علمية وأدبية ودينية. كما عثر في مدينة «أورك» (الوركاء) على

مجموعة من القوائم ــ القواميس اللغوية. كما شهدت مصر وبلاد اليونان والرومان وبلاد المسلمين حركة هامة من حركات التوثيق والفهرسة[٥].

لقد أدرك العالم القديم أهمية التوثيق، فالأولى بعالمنا المعاصر إدراك هذه الأهمية. فمن الأهمية بمكان القول إن المؤرّخ لا يمكنه في وقتنا الحاضر الغوص في عشرات الآلاف من الوثائق والمخطوطات والمصادر والكتب والدوريات، دون أن تكون هذه المستندات محفوظة موثقة لها أرقام ورموز معينة في العقل الألكتروني «الكمبيوتر» (Computer). وعند حاجة الباحث لأيّ مصدر أو مستند يُلقم الكمبيوتر الرقم الخاص بالمصدر، وفي خلال دقائق تستحضر المادة المطلوبة، في حين أن الطريقة التقليدية في البحث عن المصادر واستحضارها قد تحتاج إلى ساعات وأيام. فهناك مكتبات في العالم تضم اليوم الملايين من الكتب والمصادر مثل مكتبة الكونجرس الأميركي ومكتبة موسكو والمكتبة الوطنية في باريس ومركز الوثائق في لندن[٦].. فكيف يمكن للباحث العودة إلى مصادره التي يتوخّاها بالطريقة التقليدية المعروفة في بلادنا؟.

والحقيقة فإن علم التوثيق أصبح اليوم من العلوم الأساسية المساعدة في كتابة التاريخ. وقد ادخلت التقنية الحديثة في علم التوثيق، ومن أهم هذه التقنيات لحفظ المعلومات ثم إعطائها للمؤرخين ولسواهم عند الطلب هي: الميكروفيلم (Microfilm) وهناك أنواع وأشكال عديدة منه، والحاسب الأكتروني (Computer). ويستتبع ذلك وجود أجهزة لقراءة الوثائق والمخطوطات (Reader) أو (Lecteur) ولهذه الأخيرة بدورها أنواع عديدة ولكلٍّ منها ميزة معينة. كما ان أجهزة الفيديو (Video) وأجهزة السلايس (Slice) تعتبر من الأجهزة المساعدة والموصلة للمعلومات التاريخية والأثرية ولسواها من المعلومات.

وتبعاً لذلك فقد قسّم المختصّون الأرشيف[٧] إلى أصناف عديدة منها: الأرشيف التاريخي، الأرشيف الجغرافي، بما فيه أرشيف الخرائط والأطالس، أرشيف رئاسات الجمهورية أو أرشيف الديوان الملكي أو الديوان الأميري أو الامبراطوري، أرشيف رئاسة الوزراء، أرشيف المجالس النيابية ويمكن أن نتدرج تحت الأرشيف السياسي، الأرشيف العسكري، الأرشيف الاقتصادي والاجتماعي، الأرشيف القضائي، الأرشيف الاداري، الأرشيف السري، أرشيف الآداب والفنون، أرشيف المؤسسات والهيئات الدينية، أرشيف الأختام والشعارات والنقود[٨].

هذا ويرتبط بعلم التوثيق علم تنظيم المكتبات الذي يعتبر بدوره من العلوم المساعدة في الكتابة التاريخية وفي سواها من العلوم والفنون. غير أن الأمر اللافت للنظر أن التطور التكنولوجي وصل إلى حد استخدام الكمبيوتر في التوصل إلى تفاصيل وجوه المومياءات. فقد قام فريق من العلماء اليابانيين في الفترة الممتدة بين ١٩٨٣ ــ ١٩٨٤ بإجراء دراسات على عدد من المومياءات من حيث التشريح والبيولوجيا والعظام بالاضافة إلى التصنيف العرقي والجنسي. ومن ثم قام هذا الفريق بتغذية الكمبيوتر بكل المعلومات المتوفرة، وبعد أن هضمها الكمبيوتر وحلّلها إلى جزئياتها فقد تمَّ التوصل إلى تفاصيل وجه صاحبة المومياء وهو وجه سيدة مصرية قديمة عاشت قبل حوالي خمسة آلاف سنة، حيث رسمها الكمبيوتر على الشاشة فظهرت بتفاصيلها الأصلية[٩]. وعلى هذا فإن التكنولوجيا المعاصرة لم يعد لها حدود أو نشاط محدد، بل توسّع نشاطها بحيث بات يشمل التاريخ والآثار.

٤ ــ علم الوثائق أو علم الدبلومات أو علم الشهادات الكتابية (Diplomatics):
وهو من العلوم الأساسية لدراسة التاريخ. والوثائق هي كل الأصول التي تحتوي على معلومات تاريخية. فينبغي على دارس التاريخ أن يتعلم الأسلوب والمصطلحات الخاصة بوثائق العصر الذي يعنيه، ولا بدّ له من أن يعرف نوع الحبر المستعمل في الكتابة وتركيبه، والأقلام التي كتبت فيها، وأنواع الورق المستعمل وخصائصه. وهناك وسائل علمية لفحص الخط والحبر والورق، بواسطة بعض العدسات المكبِّرة والمجهر. وبواسطة التحليل الكيميائي يمكن معرفة عمر الورق. وأحياناً يمكن الاستعانة ببعض أنواع الأشعة الحمراء والبنفسجية لاظهار الخطوط غير

الواضحة أو المطموسة أو المغيّرة عمداً. كما يتصل بدراسة الوثائق دراسة الأختام التي تمهر بها، ومن بين هذه الأختام: أختام الشمع، أختام المعادن (الرصاص، الذهب، النحاس) ومنها المستدير، والمثلث، والبيضاوي...

٥ — علم الرنوك أو الرنكيات (Heraldry): وهو من العلوم المساعدة التي ينبغي عدم إغفال أهميتها: والرنوك هي عبارة عن العلامات المميزة والشعارات التي تظهر على الأختام والدروع والأعلام وعلى الملابس. ولا يدخل في هذا الاطار الكؤوس والسيوف وشعارات النسر والهلال والصليب والأسد.. وقد استخدمت الرنوك في أوروبا في العصور الوسطى، كما استخدمها السلاجقة والأيوبيون والمماليك والعثمانيون. اوالواقع فإن معرفة الباحث والدارس لهذه الرنوك تجعله قادرا على إثبات صحة ما يقع تحت يده من الدروع أو الأسلحة. وفي الوثائق مثلاً قد يمحى الامضاء أو التاريخ، وفي هذه الحال تساعد العلامة الواضحة على الختم — إن وُجدت — في التعرّف على بعض الأمور وسدّ بعض الثغرات.

٦ — علم النميات أو النوميات (Numismatics) وهو علم النقود والمسكوكات (nummi = Coins) وهو من العلوم الهامة في مجال التاريخ[١٠]. فالنقود بما تحمله من شعارات وصور الملوك والأباطرة والشعارات أو الكتابات الدينية، وسنوات سكّها وضربها، والمعدن الذي صنعت منه (فضة، ذهب، نحاس) تقدم للمؤرخين مادة تاريخية قيّمة من الممكن أن تسدّ نقصاً في بعض المعلومات التاريخية. وهذا ينطبق على العملات اليونانية والرومانية والفارسية والعربية والمصرية...، كما ينطبق بالتأكيد على العملات المعاصرة التي كثيراً ما نرى عليها شعارات البلد ورموزه، وصور الملوك والأمراء والرؤساء مع سنيّ الضرب والتداول. وكثير من الدول لا تزال تصدر عملات (وكذا طوابع بريدية) تخليداً لذكرى معينة أو لشخصية سياسية أو ثقافية أو علمية.. ويمكن ان نضيف إلى علم النقود، علم الصنج وهو خاص بدراسة تاريخ المكاييل والأوزان.

٧ — علم البيبلوغرافيا والموسوعات المتخصصة (Bibliography): أصبح علم البيبلوغرافيا علماً قائماً بحدّ ذاته وهو يندرج في إطار العمل التوثيقي (Documentary). ويعتبر من العلوم المساعدة في كتابة التاريخ، فالكتب البيبلوغرافية المتخصصة تجمع بين ثناياها أسماء الأشخاص والكتب والدوريات والمقالات الصادرة هنا وهناك في مجال التاريخ أو الأدب أو السياسة أو العلوم.. وهذه البيبلوغرافيات تخفّف عن الباحث المؤرّخ الكثير من المعاناة. وبالرغم من هذه المساعدة تبقى عملية البحث والتنقيب وزيارة المكتبات مسألة ضرورية للبحث عن مصادر قد تكون أغفلتها البيبلوغرافيا في موضوع تاريخي محدد، ثم تهدف الزيارة لاختيار المصادر التي أوردتها البيبلوغرافيا ذاتها.

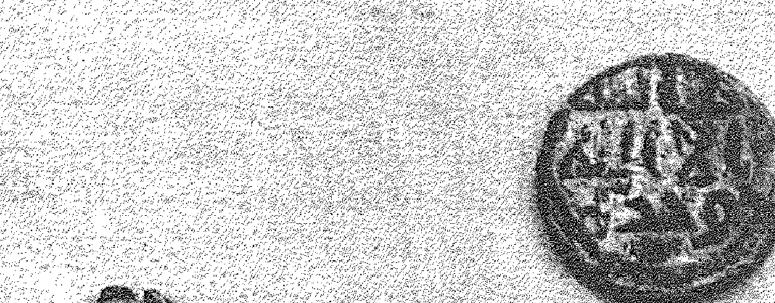
ولا بدّ من الاشارة بأن الأوائل أدركوا أهمية العمل البيبلوغرافي، فقد أصدر اليونان والرومان بعض الموسوعات القانونية والتنظيمية، كما أدرك المسلمون أهمية هذا العمل، فأصدروا خلال تاريخهم الكثير من الكتب البيبلوغرافية المفهرسة ولعلّ أهمها: الفهرست لابن النديم، و «عيون الأنباء في طبقات الأطباء» لابن أبي أصيبعة، و «طبقات الأطباء والحكماء» لابن جلجل، و «كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون»، لحاجي خليفة، و «الروض المعطار في خبر الأقطار» للحميري (موسوعة جغرافية — تاريخية).

كما صدر في التاريخ الحديث والمعاصر بعض الكتب البيبلوغرافية الخاصة بالبلدان أو المدن أو الأعلام ومنها على سبيل المثال: معجم أسماء المدن والقرى اللبنانية وتفسير معانيها للدكتور انيس فريحة، الموسوعة اللبنانية لطوني مفرج، ولخيرالدين الزركلي «الأعلام» (١٣ جزءاً) ولعمر رضا كحالة «معجم المؤلفين» ومعجم خاص عن النساء وهما في أجزاء عديدة. وهناك كتاب خاص عن علماء طرابلس الشام لعبدالله حبيب نوفل واسمه «تراجم علماء طرابلس وأدبائها» وكتاب آخر خاص عن علماء بيروت، لكامل الداعوق وهو تحت عنوان «علماؤنا في بيروت»، بالاضافة إلى كتاب الشيخ عبدالرزاق البيطار «حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر» (٣ أجزاء) وللشيخ

□ النقود والأختام عامل مساعد للمؤرخ في أبحاثه.



















محمد جميل الشطي «أعيان دمشق في القرن الثالث عشر ونصف القرن الرابع عشر». كما أصدرت الجامعة اليسوعية في بيروت عام ١٩٧٨ كتاباً بيبلوغرافياً عن الأب لويس شيخو تحت عنوان «الأب لويس شيخو ما كتبه وما كتب عنه» كما صدر كتاب على النمط نفسه عن «أمين الريحاني» وأين نجده وما كتبه وما كتب عنه. وفي أوائل القرن العشرين أصدر إليان سركيس في مصر كتاباً بيبلوغرافياً هاماً تحت عنوان «معجم المطبوعات العربية والمعربة». وأصدر يوسف أسعد داغر دراسات بيبلوغرافية عن الجامعة اللبنانية هما: «الأصول العربية للدراسات اللبنانية» و «قاموس الصحافة اللبنانية». كما أصدرت الجامعة الأردنية بيبلوغرافيا عن «سجلات المحاكم الشرعية والأوقاف الاسلامية في بلاد الشام» حددت بموجبها أماكنها وأرقامها وتواريخها[11]. وكتاب «أعيان الشيعة» للسيد محسن الأمين، وبيبلوغرافيات عديدة مما لا يتسع المجال لذكرها.

والجدير بالذكر أنه لا يمكن في هذا المجال إغفال أهمية الكتب البيبلوغرافية التي تعرّفنا إلى أماكن وجود المخطوطات وأسمائها. فهناك بيبلوغرافيا خاصة عن مخطوطات ووثائق المكتبة الظاهرية في دمشق، وعن مخطوطات ووثائق أرشيف قصر عابدين والقلعة ومعهد المخطوطات في القاهرة، وهكذا فيما يختصّ بمراكز المخطوطات والوثائق في بغداد وتونس ولندن وباريس وموسكو وواشنطن.. والاطّلاع على هذه البيبلوغرافيات تخفّف كثيراً من معاناة المؤرّخ، إذ باستطاعته إذا احتاج إلى مخطوط أو وثيقة معينة أن يراسل المعهد أو المركز، فيتم تصويرها له إذا لم يكن لديه نيّة السفر إلى الخارج.

إن أحداً لا يستطيع نكران ما للبيبلوغرافيا من أهمية على صعيد مختلف العلوم وبينها التاريخ، كعلم مساعد ومتداخل معه. وهنا أودّ أن أعطي مثالاً واحداً لا أكثر عن أهمية البيبلوغرافيا، وأتساءل: هل يستطيع أيّ باحث أو طالب دراسات عليا مثلاً أن يكتب دراسة متصلة عن الأب لويس شيخو معززة بالمصادر والأسانيد تأخذ حيّزاً هاماً في الكتابة العلمية، دون العودة والاعتماد على كتاب «الأب لويس شيخو ما كتبه وما كتب عنه»؟ حيث يجد الباحث كل ما يريده عن موضوع بحثه، وحيث يعتبر هذا الكتاب الدليل الذي يساعد ويدلّ الباحث إلى أين يذهب وإلى كيف يبحث، وفي أيّ كتاب وفي أية صحيفة.

٨ ــ **الجغرافيا**: إن الارتباط وثيق بين التاريخ والجغرافيا. وقد أدرك العلماء القدامى وبينهم علماء المسلمين هذا الارتباط، فسخروا العلوم الجغرافية في كتابة التاريخ. فللظواهر الجغرافية المختلفة أثر كبير في التاريخ، وعلى سبيل المثال لا الحصر فإن يوليوس قيصر مزج في مذكراته التاريخية التاريخ بالجغرافيا، واستعان بالخرائط الجغرافية وهو ما يعرف اليوم بعلم الخرائط (Cartography) وبواسطتها استطاع أن يحدد مواقع البلدان والمناطق والأنهار والجبال والقبائل. كما وصف الواقع الجغرافي للبلدان التي غزاها ومنها بريطانيا وإيرلندة وسواها. وقد تعرفت أوروبا الحديثة إلى الكثير من جغرافيتها من خلال ما كتبه يوليوس قيصر. وقد بات من المتبع في الكثير من الدراسات التاريخية أن تمهد ليس بمقدمة تاريخية فحسب، ولكن بمقدمة جغرافية، تعرّف القارىء جغرافية البلد موضوع البحث. فالجغرافية تسلط الأضواء وتفسر الكثير من المفاهيم التاريخية. وعلى سبيل المثال فإن الباحث في تاريخ بيروت في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، لا بدّ له من أن يعود إلى خريطة بيروت التقليدية التي نشرتها الدولة العثمانية في عهد السلطان عبدالحميد الثاني. وهي إلى الآن من أفضل الخرائط التراثية التي تحدد مناطق وأحياء وأسواق وجوامع وكنائس بيروت القديمة.

ومن المعلوم أن هناك فرعاً خاصاً في العلوم الجغرافية يعرف باسم «الجغرافيا التاريخية» وهي التي تهتم بدراسة التطور التاريخي وحركات السكان المختلفة. كما توجد فروع جغرافية أخرى منها على سبيل المثال: جغرافية السكان، الجغرافيا الاجتماعية، الجغرافيا الاقتصادية، الجغرافيات السياسية، جغرافية السلالات، الجغرافيا الفلكية والرياضية،

جغرافية التخلّف أو العالم الثالث، جغرافية الأحياء، جغرافية التربة، جغرافية البحار والمحيطات، الجغرافية المائية بالاضافة إلى الجغرافية المناخية، والجيومورفولوجيا (Geomorphology) أي علم التضاريس.

٩ ــ **الاقتصاد**: إن العوامل الاقتصادية من العوامل الفاعلة في رسم سياسات البلدان وفي التحكم بمصائرها. ويقوم الاقتصاد بدور بارز في مجرى تاريخ هذه البلدان. فما من ثورة أو حَدَث أو حرب سجلها التاريخ إلاّ وكان لها أسباب اقتصادية. ذلك أن وجوه الاقتصاد: الزراعة، الصناعة، والتجارة، من العوامل المحرِّكة للتاريخ، وهي عوامل أساسية في قيام الصراعات بين القوى الشعبية الكادحة وبين القوى المستغلة لها. والثورات الماثلة في التاريخ القديم والوسيط والحديث، كانت مطالبها وبالأحرى برامجها الأولى، تحسين المستوى الاقتصادي للفرد وللجماعة، والعمل على تنمية البلد، ومن ثم إقرار الحريات السياسية والاجتماعية والدينية. فدراسة اقتصاد بلد ما مهم جداً في كتابة تاريخه.

١٠ ــ **الآداب والفنون والعمارة**: إن هذه العلوم الانسانية والفنية والهندسية تعتبر مرآة للحياة الثقافية والفنية والعلمية، وهي تصوّر واقع الحال الذي يظهر شعراً أو نثراً ملحمة أو قصة، تعطينا صورة للمجتمع وعاداته وتقاليده ومفاهيمه. فكم من الشعر والقصص أمكن الاستفادة منها في التأريخ الاجتماعي لشعب ما أو لمنطقة ما. وكم من الرسوم والتصاوير والنحت وأنماط العمارة أمكن الاستفادة منها في التأريخ الفني والهندسي لعصور متعددة. ذلك أن أنماط المآذن والكنائس والصوامع كانت تعبّر عن واقع معين ومحدد. وإلا فلماذا بنى الطولونيون مساجد مختلفة في أنماطها عن المماليك؟ ولماذا مساجد مصر مختلفة في أنماطها عن مساجد بلاد الشام أو المغرب أو الأندلس؟. إن لذلك أسباباً تتعلق بالبيئة والمعتقدات والمؤثرات والتمازج الحضاري، وكل ذلك يفيدنا في إطار التأريخ.

وكما أن العمارة تفيد وتساعد التأريخ، فإن المستندات التاريخية تفيد فن العمارة وتاريخ هذا الفن. وعلى سبيل المثال فقد استطعت شخصياً من خلال دراستي لسجلات المحكمة الشرعية في بيروت في القرن التاسع عشر من استخلاص النظام المعماري وهندسة المنازل والدور والعمارة بشكل عام في بيروت العثمانية. وهذا النظام المعماري توصلت إليه من خلال عمليات البيع والشراء للمنازل والدُور التي كان الحاكم الشرعي يدوِّنها بكافة تفصيلاتها مع عدد السلالم والغرف والأقبية[١٢].

إن رسماً للوحة ما أو لصورة ما، قد نستفيد منه في استنتاج بعض المعلومات التاريخية والتوصل إلى معلومات جديدة. فاللوحات التي تعود إلى عهد نابليون بونابرت أو إلى عهد محمد علي باشا أو إلى عهد الملكة اليزابيت أو إلى أيّ عهد من العهود إنما تمدّنا بمعلومات تاريخية ــ اجتماعية وسياسية كالتعرّف إلى أنماط الألبسة والأحذية وأنواع السفن وأشكالها وأنواع الأسلحة والأطعمة وأدوات عديدة مستخدمة في تلك الفترة، لا سيما في اللوحات والرسوم التي تصوّر أسواق باريس والقاهرة ودمشق وبغداد وبيروت وسواها. كما أن للموسيقى دوراً تاريخياً وعاملاً مساعداً من عوامل التأريخ لا يمكن نكرانه. ويكفي أن نعطي في هذا المجالا مثالاً تاريخيّاً حيّاً هو الموسيقي والمغنّي العراقي «زرياب» الذي أوجد مدرسة موسيقية في الأندلس. وكانت موسيقاه تعبّر عن واقع اجتماعي معين وذلك من خلال الموسيقى والموشحات معاً. ثم إن دراسة الصور الفوتوغرافية المأخوذة في القرن التاسع عشر ــ لا سيما من قبل الرحّالة الأجانب ــ يمكن تسخيرها تاريخياً في الاستفادة من المعالم المتنوعة التي ظهرت فيها للأشخاص وللأماكن في الكشف عن مواطن خفية (ألبسة، أحذية، مجوهرات، حفلات زفاف، معالم اندثرت للقرى والمدن). ونظراً لأهمية الصور الفوتوغرافية القديمة، فقد أُقيمت بعض المعارض المتخصصة في أوروبة وبيروت. وقد أظهرت هذه الصور العائدة للقرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين الكثير من الأنماط التراثية. التي يمكن تسخيرها في خدمة التاريخ الاجتماعي. ولعلّ الدارس لصور بيروت القديمة يتأكد من صحة

هذا التفسير، وهذه العلاقة بين الصور والتأريخ[١٣].

١١ ــ الدراسة والمعاينة الميدانية والسفر: إن دراسة الوثائق والمصادر مسألة هامة في عملية التدوين والتأريخ. ولكن يجب أن لا نغفل موضوع العمل الميداني لا سيما إذا كان البحث يتطلب ذلك. فيكون السفر والترحال ضرورياً. فالكتابة مثلاً عن تاريخ قصر من القصور أو مسجد من المساجد أو كنيسة من الكنائس، لا يتطلب قراءة المراجع فحسب والاعتماد عليها، بل يتطلب زيارة ميدانية لرؤية هذا الصرح أو ذاك عن قرب وعن كثب، حيث بالامكان قراءة النصوص المنقوشة على أبوابه وجدرانه. وعوضاً من أن ينقل الباحث نصاً مبتوراً أومنقوصاً، فإذا به مباشرة أمام النصوص والنقوش. أضف إلى ذلك فإن السفر بحد ذاته يوسّع المدارك، ويفتح الآفاق العلمية. وكثير هم العلماء والمؤرخون الذين اكتسبوا علومهم من خلال الأسفار والرحلات. وهناك مجموعة كبرى من الرحّالة الأجانب والعرب والمسلمين أنجزوا مؤلفاتهم التاريخية والجغرافية بعد رحلات قاموا بها في الشرق والغرب على السواء ومنهم على سبيل المثال لا الحصر: روبنسون، جون كارن، عبدالغني النابلسي، عبدالرحمن سامي بك، محمد رفيق ومحمد بهجة الأثري، الشيخ محمد عبدالجواد القاياتي، بالاضافة إلى الورثيلاني، ابن بطوطة، ابن حوقل! ابن جبير، الادريسي، المقدسي...

ومن الأهمية بمكان القول إن الطالب ــ الباحث (لا سيما طلاب الدراسات العليا) لا بدّ من أن يقوم برحلات علمية ــ تبعاً لبحثه ــ إلى مراكز التوثيق في العالم ومنها على سبيل المثال: مركز وثائق وزارة الخارجية البريطانية (.F.O)، مركز وثائق وزارة الخارجية الفرنسية (Quai d'orsay) والمكتبة الوطنية في باريس، ومراكز وثائق أرشيف روما وفلورنسا والبندقية وفينا وبرلين وواشنطن، واستانبول.. بالاضافة إلى مراكز التوثيق في العالم العربي ومنها: وثائق المتحف الوطني في بيروت، وثائق المكتبة الظاهرية في دمشق، وثائق دار المحفوظات المصرية بالقلعة، ووثائق ومخطوطات الجامعة الأميركية في بيروت...

١٢ ــ علم الأجناس والانسانْ (Anthropology) وعلم وصف الشعوب (Ethnography): تعتبر الأنتروبولوجيا والأثنوغرافيا من العلوم الاجتماعية المساعدة في مجال التأريخ، بل إن «هيوغ أتكن» يرى بأن هذا العلم هو أشدّ العلوم الاجتماعية ملاءمة للمؤرخين[١٤]. ذلك لأن علماء الأجناس والمؤرخين يواجهون مشكلات كثيرة مشتركة، وتظهر بينهم في بحثها في بعض الأحيان اختلافات متشابهة في الرأي. ومهما يكن من أمر فإن ما يتوصل إليه علم الأجناس (الانسان) ممكن جداً أن يخدم المؤرخ لاستكمال أبحاثه. وقد اهتم بعض القدامى بالربط بين التأريخ والأنتروبولوجيا ــ بقصد أو بغير قصد ــ فقد حرص يوليوس قيصر أثناء كتابته لمذكراته أن يمدّنا بمعلومات خاصة عن أجناس البشر التي رآها خلال تنقلاته في فترة الحروب التي خاضها. وقد تضمنت تلك المذكرات معلومات عن سلالات الغال والجرمان والبريطانيين ومعلومات عن ثقافاتهم وأوضاعهم. وهو بذلك يكون قد مزج بين التاريخ والأنتروبولوجيا والأثنوغرافيا وأدى خدمة تاريخية واجتماعية. وهذا ما فعله ابن خلدون عندما تفرّد بتاريخ وذكر الجالية الأندلسية وأخبارها وأوضاعها أثناء نزوحها إلى المغرب في القرن السابع الهجري ــ الثالث عشر الميلادي[١٥].

إن علم الانسان يعالج المسائل التاريخية عند تتبعه مجرى التطور البشري، وانتشار البشرية على سطح الأرض، ونشوء الثقافات الانسانية، ثم يرى البعض بأن مناهج علم الآثار وعلم الانسان الفيزيائي (علم التطور الحياتي البيولوجي) هي في أساسها مناهج التاريخ مع تعديلات تتطلبها المعطيات. فعلى سبيل المثال فإن مرحلة علم الإنسان الفيزيائي التي تدور حول تطور البشر والحيوانات العليا هي في جوهرها بحث تاريخي، بل يمكن الاستفادة من هذه البحوث في مجالات التأريخ والتدوين بشكل أساسي. ولا يمكن أن ننسى في هذا المجال ما لعلم الآثار القديمة «الأركولوجيا» (Archaelogy) من أهمية في

□ **الوثائق في خدمة التاريخ، وتجميعها يعتبر أول مرحلة من مراحل البحث التاريخي.**

● **رسالة صحيحة ومختصرة بخط الأمير شكيب ارسلان مرسلة إلى العلّامة محمد جميل بيهم في ٢٧ آب (اغسطس) ١٩٣١ يعالج فيها اهمية الاعلام والعلم والمال في نصرة العالم الإسلامي.**

لوزان ٢٧ اغسطس ١٩٣١

سيدي الاخ الفاضل

تعفو عن ابطائي في الجواب بكثرة الشواغل والشوارد وبعد فاني اكرر شكري العظيم لك على ما كرمتني به وشرفتني بمحض لطفك ومجرد الجميل الذي هو شنشنتك. نعم اولى بنا ان نتعب في اطلاع الاوربيين على افكارنا نحن باللغات التي يتكلمون بها لان صيحتنا نحن بعضنا مع بعض لا يعلمون منها شيئاً وان علم منها بعض الشيء فتكون حكوماتهم التي هي اساطين الاستعمار وحيتان الاكل وطواغيت الظلم والتأثيل [illegible] والمكر فهي تكتم عن شعوبها كل حقيقة من جهة الشرق. فاذا ينبغي ان ندخل على رأيهم العام بالحقائق التي تدأب حكوماتهم بطمسها ويجب بكل ما نقدر عليه تعديل هذا الرأي العام او بعضه ليكون لهم منهم خصماء ولا يتحدوا بازائنا. وهذا ممكن لو قمنا بدعايتنا حق القيام لان في القوم من اذا اقتنع انصف. وقد كنا في ايام قوتنا لا نبالي برأيهم العام ونقول فليقولوا ما شاؤوا ولعنة الله على الكافرين وذلك ان رأيهم العام مهما فسد لم يكن ليؤثر بنا فعلاً اما الآن مع الاسف تحولت الاحوال فصاروا اذا فكروا في شيء عملوه واذا قالوه فعلوه. فنشأ ام ابينا ونفذ قولهم في بلادنا كما في بلادهم.

اما ان توجد مطبعة ما تطبع كتابكم على نفقتها فهذا غير ممكن. لا يبذلون الا فيما يروج عندهم وهذه امور لا تهمهم ولا يتطلعون اليها. مجلتنا نعطيها لجميع باعة الجرائد والمجلات في جنيف وثمنها فرنك واحد ولا نبيع منها في كل الشهر غير عددين او ثلاثة الى خمسة. وهذا هو السبب في كوننا نوزع منها ١٥٠٠ نسخة في اوربة مجاناً حباً بنشر افكارنا وبث ما عندنا فلو تقاضيناهم عليها بدلاً ما قرأوها ولفاتنا الغرض المقصود والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

اخوكم
شكيب
ارسلان

26 Avenue des Alpes Lausanne

التأريخ من حيث اهتمامه بدراسة المراحل التأريخية الطويلة التي قضاها الانسان في اكتشاف القراءة والكتابة معتمداً على الآثار القديمة أي على الأركولوجيا.

١٣ ــ علم السكان أو علم خصائص الشعوب «الأتنولوجيا» (Ethnology): وهذا العلم من العلوم المساعدة والمتصلة بالتاريخ وبالعلوم الاجتماعية بشكل عام. ويتناول هذا العلم عادة أحجام الشعوب وتكويناتها وتوزيعها الجغرافي، والمواليد والوفيات والهجرات.. ويعتمد هذا العلم بصورة أساسية على المصادر الرسمية والاحصاءات الدقيقة الصادرة عن الحكومات والمؤسسات والهيئات الرسدية المحلية والدولية. وقد ازدادت في الفترات الأخيرة إمكانيات استفادة التاريخ من الأتنولوجيا، نظراً لأهميتها وإلقائها الضوء على خلفيات تاريخية اجتماعية هامة. ومنذ القدم حرصت بعض الدول والممالك على الاهتمام بهذا العلم، وقد ظهرت مؤلفات تاريخية في العهد الأول للدولة الإسلامية اهتمت بإحصاء عدد المسلمين وأولادهم وقبائلهم وجنودهم[16]. كما أن من مميزات منهج البحث التاريخي عند هيرودوت، هو في وصفه لشعوب الأمم المتعددة، ووصفه لعاداتهم وتقاليدهم.

وبذلك يمكن القول إن هيرودوت كان صاحب «منهج خصائص الشعوب»(Ethnology).ويعتبر كتابه أول كتاب يتحدث عن شعوب أقاليم الشرق الأدنى القديم. ولما تحدث عن البرابرة مثلاً أورد أنواع مأكولاتهم وعادات زواجهم ولغاتهم وأديانهم(١٧). وللرحالة المؤرخين المسلمين أثر كبير في وضع علوم الانتروبولوجيا والأثنوغرافيا والأثنولوجيا، نظراً لتسجيلهم عادات وتقاليد وثقافات وشعائر وأطعمة وطبقات ونوادر وغرائب وأخلاق الشعوب والمناطق التي زاروها(١٨).

١٤ ــ **علم النفس الاجتماعي**: وهو من العلوم المساعدة أو المتداخلة في التاريخ، ذلك لأن الاعتبارات النفسية تدخل تضميناً وتصريحاً في جميع تفسيرات الفعل الانساني (Action) وردود الفعل (Reaction). ولقد وضع علماء النفس الكثير من النظريات النفسية الاجتماعية، وعلى المؤرخ الباحث الاطّلاع على تلك النظريات. وبالرغم من أن هناك اتفاقاً بأن المؤرخ لن يستعمل كل هذه النظريات في أبحاثه. ولكن إذا لم يكن لمعرفته بها من غرض، فعلى الأقل عليه تجنب استخدام تلك النظريات استخداماً خاطئاً. ومن يطّلع على نظريات بافلوف وواطسن وفرويد أفضل ممّن لا يطّلع عليها، والاطّلاع على نظرية ما لا يعني بالضرورة اعتناقها.

١٥ ــ **العلوم السياسية والدراسات الحقوقية**: وهي من العلوم المرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالتاريخ، وقد حرصت بعض كليات الآداب والعلوم الانسانية في الكثير من الجامعات، على ربط التاريخ بالعلوم السياسية، وبات لزاماً على طالب التاريخ دراسة بعض المواد في العلوم السياسية. وكما أن العلوم السياسية مساعدة للتاريخ في إمداده بالتفسيرات والوقائع السياسية، فإن التاريخ بدوره مفيد للعلوم السياسية في إمداده بالمعلومات وأسباب ونتائج الوقائع التاريخية. ومن الأهمية بمكان الاشارة إلى أن منهج البحث التاريخي المعاصر، لم يعد يعتبر أن الأحداث السياسية، فحسب هي الأساس في التركيب التاريخي. ذلك لأن المنهج التاريخي الحديث لا يعتبر أن التاريخ هو مجرد حروب وثورات ومعارك عسكرية، بل أصبح هذا المنهج يلتزم سَبْر غور أسباب هذه الأحداث من المنطلقات الاقتصادية والاجتماعية. ولا يعني ذلك أيضاً بأن التأريخ الحديث أهمل إهمالاً تاماً الأحداث العسكرية والسياسية، فتلك جزءٌ لا يتجزأ من التاريخ. ولعلّ واقع التاريخ العسكري أصبح أكثر أهمية في ميدان الكليات الحربية والعسكرية.

ومن المعروف أن من ضمن ما يهتم به علم السياسة دراسة المؤسسات السياسية والهيئات الحكومية والنظريات والمعتقدات الأيديولوجية في مختلف البلدان الديمقراطية والشيوعية وأساليب الحكم. كما أن العلاقات الدولية ناحية من النواحي التي يعنى بها علم السياسة. فكل هذه الاهتمامات لعالم السياسة تمتزج مع اهتمامات المؤرّخ. ولا يفصل بين التاريخ الدبلوماسي والعلاقات الدولية ــ إذا أمكن فصلهما تماماً ــ إلا الفترة الزمنية التي يتناولها الباحث. غير أن المؤرخ قد يفيد في هذا الميدان من دراسة أنماط التحليل والمنهجية عند عالم السياسة.

أما الدراسات الحقوقية فلها أيضاً ارتباط وثيق بالتاريخ، ولا يمكن مطلقاً إغفال أهميتها، فالحقوقي يدرس عادة القوانين اليونانية والرومانية القديمة أو الدساتير والتشريعات الانجليزية والفرنسية والأميركية. فهو يستفيد منها من النواحي القانونية وفي تطور القوانين والدساتير، في حين أن المؤرخ يوظف هذه التشريعات لدراسة التطور التاريخي وربطها بالأحداث السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي فرضت وضع هذه التشريعات أو تعديلها أو تطويرها أو إلغائها. ويكفي أن نسوق مثالاً حيّاً عن أهمية الدراسات والمجموعات القانونية كعلوم مساعدة في كتابة التاريخ. فمصادر التاريخ الروماني مثلاً لا تكمن في الكتابات التاريخية أو في الآثار والنقوش والنقود وأوراق البردى فحسب، وإنما تكمن هذه المصادر أيضاً في القوانين والتشريعات الرومانية التي تبين أن لها أهمية بالغة في كتابة التاريخ، ومن بين هذه المجموعات القانونية الرومانية: القانون الروماني، المراسيم والدساتير الامبراطورية، منشورات الحكام، قوانين التعيين، محاضر مجلس (السناتو) الشيوخ، قرارات السناتو، الفتاوى، والتفسيرات القانونية، أحكام وقرارات القناصل

والقضاة، المجموعات القانونية، الموسوعات القانونية، التشريعات[19].

إن الدارس لهذه المجموعات القانونية يدرك مدى أهميتها للمؤرّخ، ذلك أنه لا يمكن مطلقاً فهم التاريخ الروماني وتطور أوضاعه السياسية والعسكرية والاجتماعية والاقتصادية، دون الاعتماد على هذه المجموعات والتشريعات القانونية. فهي عنصر أساسي في كتابة تاريخ الرومان.

وأخيراً فإن علم الاجتماع بشكل عام يعتبر من العلوم المساعدة للتاريخ. وقد جرى البحث التاريخي على بذل اهتمام وفير بالتغيّر الاجتماعي ودراسة المجتمع. وبهذا فإنه يشمل ميدان علم الاجتماع، غير أن قصور المواد التاريخية التي يرجع إليها بعض المؤرخين وجريهم وراء مظاهر التغيّر الاجتماعي، مثل التغيير السياسي والحربي والديني، قد حوّلا اهتمام المؤرخين ـ أو بعضهم ـ عن الاطارات الاجتماعية العامة للمجتمعات الماضية. كما لا بد من الاعتراف بأن بعض المؤرخين الآخرين قد وفّقوا تماماً في توظيف مختلف العلوم المساعدة في كتاباتهم التاريخية، وأيقنوا ضرورة استخدام هذه العلوم في الوقت الذي رأوا فيه أهمية استخدامها. ●

الهوامش

(١) للمزيد من التفصيلات انظر كتابنا: اوقاف المسلمين في بيروت في العهد العثماني ـ سجلات المحكمة الشرعية في بيروت ـ.

(٢) انظر: لانجلو أوسينوبوس: النقد التاريخي (المدخل إلى الدراسات التاريخية) ص٣٠.

(٣) انظر على التوالي: د. حسن عثمان: منهج البحث التاريخي، ص٢٥ ـ ٨٠؛ لانجلو أوسينوبوس، بول ماس، أمانويل كنت: النقد التاريخي، ص٢٧ ـ ٤٠؛ هيوغ اتكن: دراسة التاريخ وعلاقتها بالعلوم الاجتماعية، ص٢٥ ـ ٩٠؛ د. أسد رستم: مصطلح التاريخ، ص٦ ـ ١١.

(٤) لقد واجهتني مشكلة تفسير بعض انواع الخطوط العربية عندما كنت أعمل على سجلات المحكمة الشرعية في بيروت في فترة القرن التاسع عشر، وبالرغم من أن أكثرها مكتوباً باللغة العربية، غير ان بعضها كتب بخط يحتاج إلى دراية خاصة، وبواسطة المران والعمل المستمر استطعت التغلّب على هذه المشكلة.

(٥) للمزيد من التفصيل انظر محاضراتي عن: تاريخ الحضارة، ص١٥ ـ ١٧؛ وتاريخ العلوم والتكنولوجيا، ص٧٢ ـ ٩٤.

(٦) لقد مررت بتجربة علمية حديثة عندما كنت أعدّ درجة دكتوراه دولة في التاريخ. فقد توجهت من بيروت إلى لندن بناء على نصيحة استاذي الأستاذ الدكتور عمر عبدالعزيز عمر (رئيس قسم التاريخ في جامعة الاسكندرية وقتذاك وعميد كلية الآداب في جامعة بيروت العربية حالياً)، وقمت بزيارات عدة وطويلة لمركز الوثائق العامة (Public record office) (P.R.O.) الموجود في ريتشموند (Richmond-Kew Garden) حيث توجد وثائق وزارة الخارجية البريطانية ومراسلات السفراء والقناصل البريطانيين المنتشرين في لبنان والعالم العربي والعالم. وهذه الوثائق يسمح للباحث بالاطّلاع عليها بعد مرور ثلاثين عاماً من تاريخها. والأسلوب المتبع في «مركز الوثائق العامة» (P.R.O.) أسلوب تقني حديث يعتمد أساساً على الكمبيوتر، ومراحل الحصول على الوثائق تمر أولاً بقنوات اولية لا بدّ منها:

١ ـ يمنح الباحث ـ بعد التأكد من أنه طالب أو أستاذ أو باحث ـ بطاقة شخصية باسمه ولها رقم خاص.

٢ ـ يعطى دفتر تعليمات عن المركز وأسلوب البحث والعمل المتبع.

٣ ـ يمنع استعمال أقلام الحبر بتاتاً لئلا يسيء إلى الوثائق، ويسمح له باستخدام أقلام الرصاص.

٤ ـ يمنع من إدخال الكتب أو الملفات أو المستوعبات الورقية.

٥ ـ يعطى الباحث آلة «بليبر» (Bleeper) توضع على سترته، وهي آلة اتصال كالتي يحملها الطبيب في المستشفيات. وهذه الآلة تحمل بدورها رقماً معيناً تدوّن ملاحظة أمام الموظف المختص بأن هذا الرقم هو للباحث فلان ورقم بطاقته كذا.

٦ ـ يجلس الباحث على إحدى مكتبات مركز الوثائق، ويكون لهذه المكتبة عادة رقم معين.

٧ ـ في بدء البحث عن الوثائق هناك دليل وفهرست (Index) يضم أسماء الدول حسب الأحرف الأبجدية ولكل دولة رقم معين، فعلى سبيل المثال: (Syria 89) (Turkey 44) (Lebanon 88) وهكذا.. ويوجد في هذا الفهرس أرقام الملفات التي تضم الوثائق.

٨ ـ بعد الانتهاء من أخذ أرقام الملفات (Files) يتجه إليها باحثاً، حيث تضم بدورها عناوين

الموضوعات (Titre) ولهذه الموضوعات أرقام خاصة.
٩ ــ بعد أخذ أرقام عناوين الموضوعات يتجه الباحث للكمبيوتر لطلبها فيتم الضرب على أزرار الكمبيوتر وفقاً للتالي: رقم بطاقة الباحث، رقم البليبر، رقم المنطقة التي يعمل عليها ورقم البلد ورقم الوثيقة.
١٠ ــ في ثوان يجيب الكمبيوتر فيما إذا كانت الوثائق موجودة أم هي بحوزة باحث آخر. فإذا كانت موجودة يخبرك الكمبيوتر، وفي خلال دقائق ــ وأينما كنت في المكتبة أو الكافيتريا... ــ يضيء نور البليبر ويعطيك صوتاً مستدعياً مشيراً إلى أن باستطاعتك استلام الملفات والوثائق من على الكونتوار والتي تصله من المكان المخصص إلى المكتبة عبر مصعد آلي متحرك. علماً أنه لا يسمح عادة للباحث بطلب أكثر من ثلاثة ملفات دفعة واحدة.
١١ ــ يتناول الباحث هذه الملفات ويقوم بدراستها وينقل منها ما يشاء على بطاقات خاصة، ثم يدوّن ملاحظاته، وأخيراً يتجه إلى مكتب التصوير (Photo-copy) ليصوّر ما يشاء ــ بثمن معين ــ بعد أن يملأ قسيمة باسمه ورقم الملف وعدد الوثائق المطلوب تصويرها. وفي خلال فترة وجيزة تكون الأوراق جاهزة حيث تعطى للباحث مرقمة بأرقام ملفاتها وأرقامها. ثم يضعها الموظف المختص في ملف خاص يأخذه معه الباحث عند انتهاء عمله في المركز في آخر النهار أو في اليوم التالي إذا شاء.
هذا موجز عمّا هو متّبع في «مركز الوثائق العامة» في لندن حيث يقدم خدمات تقنية للمؤرخين ولسواهم اعتماداً على علم التوثيق وأدواته. بينما فرنسا لم تتبع إلى الآن في مكتبتها الوطنية أو مركز وزارة الخارجية الفرنسية مثل هذا الأسلوب الحديث، إنما لا يزال الأسلوب التقليدي هو المتّبع.

(٧) إن كلمة الأرشيف يونانية المصدر من «أرخيون» (Archion) وفي اللاتينية «أركيفوم» (Archivum) وفي الانجليزية والفرنسية (Archives) وفي الألمانية (Archiv) وفي الايطالية (Archivo) وفي الهولندية (Archief) حتى أنه في اللغة العربية يتم تعريبها احياناً بالقول: أرشيف وأرشفة. ولعل أصل كلمة «أرخيون» عربي مشتق من أرخ وورخ.

(٨) انظر: د. محمد قبيسي: علم التوثيق والتقنية الحديثة، ص٣١، ٦٤ ــ ٦٨، ٧٤، ٨٩. انظر ايضاً: تقنية أو «أصول التوثيق» Jacques Chaumier: Les Techniques Documentaires.

(٩) حافظ القباني: مومياءات مصر تدخل العقل الآلي اليابانى، مجلة التضامن (لندن) أول أيلول (سبتمبر) ١٩٨٤، العدد ٧٣، ص٤٧ ــ ٤٩.

(١٠) قام بعض المؤرخين المسلمين والعرب بتأليف كتب خاصة في النقود والموازين والمكاييل ومن بين هؤلاء: المقريزي صاحب كتابي: «شذوذ العقود في ذكر النقود» و «كتاب الأكيال والأوزان الشرعية» كما ألفَّ منصور الكاملي كتاب تحت عنوان «كشف الأسرار العلمية بدار الضرب المصرية». ولمحمد باقر الحسيني مجموعة من الكتب عن النقود منها كتاب: «تطور النقود العربية والاسلامية» وكتاب «العملة الاسلامية في العهد الأتابكي». ولعبدالرحمن فهمي بعض الكتب منها: «صنبح السكة في فجر الاسلام» وكتاب «النقود العربية ماضيها وحاضرها». اما ناصر النقشبندي قله كتب في «الدرهم الاسلامي» وكتاب في «الدينار الاسلامي». هذا وقد صدر لي كتاب عن النقود والدواوين تحت عنوان «تعريب النقود والدواوين في العصر الأموي». عن دار الكتاب اللبناني ــ دار الكتاب المصري، بيروت ــ القاهرة ١٩٧٨.

(١١) تنسجم هذه البيبلوغرافيا مع كتابي «أوقاف المسلمين في بيروت في العهد العثماني» (سجلات المحكمة الشرعية في بيروت).

(١٢) انظر مقالنا: العمارة في العهد العثماني من خلال سجلات المحكمة الشرعية في بيروت. في المجلة العلمية ــ كلية الهندسة المعمارية، جامعة بيروت العربية العربية ــ العدد الأول ١٩٨٥، ص٨٥ ــ ٨٩.

(١٣) في أثناء كتاباتي التاريخية التراثية عن بيروت ولبنان، استفدت كثيراً من صور بيروت القديمة العائدة للقرن التاسع عشر.

(١٤) هيوغ اتكن: دراسة التاريخ وعلاقتها بالعلوم الاجتماعية، ص٢٦. للمزيد من التفصيلات حول الأنتروبولوجيا انظر: د. علي محمود إسلام الفار: الأنتروبولوجيا الاجتماعية ــ الدراسات الحقلية في المجتمعات البدائية والقروية والحضرية ــ دار المعارف ــ مصر ١٩٨٤.

(١٥) للمزيد من التفصيلات عن تاريخ الأنتروبولوجيا انظر: Haddon, A.A. History of Anthropology, 20-25.

(١٦) للمزيد من التفصيلات انظر كتابنا: تعريب النقود والدواوين في العصر الأموي، ص٨٦ ــ ٩٠.

(١٧) انظر محاضراتنا: مذاهب الفكر التاريخي، ص٩ (الجامعة اللبنانية).

(١٨) للمزيد من التفصيلات عن أثر المقدسي والادريسي والبيروني وابن جبير وابن بطوطة وابن خلدون في الدراسات الأنتروبولوجية والأثنوغرافية والأثنولوجية والايكولوجية (علاقة الانسان بالبيئة Ecology)، انظر: د. زكي محمد إسماعيل: الأنتروبولوجيا والفكر الاسلامي، ص٣١ ــ ٥٤.

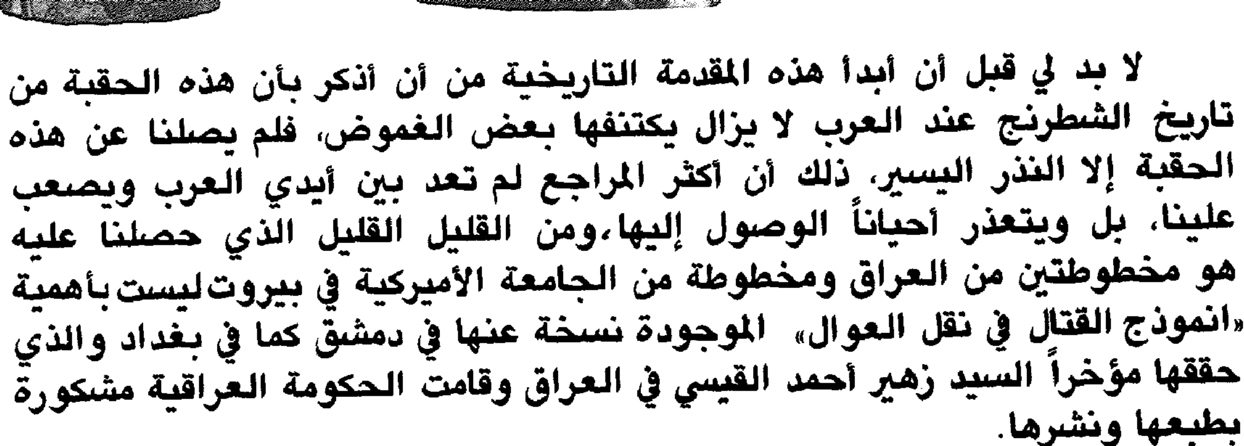
(١٩) للمزيد من التفصيلات الوافية انظر: د. عبداللطيف احمد علي: مصادر التاريخ الروماني، ص٦٩ ــ ١٠٣.

تاريخ الشطرنج عند العرب

■ محمد مـراد سكر







لا بد لي قبل أن أبدأ هذه المقدمة التاريخية من أن أذكر بأن هذه الحقبة من تاريخ الشطرنج عند العرب لا يزال يكتنفها بعض الغموض، فلم يصلنا عن هذه الحقبة إلا النذر اليسير، ذلك أن أكثر المراجع لم تعد بين أيدي العرب ويصعب علينا، بل ويتعذر أحياناً الوصول إليها، ومن القليل القليل الذي حصلنا عليه هو مخطوطتين من العراق ومخطوطة من الجامعة الأميركية في بيروت ليست بأهمية «انموذج القتال في نقل العوال» الموجودة نسخة عنها في دمشق كما في بغداد والذي حققها مؤخراً السيد زهير أحمد القيسي في العراق وقامت الحكومة العراقية مشكورة بطبعها ونشرها.

كـان العصر العباسي العصر الذهبـي لكافة العلوم والفنون، فيه ازدهر الطب والجبـر والهنـدسـة وعلم الحسـاب، والفلك، وسوى ذلك، فلا عجب إذاً، إذا ازدهر الشطرنج أيضاً، بعد أن رعـاه الخلفاء وعـلى رأسهم هرون الرشيد الذي كان أول خليفة من خلفاء بني العباس لعب بالشطرنج وبالنرد وقدّم اللعّـاب وأجـرى عليهم الرزق كمـا يـقـول المسعودي في مروج الذهب ج٤ ص٢٢٥. (علماً بـأن بين الخلفـاء الأمويـين كثير ممن لعبـوا الشطرنج).

لكن، ترى، متى بدأ العرب يعرفون الشطرنج، كيف دخل إلى بلادهم ومتى؟

هل لذلك قصة شبيهة بقصة دخول الشطرنج إلى فارس أيام كسرى؟ أم أن الشطرنج دخل مع الفتوحات الاسلامية، أم أنه دخل مع قوافـل

---

* مقتطفات من المحاضرة التي القاها محمد مراد سكر رئيس الاتحاد اللبناني للشطرنج في تطوان في ١٩٨٥/١٠/٢٠ بمناسبة مهرجان الشطرنج.

التجار قبل ذلك، أم نقله بعض الشعراء الذين كان منهم قلة كثرت أسفارهم مثل امرىء القيس الذي نسب إليه بعضهم أبيات في الشطرنج، أم بعض الصحابة والتابعين والمسلمين الذين أتوا من خارج الجزيرة العربية وسكنوا بغداد والشام، أم سوى ذلك، سؤال حيرني طويلاً فبدأت أستقصي الكتب القديمة التي وقعت بين يدي، ربما أقع على قصة أو طرفة أو خرافة أو أي شيء آخر. ولكني لم أعثر على ضالتي في الكتب العربية إلى أن وقعت صدفة على كتاب باللغة الانكليزية كتبه (R.C. Bell) اسمه: (Board and Table Games from many civilizations)، وفي الكتاب هذا قرأت سرداً تاريخياً موجزاً لكافة الألعاب القديمة، الداما، الورق (الكوتشينة) ألعاب التسلية إلخ.. وتحت باب ألعاب الحرب أتى الكاتب على الشطرنج.

فقد جاء في الصفحة ٥٧ من هذا الكتاب ما يلي:

«خلال السنوات الخمسين التي تلت دخول الشطرنج إلى فارس كما نصّت الشهنامة، انتشر الشطرنج في البلاد العربية وفي البلاط البيزنطي، وذلك على أثر زواج الابن البكر لكسرى أنو شروان من ابنة الامبراطور البيزنطي موريس (والمعروف أن هذا الزواج الذي كان سياسياً، كان يهدف لتحقيق حلم كسرى الكبير بأن يصبح سيد آسيا وأفريقيا) (والمعروف أيضاً حسب الخرافات التي لدينا، أن الشطرنج دخل فارس أيام كسرى هذا وكان بزرجمهر وزيره هو الذي فك رموز الشطرنج التي أتى بها الهنود إليه طالبين إما فك رموزها وإما عدم فرض الجزية ذلك أن الحكم يجب أن يكون بين أيدي أصحاب الحكمة لا القوة)».

ولنتابع ما يذكره الكاتب:

«في سنة ٥٩١م، أصبح كسرى ملكاً للفرس، وبعد مقتل عمه (والد زوجته) أعلن الامبراطور موريس الحرب على الامبراطورية الرومانية واجتاح كما هو معروف آسيا الصغرى، سوريا، مصر، وشمالي أفريقيا، وانتشر الشطرنج خلال ذلك في هذه البلاد، والمعروف أن العرب اقتحموا فارس سنة ٦٤٢م».

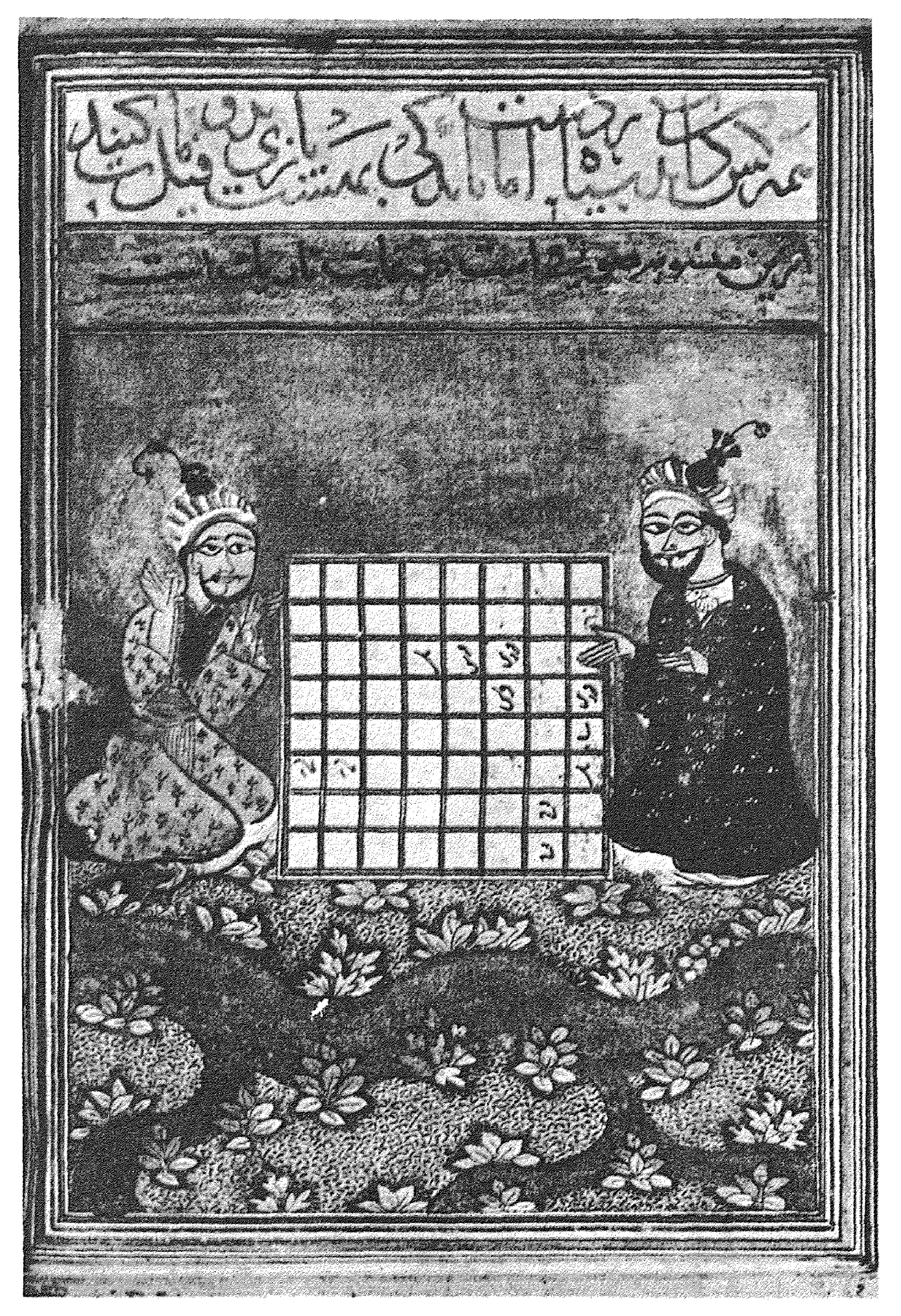
إذا كان ذلك صحيحاً، فهذا يعني أن العرب عرفوا الشطرنج قبل الاسلام، وأن انتشاره تم في العصر البيزنطي، أثناء فتوحاتهم للدول المذكورة أعلاه.

ويتابع الكاتب (Bell) فيقول: «وعلى الأغلب عرفت اليونان الشطرنج حوالي سنة ٦٠٠م، وفي نفس الوقت وصل الشطرنج إلى مكة والمدينة المنورة، وكان للشطرنج القدح المعلى في بلاط الخليفة في دمشق من سنة ٦٦١ إلى ٧٧٤ للميلاد (وبقصد العصر الأموي) وقد كان السراقسي أول من كتب في الشطرنج (الشطرنجي) والمعروف أن السراقسي توفي سنة ٨٩٩م». انتهى كلام الكاتب (R.C. Bell).

ومهما كانت نسبة ذلك من الحقيقة، فالثابت أن العرب هم أول من وضعوا للشطرنج قواعد بقي العالم يعمل بها مدة طويلة، قبل أن يُعَدِّل (بكسر الدال) طريقة تنقل بعض الأحجار ويضع الأسس الثابتة التي نعرفها اليوم.

والثابت أيضاً، تاريخياً، أن العرب هم أول من ألفوا بالشطرنج ولم يعرف العالم شيئاً عن الشطرنج قبل أن يبرع به العرب ويؤلفوا به. حتى الاتحاد السوفياتي (روسيا سابقاً) فالمؤرخون كما يقول كتاب (The Adventure of Chess)، ص٤١ لادوارد لاسكر، يرجعون دخول الشطرنج إلى روسيا إلى القرن الثامن من خلال تجارهم الذين كانوا يشترون بضائعهم من الفولغا (Volga) إلى البحر الكاريبي (Caspian Sea) ليبيعوها في مرافىء فارس، ويحملونها على ظهر الجمال إلى بغداد أكبر سوق إسلامية في ذلك العصر، لذا فقد تعلموا الشطرنج من الفرس ومن العرب بدليل أنه وجد في روسيا عملات عربية تعود إلى القرن الثامن والتاسع (والمعروف أن التجارة بين السلاف والمسلمين كانت تجري قبل السنة ٨٠٠م) وبدليل واضح أيضاً، أن طريقة اللعب التي تبعها الروس آنذاك في لعبهم هي نفسها في آسيا في ذلك الوقت.

ويقول موراي (Murray)، وقد كان اللعب عند العرب، صورة واضحة عن الحرب تملأ المرء إعجاباً بفن العرب في هذه اللعبة، ولكن ترك العرب لها وانتقالها إلى أشخاص كانوا يحاولون ابتذاذ الأموال بها، مما جعلها لا تحمل طابع



□ جولة في الشطرنج ـ من المخطوطة الفارسية القديمة «رسالة في الشطرنج».

الفن بقدر ما تحمل طابع الحيلة والخداع إلى أن أتى لوبيز سنة ١٥٦١ يعيد للشطرنج الطابع القديم، فاستعاد الشطرنج روحه النبيلة القديمة وعاد يمثل الحرب كما كان في السابق. وبعد ركوده في القرن السابع عشر أتى فيليب ستاما (وأظنه فيليب سطام) من مواليد حلب سنة ١٧٣٧م الذي لقبه المؤرخون آخر أبرز اللاعبين العرب، أتى ستاما يعيد مرة أخرى للشطرنج التألق الذي كان يعرفه العرب، ويعيد إليه روح الفروسية التي عرف بها (هذا القول للمؤرخين الأجانب).

إذاً فالطابع العربي هو الذي أحبه الناس في الشطرنج وهو السبب في انتشار الشطرنج في العالم كله.

لن أدخل في تفاصيل النهضة العربية للشطرنج فذلك بحاجة إلى مقال خاص فما يهمنا في هذه العجالة هو الناحية التاريخية فحسب، غير أني أود أن أذكر ما تركه العرب من بصمات على الشطرنج في العالم.

١ ــ لم يكن لاسم «الملك» أي إشكال في الترجمة إلى كل اللغات، فقد كان ترجمة «لكلمة شاه» وكذلك البيدق فلفظه في كل لغات العالم تشير إلى أصله العربي.

٢ ــ **الفرس**: ترجمت إلى معناها ــ حصان، (Springer, Ritter, Cavalier, Knight) إلخ.

٣ ــ **الرخ**، لم يكن معنى الكلمة معروفاً، لذلك بقيت الكلمة كما هي: Roque, Rocco, Rook إلخ.. أما الكلمة الألمانية Turm, Tour, Torre, Castle فقد استعملت بعد أن بدأت الهند بتصدير قطع الشطرنج إلى أوروبا حيث كان الرخ بشكل قلعة يحملها فيل.

٤ ــ **الفرز** (المستشار) نسي الناس معناها فعاشت لمدة طويلة في اسبانيا (Ferz) او (Alferza) ثم تحولت إلى (Fierge) او (Vierge) باللغة الفرنسية القديمة ولكن في النهاية أطلقت عليها أوروبا اسم (Queen)، بالألمانية (Konigin)، بالفرنسية (Dame) أو (Reine)، بالاسبانية (Dama).

٥ ــ كذلك **الفيل** فقد بقيت كما هي باسبانيا، أما في إيطاليا فقد اختلف اللفظ قليلا وأصبح (Al Fierre) ولكن البصمة العربية لا تزال واضحة، الألمان أطلقوا عليه في البدء (Der alte) أي الرجل الكبير ثم لويفر (Laufer) في بريطانيا (Bishop) وهو الاسم الذي اطلقته عليه البرتغال (Bispo)، الافرنسيين (Fou) ولعل ذلك يعود إلى سوء فهم الكلمة العربية فيل كتبت (Fol) وربما كان ذلك عائداً لشكل الفيل كما كان يظهر ببعض الألعاب الشرقية، ذلك أنه على رأس القطعة التي تمثل الفيل كان يظهر ناب الفيل الذي ظنه البعض كأنه عمامة الوزير أو طرطور المجنون.

ويقول موراي ان اسم اللعبة بكل أوروبا ما عدا اسبانيا والبرتغال أتت من الكلمة اللاتينية (Scac) التي هي ترجمة حرفية للكلمة العربية شاه كما كانت تكتب باللاتينية بالقرن التاسع. أما في اسبانيا والبرتغال فقد بقي اسم اللعبة مشتقاً من الكلمة العربية شطرنج ــ في اسبانيا(Ajedrez) و (Xadrez) في البرتغال.

ولا بد في هذا المجال من أن أشير أيضاً إلى القاعدة المعروفة في الشطرنج (Touch move) أو Pièce touchée, Pièce jouée أي أن عليك أن تلعب القطعة الملموسة، التي وضعها العرب ذلك أن العرب كانوا يعتبرون لمس الحجر وكأنه وعد بنقل هذا الحجر، لذلك كانوا يشددون على هذه القاعدة، هكذا تقضي الشهامة وروح الفروسية التي تحلى بها العرب، فالأخلاق الشريفة تقضي بأن يفي الانسان بوعده.

وهناك ترقية البيدق عندما يصل إلى الخانة الثامنة، فقد كان العرب يسمحون فقط بفرزنة البيادق، أي أن يصبح فرزاً فقط أي ملكة، أليس في هذا إشارة إلى السماح عند المسلمين بتعدد الزوجات، وقد بقي الأمر كذلك مدة طويلة من الزمن قبل أن يسمحوا بترقية البيدق إلى أية قطعة يريدها اللاعب.

الترقيم ــ أي تدوين النقلات، فقد كان العرب (العدلى) أول من وضعه، وكان العربي (ستاما) آخر من عدله، واقصد بذلك الترقيم الجبري الذي يعتمده الاتحاد الدولي للشطرنج والذي وضعه اللاعب العربي السوري فيليب ستاما (سطام) المولود في حلب سنة ١٧٣٧.

دخول الشطرنج إلى أوروبا

كثرت الروايات حول هذا الموضوع، فقيل دخلت إلى الأندلس عن طريق افريقيا أثناء الفتوحات الاسلامية، وذلك عن طريق جبل طارق، وانتشرت في اسبانيا ثم انتقلت إلى قصر شارلماني في فرنسا حوالي سنة ٧٦٠م، وقيل أن اللعبة كانت بين الهدايا التي أرسلت إلى شارلماني، عندما كان يود عقد قرانه على الأميرة البيزنطية (Trene)، ولعل أقرب قصة إلى الحقيقة، أن ذلك تم أثناء الحروب الصليبية، فالمعروف أن السلطان صلاح الدين الأيوبي، بسط سلطانه على مصر وسوريا، وكان للشطرنج المركز المحترم في بلاطه، ويعرف الجميع أن المسيحيين تعلموا خلال هذه الحرب، أسرار الطب العربي، ومن الممكن أيضاً أن يكونوا قد تعلموا الشطرنج، ولدى عودتهم نشروا الشطرنج في أنحاء أوروبا، ويقول موراي: انتقل الشطرنج إلى أوروبا من قبل المسلمين عن طريق أفريقيا، أما اسبانيا فقد تم عند الفتح الاسلامي، وإلى إيطاليا من قبل السراقسيين.

ومهما تعددت الروايات فالثابت منها كلها أن العرب والمسلمون خصوصاً، هم الذين نقلوا الشطرنج إلى أوروبا سواء أكان ذلك أثناء فتوحاتهم إلى إسبانيا أو عن طريق حروب صلاح الدين. ذلك أن الشطرنج الذي كان معروفاً في أوروبا ذلك الحين كان طبعةً طبق الأصل عما كان عليه الشطرنج عند العرب.

ولعل أقدم أحجار شطرنجية في العالم، والتي عرفت بأحجار الشطرنج الاسلامية، هي التي اكتشفت بالهند سنة ١٨٥٥م، اكتشفها العالم (AF. Bellasis) أثناء الحفريات التي قام بها لاكتشاف مدينة المنصورة في (Bambra-Ka-Clul) وهي تقع على بعد ٤٧ ميلاً شمالي شرقي حيدر أباد، وكانت مدينة اسلامية هدمها الزلزال قبل وقت قصير (من عصر البيروني ١٠٣٠م) وهذه القطع محفوظة اليوم (كما يقول الكاتب) في المتحف البريطاني **وإلى جانبها وجد زهر طويل قياس** (٢,٥٠ × ١,٦) وآخر مكعب (١,٦٠ × ٢,٥٠ × ٣,٤٠) مع قطع من علبة صغيرة وجدت بجانبهم. وأؤكد هنا على الزهر الذي وجد أمام أحجار الشطرنج في عودة إليه فيما بعد.

المؤلفات

المؤلفات العربية القديمة كثيرة إنما من المؤسف لم يبق منها إلا النذر اليسير وبالعودة إلى الفهرست لابن النديم هذه أسماء أهم الكتب القديمة:

- الشطرنج للعدلي.
- اللطيف في الشطرنج للرازي.
- الكتاب الأول والثاني من الشطرنج للصولي.
- كتاب منصوبات الشطرنج للجلاّج.
- مجموعة من منصوبات الشطرنج للاقليدس.
- كتاب الشطرنج لأبي العباس أحمد بن محمد السرخسي (٢٨٦هـ).

وهناك كتب أخرى للحلاج، وللمنصوبات لمؤلف مجهول الهوية، وإعجاز النصيب فيما في الشطرنج من المناصيب، ونزهة أرباب العقول في الشطونج المنقول، انموذج القتال في نقل العوال الذي ذكرنا عنه في بدء بحثنا هذا وغيرها مما كنا ذكرناه في مقالاتنا في مجلة تاريخ العرب والعالم، أعداد السنة الأولى والثانية، غير أنني أحب أن أضيف إلى هذه المؤلفات القديمة كتاب ستاما (Le Noble jeu des Echecs) الذي ترجم إلى الانكليزية سنة ١٧٤٥م (The Noble Game of Chess) والذي استعمل فيه للمرة الأولى في العالم الطريقة الجبرية التي يعتمدها اليوم الاتحاد الدولي للشطرنج.

وإلى كتابه الذي يعتبر تحفة في النهايات، وفي المسائل الشطرنجية (Les 100 Parties Desesperees).

وقد ترجمت كتبه هذه إلى عدة لغات، فرنسي، انكليزي، ألماني، هولندي، وإيطالي، وقد أعيدت طباعتها مراراً كان آخرها بعد ١٢ عاماً من صدور الطبعة الأولى.

ولا بد أن أذكر أيضاً المحاولتين اللتين قام بهما المهندس المصري جبرائيل نصره بك، وهما التعبئة وكنانة الشطرنج العصري في الأربعينات من هذا العصر.

ولا أريد أن أغمط حق بعض العرب الذين قاموا بمحاولات في هذا الموضوع إلا أن أغلبها كان ترجمة لكتب أجنبية صدرت فاسمحوا لي أن لا أذكرها تفصيلاً ذلك أن من بينها محاولات لا بأس بها إنما ليست كافية في هذا السبيل.

الإسلام والشطرنج

موضوع طالما طلب إلي أن أكتب بشأنه، والموضوع كما تعلمون جميعاً حساس جداً أخذ نقاشاً طويلاً في الماضي ولا يزال يثار من وقت لآخر في بعض الدول العربية والاسلامية.

لقد ترددت كثيراً قبل الخوض في هذا الموضوع فلست بالفقيه ولا من رجال الدين فلماذا أزج نفسي في هذا المأزق ولكني بعد إصرار بعض الأصدقاء رأيت أن أنزلق بهذا المنزلق. خصوصاً بعد أن أثارته بعض الجهات معتبرة الشطرنج محرماً وانسياق البعض مما يؤخر انتشاره الذي نسعى إليه في الاتحاد العربي للشطرنج بين شباب الجيل الصاعد. وقلت في نفسي أمامي كتب الفقه أقرؤها وأضع خلاصة ذلك وأطرحه وليبد كل رأيه ويتخذ القرار الذي يراه.

كما تعلمون حرم بعض الأئمة لعب الشطرنج قياساً على تحريم النرد وأباحه بعضهم ضمن شروط واعتبره البعض مكروهاً.

تعالوا نسترجع معاً ما كتبوه بهذا الشأن.

تحريم النرد جاء في صحيح مسلم وسنن أبي داود وابن ماجه «من لعب بالنرد فقد عصى الله ورسوله». وثبت في الصحيح أنه صلى الله عليه وسلم قال: «من لعب بالنرد شير فهو كمن غمس يده في لحم الخنزير ودمه». «النرد منسوب إلى الملك أردشير أحد ملوك الأسرة الساسانية التي حكمت فارس حتى سقوط دولة بني ساسان عند الفتح الاسلامي» وأحب أن أضيف أن حول هذا الحديث مقالاً وسأعود إلى ذلك فيما بعد.

وعلل الفقهاء تحريم النرد بأنه كالأزلام يعول فيه على ترك الأسباب والاعتماد على الحظ والبخت والاتكال على ما يجيء به القدر، أي أن فيه الكثير من معنى الميسر المبني على الكسب بالحظ والنصيب دون العمل والجد. ولا أريد أن أخوض بموضوع النرد فهو ليس موضوعنا اليوم إنما ذكرت ذلك لأن بعض الفقهاء في تحريمهم الشطرنج إنما فعلوا ذلك قياساً على النرد.

وقال بعضهم الشطرنج من الميسر والله قد حرم الميسر، وقال غيرهم أن اللعب بالنرد والشطرنج حرام، وقيل أيضاً أن النرد والشطرنج إذا لعبا بعوض فالشطرنج شر منها.

لماذا هذا الربط بين النرد والشطرنج وكيف يقيسون الشطرنج على النرد وكلكم يعلم إنه لا شيء يجمع بينهما. فالنرد لعبة الحظ والشطرنج خطط ومعارك على رقعة يتساوى فيها اللاعبان ليس فيها للحظ نصيب. ولن أسترسل في ذلك فأنتم أدرى بهذه الأمور.

إذاً لماذا هذا الربط بين النرد والشطرنج، لماذا لم يربطوا بينه وبين الداما مثلاً، والأخيرة أقرب إلى الشطرنج من النرد وأن يكن الفرق كبيراً بينهما.

إن الفقهاء الذين حرموا الشطرنج علماء أجلاء نحترمهم ونمشي على هديهم ولا يمكن أن يخطئوا إلا إذا كانت المعطيات بين أيديهم خاطئة، صحيح أن بعضهم أباح الشطرنج بشروط واعتبره غيرهم مكروهاً ولكن لماذا كل ذلك.

لذا قمت بالبحث والتدقيق، فتبين لي أن الشطرنج في أوائل العصر الاسلامي كان يلعب على شكلين، الأول خطوة خطوة، كما نعرفه اليوم، والطريقة الثانية كان يلعب بواسطة النرد ومن هنا أتى التحريم بالقياس على لعبة النرد وليس على الداما. هنا بطل عجبي وفهمت الأسباب لهذا الربط.

سيقول قائل منكم، وكيف كان يلعب بالنرد، وإليكم القصة.

المتتبع لتاريخ الشطرنج يعرف أن كثيراً من الألعاب وخصوصاً ألعاب الحرب نشأت في الهند ثم انتقلت إلى كثير من البلدان بعد تحوير



□ جولة في الشطرنج — من المخطوطة الفارسية القديمة «رسالة في الشطرنج».

وتعديل. من هذه الألعاب لعبة سباق تدعى اشتابادا شبيهة بلعبة أخرى تلعب في جنوب الهند تدعى تايام، وكانت الاشتابادا تلعب على رقعة مؤلفة من ٦٤ خانة. وفي حوالي القرن الخامس قبل الميلاد انبثق من هذه اللعبة لعبة أخرى جديدة دعيت شاطورنجا وهي تمثل معركة صغيرة بين أربعة جيوش يقود كلاً منها الراجا، ويتألف كل جيش من ٤ جنود سفينة، حصان، فيل، وقائد لكل معسكر حليف وهكذا تجري المعركة بين حليفين ضد معسكرين آخرين، أي ٢ ضد ٢. يتحكم بتنقل القطع نرد طويل سجل عليه الأرقام ٢ ــ ٣ ــ ٤ ــ و ٥. في كل رمية للنرد، الرقم الظاهر هو الذي يحدد تحركات القطع. الرقم ٢ ــ أي أن على السفينة أن تتحرك. الرقم ٣ يحرك الحصان الرقم ٤ الفيل والرقم ٥ يحرك القائد أي الراجا أو الشاه كما نسميه اليوم وله الخيار في تحريك البيدق مكانه.

إذا كان الزهر يتحكم بتحريك القطع.

وكانت اللعبة تلعب على رهان يوضع في صندوق مشترك. يرمي كل لاعب بالنرد وصاحب الرقم الأعلى يبدأ اللعب. إلى آخره، ولا أريد أن أسترسل في وصف هذه اللعبة وقواعدها. ولكن المراهنات هذه منعتها الديانة الهندوسية فاضطر اللاعبون إلى تعديل هذه اللعبة بإلغاء النرد وإبعاد عنصر الحظ وتبع ذلك تغييرات أخرى أولها دمج قوى الحلفاء وجعلها قوة واحدة، وهكذا أصبح اللعب بين إثنين عوضاً عن أربعة وصار كل لاعب يملك ستة عشر حجراً. وحرف الاسم من شاطورنجا إلى شطرنج. غير أن بعض اللاعبين احتفظ بالنرد وبقي يلعب الشطرنج به. فقد ذكر بالرواية الفرنسية (HUON DE BORDEAUX) المكتوبة سنة ١٢٠٠م عن حوار بين هويون (HUON) وبنت الملك ايغورين الذي كان يلاعبها الشطرنج وكان يريدها لنفسه فاشترطت أن يغلبها بالشطرنج، أية لعبة تريدين، نقلات أم بالزهر، فأجابت بوضوح تام سنلعب دون زهر.

إذاً كان الشطرنج ولغاية القرن الثالث عشر يلعب أحياناً بواسطة الزهر وهذا يفسر أيضاً تحريم الكنيسة للعب الشطرنج في ذلك القرن.

فإذا علمنا أن الشطرنج نقله العرب إلى أوروبا. فهذا يعني بل يدل دلالة واضحة على انه كان يلعب أيضاً بواسطة النرد في أوائل العصر الاسلامي.

وتأكيداً لذلك ففي سنة ١٠٦١م كتب باتروس داميانى كاردينال أوستيا إلى البابا الكسندر الثاني، نحن نعلم أن جنون الزهر أو الشطرنج (لاحظ الربط هنا أيضاً) كان يعتبر معيباً، وهو ممنوع من قبل الكنيسة وهذا يعود إلى أن المسلمين كانوا يلعبون أحياناً الشطرنج بواسطة الزهر ولا شك أن الايطاليين عرفوا ذلك.

وأحب أن أضيف هنا هذا الخبر، الذي زاد من اقتناعي بأن الشطرنج كان يلعب بواسطة الزهر أحياناً بالعصر الاسلامي، فقد اكتشف العالم بلازيس (A.F. BELLASOS) أثناء الحفريات التي قام بها لاكتشاف مدينة المنصورة في (BAMBRA-KA-CLUL) وهي تقع على بعد ٤٧ ميلاً شمالي شرقي حيدرآباد، وكانت **مدينة إسلامية** هدمتها الزلازل قبل وقت قصير من البيروني ١٠٣٠م. اكتشف هذا العالم أحجاراً شطرنجية عرفت بأحجار الشطرنج الإسلامية وإلى جانبها وجد زهر طويل قياس (١,٦ × ٢,٥) مكعب (٣,٤ × ٢,٥ × ١,٦) في علبة صغيرة وجدت بجانبهم ولعلها أقدم أحجار شطرنجية إسلامية كاملة.

ها قد وضح لنا الآن لماذا ربط الفقهاء الشطرنج بالنرد، ذلك أنهم رأوا بعض اللاعبين يلعبونه بواسطة النرد فكان هذا التحريم ممن رأوه. وأبرز دليل على ذلك أن الفقهاء لم يتطرقوا للعبة الداما، وكلنا يعلم أن الداما أقرب للشطرنج من لعبة النرد، والداما لعبة قديمة جداً منذ الفراعنة، ولكن الداما لم تلعب يوماً بواسطة النرد، لذلك لم يأت على ذكرها أحد. فإذا ربطنا إلى ذلك محدودية تنقل الأحجار فالوزير كان يتحرك خطوة خطوة قطرياً، والفيل خطوتين فقط، لعلمنا مقدار الحظ في الشطرنج قديماً إذا لعب بواسطة النرد لذا بنظري، كانت هذه هي الأسباب الجوهرية في فتوى التحريم. أما اليوم وقد انتفت هذه الأسباب، فهل يبقى التحريم قائماً، لهذا عمدنا إلى استشارة علماء الدين في ذلك الخصوص. وقبل أن نتطرق إلى موجز

ما أفادونا به، دعونا نراجع معاً ما كتبه الفقهاء حول الشطرنج من إباحة وتحريم.

جاء في كتاب فقه السنة المجلد الثالث ص ٥١٣ تأليف السيد سابق، قال الحافظ بن حجر العسقلاني:

لم يثبت في تحريمه حديث صحيح ولا حسن، ولهذا اختلف الفقهاء في حكمه فمنهم من حرمه ومنهم من أباحه. فممن حرمه أبو حنيفة ومالك وأحمد، وقال الشافعي وبعض التابعين يكره ولا يحرم. فقد لعبه جماعة من الصحابة ومن لا يحصى من التابعين.

قال ابن قدامة المقدسي الحنبلي في المغني: فأما الشطرنج فهو كالنرد في التحريم، إلا أن النرد آكد منه في التحريم لورود النص فيه أي في تحريمه لكن هذا في معناه فيثبت فيه حكمه قياساً عليه.

وروى عن أبي هريرة وسعيد بن المسيب، وسعيد بن جبير إباحته، واحتجوا بأن الأصل الإباحة ولم يرد بتحريمها نص ولا هي في معنى المنصوص عليه، فتبقى على الإباحة، والذين اباحوه اشترطوا لإباحته الشروط الآتية:

١ — أن لا يشغل عن واجب من واجبات الدين.

٢ — أن لا يخالطه قمار.

٣ — أن لا يصدر أثناء اللعب ما يخالف شرع الله.

(هذا لعمري يمكن أن ينطبق على أية لعبة وليست بالضرورة على الشطرنج).

وجاء في مجلة المنار، المجلد السادس الجزء العاشر سنة ١٩٠٣م ص ٣٧٥ — ٣٧٦ في باب الفتاوي تحت عنوان النرد والشطرنج ونحوهما، والفتوى للإمام محمد رشيد رضا.

جاء عن الشطرنج:

أما حكمه فقد اختلف فيه الفقهاء والأكثرون على أنه غير محرم، أباحه قوم بشرط أن لا يدخل فيه قمار، وأن لا يصد عن ذكر الله وعن الصلاة، وبديهي أن الإكثار من اللعب به وبغيره يسقط المروءة، ولا يرضاه العاقل لنفسه فهو مكروه كراهة شديدة. وقد رووا في تحريمه **احاديث لا يصح منها شيء بل هي إلى الوضع أقرب منها إلى الضعف**، ومنها حديث ملعون من لعب بالشطرنج رواه الديلمي عن أنس ورواه غيره بزيادة، والناظر إليها كآكل لحم الخنزير. وروى من حديث وائلة وإن الله تعالى ينظر في كل يوم ثلاث مئة وستين نظرة، لا ينظر فيها إلى صاحب الشاه (وقد وهموا حين فسروا ذلك بالشطرنج، والحقيقة أن هذه العبارة يقصد بها التزلف للسلطان. أما الشاه بمعنى الملك في الشطرنج فهذه مسألة تأخرت في تطورها التاريخي كما هو معلوم). ورواه الخرائطي بلفظ آخر. وروى البيهقي وابن عساكر عن عمار ابن عمار أن علياً — عليه السلام — مر بقوم يلعبون بالشطرنج فوثب عليهم فقال: اما والله لغير هذا خلقتم ولولا أن تكون سنة (أي عادة) لضربت بها وجوهكم، وروى الثاني عنه أنه قال: لا نسلم على أهل النردشير والشطرنج وروايته ضعيفة، وقد روى ابن أبي شيبة وعبد بن حميد (كلاهما من شيوخ البخاري) وابن أبي الدنيا في ذم الملاهي وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي عن علي — كرم الله وجهه — أنه مر بقوم يلعبون بالشطرنج فقال: ما هذه التماثيل التي انتم عاكفون لأن يمس أحدكم جمراً حتى يطفئه خير له من أن يمسها. وفي الزواجر أن ابن عمر (رضي الله عنهما) سئل عن الشطرنج فقال: هي شر من الميسر، وقال الإمام مالك: هي كالنرد. وروى عن ابن عباس (رضي الله عنهما) أنه ولي مالاً ليتيم فوجدها (أي النرد) في تركة والد اليتيم فأحرقها، ولو كان اللعب بها حلالاً لما جاز إحراقها. وقال النووي في فتاويه: الشطرنج حرام عند أكثر العلماء وكذا عندنا إن فوت به صلاة عن وقتها، أو لعب به على عوض، فإن انتفى ذلك كره عند الشافعي وحرم عند غيره. قال ابن حجر في الزواجر: فإن قلت ما الفرق عندنا بين النرد والشطرنج؟ قلت فرق أئمتنا بأن التعويل في النرد على ما يخرجه الكعبان فهو كالأزلام وفي الشطرنج على الفكر والتأمل وإنه ينفع في تدبير الحرب. ويضيف تحت عنوان: قاعدة في حكم الملاهي.

قاعدة في حكم الملاهي

إن العلة في تحريم كل حرام هي المضرة في الدين أو النفس أو العقل أو العرض أو المال،

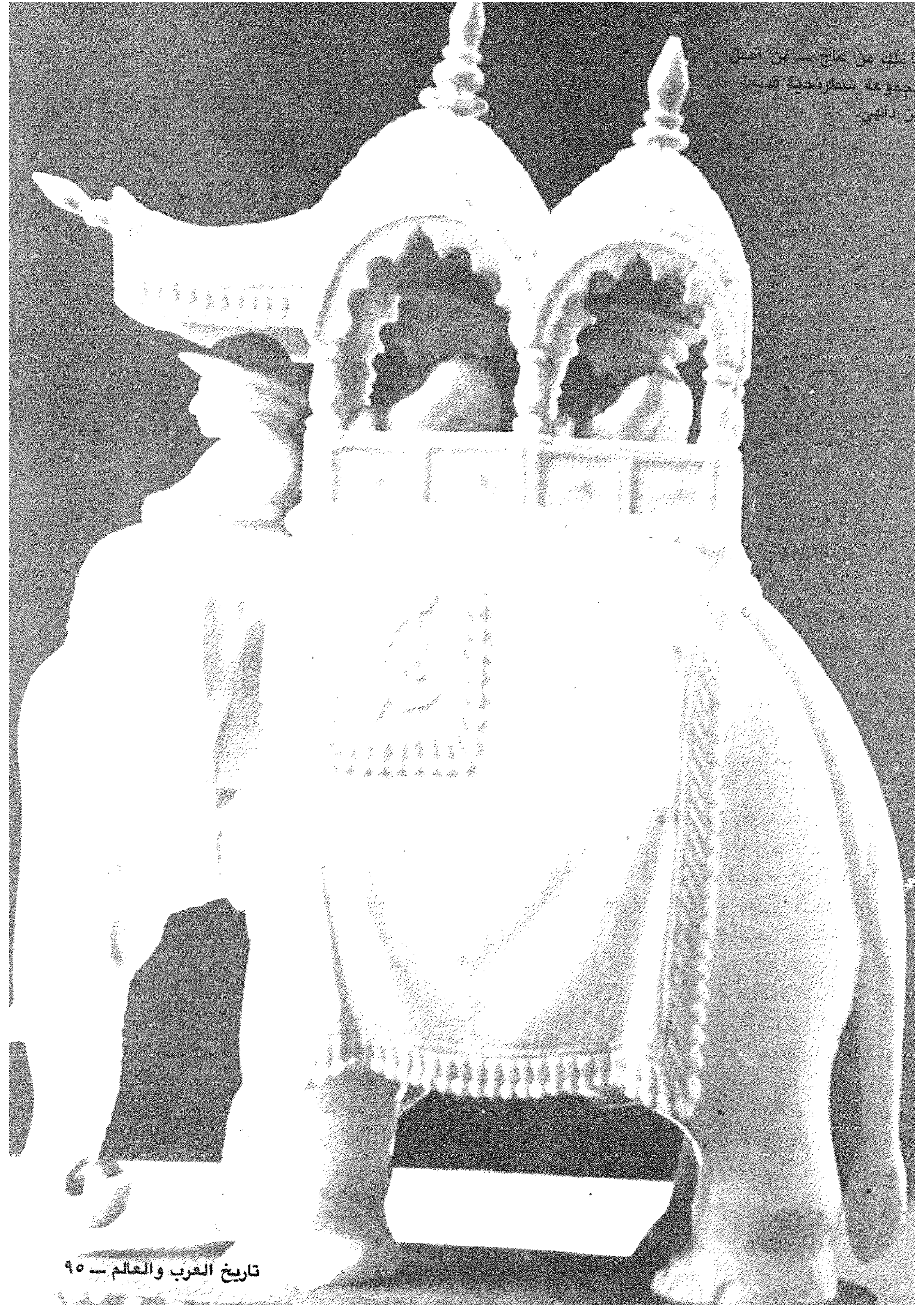
فما لا ضرر فيه لا يحرم وما ورد به في النرد فسببه الأول أنه شبيه بالأزلام التي كانوا يلقونها في الجاهلية لمعرفة الخير والشر فإن المعول في النرد على البخت الذي يخرجه الكعبان (يأخذ كل لاعب كعبين يسمونهما اليوم زهراً)، كما أن المعول في الأزلام على البخت الذي تخرجه القداح. وقد حرم الاستقسام بالأزلام لما فيها من التغرير بالعقل وبناء الأمور على الوهم وإهمال الفكر والنظر ونهى النبي عليه الصلاة والسلام عن النرد لما فيه من معنى الأزلام ومن التذكير بها. وأحب لكل مسلم أن يجتنبه وأن انتفت العلة عنده بأن لا يعتقد بالبخت ولا يبين حكماً إلا على سبب صحيح احتراماً للنهي الصريح.

وأما الشطرنج فقد قالوا أنه لم يكن معروفاً على عهد النبي صلى الله عليه وسلم وذلك من دلائل وضع ما ورد فيه مرفوعاً وأما الآثار فمنها القوي ومنها الضعيف فمن لا يحتج بها فليحكم قاعدة دفع الضرر في كل لعب. وقد قال بعض أئمة الشافعية أن اللعب الذي فيه حساب وفكر يباح وما لا حساب فيه ولا فكر فهو مكروه أي أن لم يضر وإلا فهو حرام. أقول ومن اللعب ما يفيد رياضة البدن وتحريك الدم فيه وينبغي أن يكون محبوباً لا مذموماً ولا مكروهاً، وأي حرج - ليت شعري - على من أنهك بدنه أو عقله التعب من شغله فحاول ترويح نفسه أو ترويض جسمه ببعض الألعاب التي تنفعه ولا تضر غيره ولا تخل بمروءته أقول إن ترك مثل هذه الرياضات يضر أحياناً، فإذا ظن ضرراً تركها وكان الترك مكروهاً، وإذا تحقق الضرر كان الترك حراماً، وإذا لم يكن في الفعل ولا في الترك ضرر فالفعل مباح، ما لم يخل بالمروءة كانكباب أهل الهيئات ورجال العلم والأحكام على اللعب في بيوت اللهو (القهاوي) فإن ذلك مكروه شرعاً وعقلاً بلا نزاع، والله أعلم وأحكم إليه المرجع والمصير.

وجاء في كتاب فتاوي الإمام محمد رشيد رضا تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد ص ١١٦٥:
السؤال: موجزه - نادي الموظفين فيه غرفة للهو واللعب بالنردشير (الطاولة) والشطرنج والورق (الكوتشينة) وهي مفصولة عن النادي الخ.. هل حرام أو حلال؟ الجواب: من اعتقد أن عملاً من الأعمال حرام وجب عليه تركه البتة، إلا لعذر شرعي كالضرورة التي تبيح المحرم لذاته كأكل الميتة، والحاجة التي تبيح المحرم لعارض كرؤية الطبيب ما تحرم رؤيته من بدن المرأة أو الرجل، وإذا زال العذر عاد حكم التحريم كما كان - وليست مجاملة أهل الكتاب ولا المسلمين من الأعذار التي تبيح المحرمات. ومن توهم أن التهاون بأحكام الدين من أسباب الترقي، فقد انقلبت الحقيقة في نظره إلى ضدها بل الإسراع إلى تغيير شعائر الأمة وآدابها وعاداتها التي تعد من مقوماتها أو مشخصاتها هو الذي يحل روابطها ويمزق نسيج وحدتها، فلا ينبغي لعاقل أن يتهاون في المحافظة على ما ذكر، بل ينبغي مراعاة التدريج في ترك العادات الضارة إذا فشت في الأمة وصارت تعد من مميزاتها، فهذا أول ما يجب التفكر فيه والاعتبار به في هذا المقام وهو مما يغفل عنه الناس على أن المجاملة لا تنحصر في اللعب بما هو محرم ولا بما هو مباح أيضاً، ثم أن في مسألة اللعب بحثين أحدهما. هل الألعاب المذكورة في السؤال محرمة قطعاً وهي من الميسر أم لا؟ وثانيهما - هل الدخول إلى حجرة الخطابة من النادي لسماع شيء من العلم النافع يعد محرماً لوجود حجرة فيها تلك الألعاب عند من يرى تحريمها؟.

أما اللعب بالنرد فالجمهور على تحريمه، إلا أن أبا أسحق المروزي قال: يكره ولا يحرم، وهو محجوج بحديث أبي موسى مرفوعاً في صحيح مسلم وسنن أبي داود وابن ماجه. (من لعب بالنرد فقد عصى الله ورسوله) وعللوا ذلك بأنه كالأزلام يعول فيه على ترك الأسباب والاعتماد على الحظ والبخت، فهو يضر بذلك ويغري بالكسل والاتكال على ما يجيء به القدر، أي فيه معنى الميسر المبني على الكسب بالحظ والنصيب دون العمل والجد، وما أشد إفساد هذا في الأمم؟ وما أبعده عن الإسلام الذي يهدي إلى الجد والسعي والعمل، ولا يمكن التقصي من تحريم لعب النرد إلا إذا ثبت أن سبب النهي عنه، أنهم كانوا يلعبون به على مال وأنه حرم لذلك، وليس عندنا نص في ذلك، وهو لا يكون من الميسر حقيقة إلا إذا كان اللعب على مال.

وأما الشطرنج، فالأكثرون على أنه غير محرم



ملك من عاج ... من أصل
جموعة شطرنجية قديمة
ن دلهي

ومنهم الشافعية. قال الشافعي: إنه لهو يشبه الباطل أكرهه ولا يتبين لي تحريمه. وقال النووي: إن أكثر العلماء على تحريمه وأنه مكروه عند الشافعي، أي تنزيهاً، واشترط لتحريمه أن يكون على عوض أو يفوت على اللاعب الصلاة اشتغالاً به عنها. ولا يوجد حديث يحتج به ناطق بتحريمه، وكل ما لا نص من الشارع على تحريمه فهو مباح لذاته إذا لم يكن ضاراً واستعمل فيما يضر فإن ترتب على فعل مباح حرام، حرم لهذا العارض لا مطلقاً كان يترك اللاعب بالشطرنج ما يجب عليه لله أو لعياله مثلاً. ويدخل في ذلك اللعب بالورق، فإنه لا نص فيه من الشارع! لكن قال بحرمته بعض الشافعية، وهؤلاء قد جعلوا للعب قاعدة، فقالوا أنه يحل منها ما فيه حساب وتفكر يشحذ الذهن كالشطرنج دون ما كان كالنرد أو كان من العبث. والحق أنه لا يحرم إلا ما كان ضاراً كما تقدم آنفاً. ولا شك في كراهة الانهماك في اللعب والاسراف فيه. وأما حضور الخطب والمحاضرات العلمية والأدبية في النادي فلا وجه لتحريمها بحجة أن في النادي حجرة يلعب فيها محرم لأن الحرمة إنما هي على اللاعب وعلى من يراه ولا ينكر عليه، وكذا يباح دخول اي مكان من النادي ليس فيه منكر، وقد يستحب إذا كان فيه فائدة كموادة الأصدقاء ومجاملتهم.

وجاء في كتاب أنموذج القتال في نقل العوال لابن حجلة التلمساني ص ٣٩:

قال صاحب البيان لابن عذارى المراكشي وتمامة، الشطرنج موضوع على تعلم تدبير الحرب، وربما يتعلم الانسان بذلك وكل سبب يتعلم به أمر الحرب والقتال كان مباحاً، بدليل ما روى عن عائشة رضي الله عنها وهي بنت أبي بكر الصديق، أنها قالت: مررت ورسول الله صلى الله عليه وسلم بقوم من الحبشة يلعبون بالحراب، فوقف رسول الله صلى الله عليه وسلم ينظر إليهم ووقفت خلفه.

وقال شارح مشارق الأنوار: وقد رخص بعضهم فيه لأنه قد يعتبر به في أمر الحرب وكيدة العدو، ولكن بثلاثة شرائط، أن لا يقامر به، ولا يؤخر الصلاة عن وقتها، وأن يحفظ لسانه عن الخنا والفحش، فإن فعل شيئاً منها فهو، ساقط المروءة مردود الشهادة.

وسئل المزني رضي الله عنه: (وهو تلميذ الشافعي وله كتاب المختصر الذي يضم خلاصة الفقه الشافعي).

أقول: سئل المزني عن المتلاعبين بالشطرنج فقد قال: إذا سلمت السنتهما من الفحش والعدوان، وصلاتهما من السهو والنسيان، كانت أدباً بين الأخوان.

يقول الامام الشافعي، وكان لاعباً ماهراً في الشطرنج، فقد كان يلعب استدباراً (أي دون أن يرى الرقعة) إنه لهو يشبه الباطل أكرهه ولا يتبين لي تحريمه.

وروى أحمد البيهقي وهو محدث وفقيه شافعي في سننه من كتاب الشهادات قال: أخبرنا ابو عبدالله الحافظ (محدث ثقة) قال: سمعت أبا العباس محمد بن يعقوب يقول: سمعت الربيع بن سليمان (صاحب الشافعي وراوي كتبه وأول من أملى الحديث بجامع ابن طولون توفي سنة ٢٧٠هـ ــ ٨٨٤م) يقول سمعت الشافعي يقول: لعب سعيد بن جبير (تابعي ٤٥ ــ ٩٥هـ) بالشطرنج من وراء ظهره، فكان يقول بأي شيء أدفع؟ قال بكذا، فيقول ادفع بكذا.

وبالاسناد المذكور إلى الشافعي قال: كان محمد بن سيرين (تابعي) وهشام ابن عروة (تابعي) من أئمة الحديث، يلعبان بالشطرنج استدباراً.

وروى الشيخ أبو عبدالله محمد بن شاكر القطان في مصنفه فضائل الشافعي، أن الشافعي لم يكن يرى بأساً بها، وكان يلعب استدابارأ.

قال القاضي الماوردي (فقيه شافعي توفي سنة ٤٥٠هـ ــ ١٠٥٨م) رحمه الله في الحاوي. استدل من أباحها وحللها بانتشارها في الصحابة والتابعين إقراراً عليها وعملاً بها. وروى الخصيب مولى بن يسار (٣٤ ــ ١٠٧هـ) مولى ميمونة أم المؤمنين وأحد الفقهاء السبعة في المدينة وهو عالم ثقة كثير الحديث ــ قال: كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يمر بنا ونحن نلعب الشطرنج فيسلم علينا ولا ينهانا.

وروى الضحاك بن درهم (والأخير محدث ثقة، فقيه تابعي معروف) قال: رأيت الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنهما، مر

بقوم يلعبون بالشطرنج فقال: ارفع ذا وضع ذا.

وروى أبو راشد (تابعي نقل كثيراً من الأحاديث عن أبي هريرة) قال: رأيت أبا هريرة (صحابي محدث) يدعو فلاناً له فيلاعبه الشطرنج.

وروى عن عبدالله بن عباس (ابن عم النبي ومن رواة الحديث) أنه كان يحسن الشطرنج ويلعب بها.

فهؤلاء من الصحابة أقروا عليها ولعبوا بها.

وأما التابعون، فروى يحيى أن سعيد بن المسيب (١٣ ــ ٩٤هـ) سيد التابعين وأحد الفقهاء السبعة في المدينة ــ كان يلعب بها.

وروى عن سعيد بن جبير (تابعي) أنه كان يلعب بها استدباراً، قال: كان يوليها ظهره ويقول للغلام: بماذا ادفع فيقول بكذا فيقول أنت بكذا.

وروى الزهري (توفي ٧٤١ م) أن علي بن الحسين (أي الامام زين العابدين ابن الحسين بن علي بن أبي طالب) كان يلاعب ابناً له بالشطرنج.

وروى أبو هريرة قال: رأيت الشعبي (تابعي جليل) يلعب بالشطرنج مع العرفاء وروى أن محمد بن سيرين كان يلعب بالشطرنج.

وهناك الكثير الكثير من الصحابة والتابعين لا يحصى عددهم كانوا يلعبون الشطرنج. ويتابع القاضي الماوردي في الحاوي:

اختلف الفقهاء فيه على ثلاثة مذاهب، أحدها وهو مذهب مالك، أنها حرام والثاني وهو مذهب أبي حنيفة، أنها مكروهة كراهة تغليظ يوجب المنع وأن لم تبلغ مبلغ التحريم، والثالث وهو مذهب الشافعي أنها ليست بمحرمة كما قال مالك ولا مغلظة الكراهة كما قال أبو حنيفة ثم قال وإن كرهنا ذلك. انتهى كلام الحاوي.

الموجز

بعد هذا السرد لكل ما وقع بين يدي من أقوال الفقهاء قديمهم وحديثهم بخصوص الشطرنج وبعد الاسترشاد بكتب الفقه وآراء رجال الدين الذين استشرتهم اسمحوا لي أن أوجز كل ذلك فيما يلي:

كان المفهوم عند الجميع أن الشطرنج لم يكن معروفاً أيام الرسول عليه السلام، وقد رأينا خلال بحثنا هذا أسماء كثير من الصحابة ممن كانوا يلعبون الشطرنج بل ومنهم من كان يتقنه مثل سعيد بن جبير (سلعب استدباراً) الحسين بن علي بن أبي طالب أبا هريرة، عبدالله بن العباس، عبدالله الزبير وغيرهم. وهذا يدل على أن الشطرنج كان موجوداً أيام الرسول عليه الصلاة والسلام. أضف إلى ذلك أني عثرت في بعض الكتب القديمة على قصيدة لامرىء القيس مطلعها: لمن طلل يقول فيها بعد وصف حبيبته:

ولاعبتها الشطرنج خيلي ترادفت
ورخى عليها دار بالشاه بالعجل

وهناك أبيات أخرى لا مجال لذكرها الآن، فإذا صحت هذه الرواية فهذا يعني أن الشطرنج كان معروفاً بالجزيرة العربية، وقد يكون على نطاق ضيق وليس بمستبعد أن يكون امرؤ القيس من لاعبي الشطرنج وهو الذي كان كثير الأسفار. المهم نستخلص من كل ذلك ما يلي:

١ ــ ليس هناك حديث واحد صحيح ذكر فيه الشطرنج صراحة.

٢ ــ لذلك غلب على ظن المؤرخين والمحدثين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يعرف الشطرنج لا بصورته النردية ولا خطوة خطوة.

٣ ــ من المرجح أن الأحاديث التي ذكر فيها النرد كانت خاصة به وحده، شاملة لتلك اللعبة المعروفة.

٤ ــ كل لفظ ذكر بجانب النرد قبله أو بعده فهو مقحم إقحاماً، لا سيما الحديث المشتمل على سجع، من لعب النردشير فهو كمن غمس يده في لحم الخنزير ودمه، فقد كانت رواية الحديث هذه متوقفة عند قوله خنزير حتى يتوافق السجع بين النردشير والخنزير ومن هنا وهم الذين ظنوا أن الشطرنج صورة من صور النرد الذي سمي في هذا الحديث بالنردشير آخذاً من كلمتين كلتاهما فارسية، ويزيدنا اقتناعاً بذلك أن العبارة المدرجة على هذا الحديث المسجوع يبدو معنى إضافتها بوضوح عندما قال ودمه. وعلى كل حال فإن أحداً من المحدثين لم يصحح هذا الحديث ولم يؤكد نظافة إسناده.



□ الملك لويس الحادي عشر على اليمين يلعب الشطرنج مع احد افراد حاشيته

٥ ــ إن مراجعتنا لأطوار لعبة الشطرنج في الأماكن التي عرفت بها تاريخياً، تميط اللثام عن حقيقة الاختلاط الذي وقع بين النرد من ناحية والشطرنج من ناحية أخرى إلى حد الايقاع في اللبس عند الذين أتيح لهم أن يطلعوا على الروايات بهذا الشأن، صحيحة أو موضوعة حتى ظن بعضهم أن كلًا منهما يؤدي مؤدي الآخر. ولم يكن هذا مستغرباً من محدثينا ولا من فقهائنا، لأن الروح التي هيمنت عليهم جميعاً كانت تملي على الواحد منهم أن يتجافى ما استطاع عن اللهو والذي يقوم على شبهة من شبهات الميسر والقمار.

٦ ــ من المعلوم أن روح الشريعة تشجيع المؤمنين على اغتنام الوقت فيما يفيد والامتناع عن قتله في الألعاب التي لا تنفع المؤمن في معاشه ولا لمعاده. فكان طبيعياً أن يتحرج فقهاؤنا من لعبة الشطرنج على ما ورد التصريح فيه (فيما صح من الروايات) محرمة اللعب بالنرد، سواء أكان في هذا النرد عوض أو مقابل أو رهان، أم كان من قبيل التسلية لأن الأصل في هذا الشأن أن يقصد المؤمن نية خالصة حتى عندما يرفه عن نفسه، فلما أضيفت إلى النرد وإلى ما يشبهه في رأيهم من لعبة الشطرنج احتمالات العوض أو المراهنة، ادخلوا ذلك ورعاً في باب الميسر والقمار، مع أن شيئاً من معناهما لا يظهر في هذه اللعبة الذكية التي تطورت كثيراً ولم تكن في البداية قائمة على أساس الحظ وإنما ابتدأت آنفاً بشكل تمرين للذهن ودربة للعقل والنفس والأعصاب.

٧ ــ لو فرض أن في إحدى صور الشطرنج العالمية التي وصل العلم بها إلى الصحابة أو التابعين أو رجال الفقه لدى حركة التشريع الأولى ــ لو فرض أن في إحدى صوره التاريخية احتمالاً لمراهنة أو عوض أو محاولة للكسب بطريق الانتظار المحرم شرعاً، فإن ما يحرم حينئذ ليس الشطرنج لذاته ولكن تلك المعاني والصور التي أدرجت عليه، وأقحمت فيه، فنقول أنه مباح لذاته حسب الأصل وإنما المحرم ما اقترن به ولم يكن من أصل هذه اللعبة الذكية.

٨ ــ إن المؤرخين للألعاب الذهنية ونظائرها (حتى القائمة على الحظ) عندما استعرضوا تاريخ الشطرنج، أجمعوا على أن هذه اللعبة انفردت منذ البداية بأنها أكبر الألعاب نصيباً وأشدها تفلتاً من ترددية الحظ، التي لا يعلم مآلها سلباً أو إيجاباً عند النتيجة.

٩ ــ إن التسرع بتحريم المباح، كالتسرع في إباحة الحرام، كلاهما خطيئة لا يسمح الشرع بالتجرؤ عليها، لأن الذي يحرم هو الله عز وجل، أما الاباحة فشأن أكده الأنبياء وبصورة خاصة خاتمهم محمد صلوات الله عليه، على أنه منحة من الله للبشر عندما لا يجدون. نصاً دالاً على الحرمة دلالة قطعية، ومثل هذه الدلالة لا تتوافر إلا من صريح الكتاب أو صحيح السنة أو إجماع السلف الصالح، ولا نملك شيئاً ذا بال في هذا الصدد، بل الذي روى لنا هو العكس تماماً، فإذا حرم الامام أبو حنيفة والامام مالك والامام بن حنبل الشطرنج تحريماً أقرب إلى الكراهة أو كرهوها كراهة أقرب إلى التحريم، فإن الامام الشافعي بالمقابل برغم كراهته إياه، بدا من الكارهين له تنزيهاً فقد لعب به حاضراً ومستدبراً، وهذا يؤكد أن القول بالاجماع في القضية باطل أساساً.

١٠ ــ وهو أهم الجميع.

إن ما ذكر من بعض الصحابة من أنهم لعبوا الشطرنج تارة أو توعدوا وأنذروا من يلعب بها



که از صاعقهٔ عشق عکس پذیر بود و چون جام جهان نما همه چیز در وی می نمود بر

ایوان حسن افتاد و عکس در دم حاصل شد از آنجا برق شوقش درخشان گردید

برگشت و شیفتهٔ حضرت شیخ مجد الدین بغدادی گشت و چون معلوم کرد که او به

بشطرنج [illegible] است از آن روی که اول تانیس و بعد از آن تشویق و آخر همه

در عرصهٔ انس بیاذ دوانید تا اسبی زند شهمات شد و حضرت شیخ عراقی

در کتاب ده فصل آورده آنجا که فرموده مثنوی

یکی از عاشقان جمال ترا	بود نجم اکابر کبری
آن معین شریعت احمد	آن قرین دل و [illegible]

نجم الدين كبرا يلعب الشطرنج مع تلميذه مجدالدين بغدادي — مُصَغَّر إسلامي من القرن الثالث عشر.

بعبارات فيها شدة الترهيب، لا بد أن ينظر إليه هنا وهناك نظرة تحليلية نقدية لا تتوقف عند الألفاظ والعبارات المروية، فمن جهة يمكن الظن بأن الروايات السالبة والروايات الموجبة تتعلق بموضوع غير موجود أساساً بمعنى أنها تتعلق بـالنرد وليس بـالشطرنـج، وإنما خلط الرواة بينهما، لأنهم لم يكونوا على معرفة جيدة بالفارق بينهما. ومن جهة ثانية، قد يفترض الباحث أن بعض الصحابة والتابعين الذين ذكروا أشياء حول الشطرنج (أما سلباً أو إيجاباً) إنما رووا أحاديث موقـوفة كـان اللفظ لهم «للصحـابة» أو أحاديث مقطوعة، أي كان اللفظ للتابعـين، ولم يكن من بينها مرفوع أي من لفظ رسول الله نفسه، فقد يحتمـل أن هؤلاء رأوا الشـطرنج أو شـاهدوا بعض الأقـوام يلعبون بـه خلال أسفارهم ورحلاتهم وفتـوحهم للبلدان، فأدلوا برأيهم اجتهاداً منهم كما وقع لكثير من السلف الصالح في الأمور التي بدأ الحديث عنها يتفاوت كثرة وقلة بعدة وفاة الرسول صلوات الله عليه وعـلى آله وسلم، وإذا لاحـظنـا أن بعضهم كأبـي هريرة لم يكونوا من الحجاز، وإنما جاؤوا من اليمن (فأبو هريرة من بني سدوس، قبيلة يمنية) وأن غيره ربما جاء من بلاد الروم، من بيـزنطيـة، وهناك إشـارات إلى هذا وذاك في الروايات التي سبق ذكرها، فهذا كله يعـطي الفكرة الحاسمة أن الذين تعرضوا للشطرنـج بلفـظه الصريـح، أما أنهم قصـدوا به كمـا استنتجنا النرد بصورة المتنوعة التي كان بعضها في أطوار التاريخ الأولى يشبه إحدى مـراحل الشطرنج كما أسلفنا عن لعبة الشاطورنجـا، وطريقة لعبها بالنرد بالسابق ولغاية القرن الثالث عشر عند البعض، وأما أنهم عرفوا الفارق بين الأمرين ولكنهم اجتهاداً منهم قاسوا الشطرنج على النرد.

وهكذا لا نملك أي مستند شرعي أو عقلي يحملنا على الظن (مجرد الظن) بأن تلك اللعبة المجهولة كنها وحقيقة وتاريخاً كانت محـرمة. فالقاعدة الأصولية تقول: الحكم على الشيء فرع عن تصـوره، ولا شك أن تصـورهم لحقيقـة الشطرنج يدل دلالة قاطعة على عجـز أكثرهم وربما على عجزهم جميعاً عن الحكم عليه بالحرمة أو بالاباحة، وما دام الأمر كذلك، وما دمنا قد اطلعنـا على تلك الأطوار التـاريخية الخـاصة بالشطرنج منفرداً. والمشتركة بينه وبين النرُد ونظائره ولما كان اطلاعنا على هذه الأمور كلها ساعدنا على التمييز بينها، ورأينا بصورة حتمية لا تقبل النقاش والجدل أن الشطرنج في صورته المشهورة عربياً وإسلامياً ولا سيما في أواخـر العصر الأموي وأواسط العصر العبـاسي كانت خالية من المقامرة والمرهنة والعوض، وكذلك في عصرنا الحاضر، حيث إطلاقاً لمثل ذلك، فلا تدخل أبداً في باب القمار ولن يصح قياسها حتى على العاب الحظوظ.

فالشطرنج (كما بدأنا هذا الحديث) هو لعبة لحمتها العقل، تشحذ الذهن، وتعلم الناس على التخطيط والتركيز، والشطرنج كما قال صاحب البيان، موضوع على تعلم تدبير الحرب، وربما يتعلم الانسان بذلك، وكل سبب يتعلم به أمر الحرب والقتال كان مباحاً. بدليل أنه مـا من مدرسة حـربية اليـوم إلا ويتعلم بها طلابهـا الشطرنج، وما من قائد كبير ذكره التاريخ إلا وكان لاعباً للشطرنج.

ونسأل الله في الختام أن يكون ما رأيناه هو عين ما يستلهم من روح الشريعة التي تسمح للانسان حين يرفه عن نفسه بما يشحذ ذهنه، أنه في الوقت نفسه، يعبد ربه ويتقرب إليه، بأن أقدره على تنشيط نفسه في عبـادته كمـا أمر عز وجل، وما خلقت الأنس والجن إلا ليعبدون.

أيها القارىء، لقد أوجزت لك تقريباً ما كتب عن الشطرنج، ورأينا الصريح به، ولك الأمر بعد ذلك أن تلعب به، أو لا تلعب، أن تحرمه على نفسك أو تجيزه كمـا فعلنا نحن في الاتحـاد العربـي للشطرنج، وفي كل دولة إسلامية فيها شـطرنج، ولكني أحب في النهـاية أن أذكـرك بالحديث الشريف.

سلوا النفـوس، فإنهـا تصدأ كمـا يصـدأ الحديد، انتخبوا لها طرايف الحكمة. والشطرنج كما قال ابن ماسويه لهرون الرشيد، عندما سأله ما تقول في الشطرنج؟ قال: يا أمير المؤمنين، وهل معـرفة لطيفـة أو لذة جسيمة تـوجـد إلا في الشطرنج؟ أما علمت أن من مضى من الحكماء كانوا يسمونها قلادة الحكمة.

تاريخ فلسطين في العصر القديم

■ عبد الرحمن المزين



□ خريطة فلسطين عليها المواقع الأثرية بالأسماء الكنعانية.



من الأزل سكن أجدادنا العرب الكنعانيون فلسطين.

ومنذ ٢٨٠٠٠٠ سنة قبل الميلاد عاشوا في كهوف ومغارات الكرمل، والطابون والسخول، وفي أم قطفة، الوادي، الزطية، الأميرة، والقفزة، ووادي الأردن.

منذ ١٥٠٠٠٠ سنة قبل الميلاد عرفوا استخدام النار.

منذ ٣٥٠٠٠ سنة قبل الميلاد عرفوا فن الرسم على جدران مغارات بئر السبع، وكهف أم قطفة.

منذ ١٥٠٠٠ سنة قبل الميلاد، استأنسوا الحيوانات، وهي البقر والماعز والأغنام.

منذ ١٢٠٠٠ سنة قبل الميلاد، عرفوا زراعة القمح والشعير، وبنوا قراهم الأولى، ذات القباب، في عين ملاحة، وعينات، ومرتفعات وادي النطوف.

منذ ٧٨٠٠ سنة قبل الميلاد، بنوا أقدم مدينة في العالم القديم، وهي مدينة أريحا، وأحاطوها بسور ضخم.

منذ ٦٨٠٠ سنة قبل الميلاد، عرفوا نظام المباني التي تلتف حول باحة تتوسطها، والأبواب ذات الأقواس، والتحصين المعماري المكون من أبراج وأسوار وخنادق، كما بنوا أول معبد كنعاني متكامل للمعبودة «عناة»، وعرفوا أيضاً فن النسيج.

منذ ٥٥٠٠ سنة قبل الميلاد، عرفوا الفخار المحروق، والزخرفة عليه.

منذ ٤٥٠٠ سنة قبل الميلاد، عرفوا صناعة النحاس، والزراعة بالري، وفن الرسم بالفريسكو، وفن التطريز.

منذ ٤٠٠٠ سنة قبل الميلاد، قدسوا الحمام رمز السلام، وصنعوا الشمعدانات المعدنية.

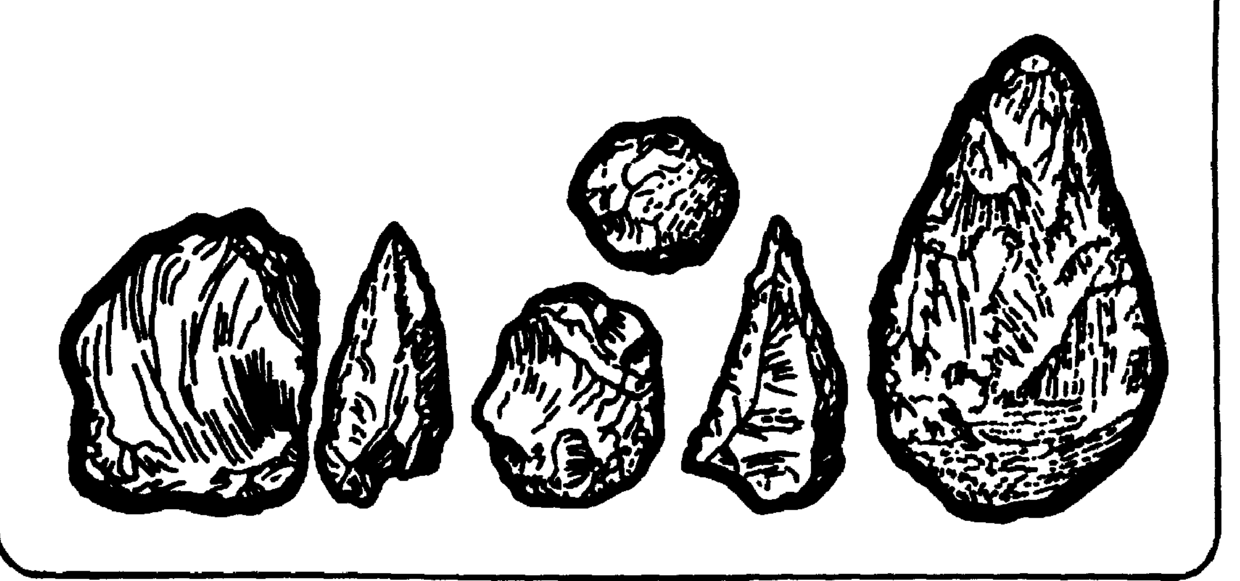
منذ ٣٥٠٠ سنة قبل الميلاد، ذكرت مدنهم الكنعانية، ومنها شكيم، أورشالم، اريحو، في نصوص ايبلة.

منذ ٣١٠٠ سنة قبل الميلاد، توصلوا إلى تصنيع البرونز، وأسلحة القتال، واستغلوا أرز الغور في بناء معابدهم ومساكنهم، واكتشفوا الصباغة بالأرجوان، واكتسبوا تسميتهم منها.



□ نحت يمثل احد رؤوس اهل فلسطين الذين عاشوا في العصر الحجري المتوسط وقد عثر على هذا النحت الحجري مع رؤوس تماثيل اخرى صغيرة داخل منازل قرى عين ملاحة، شمالي غربي بحيرة الحولة، وقد شكلت من الحجر. وتعتبر اقدم امثلة النحت في الشرق الادنى القديم.

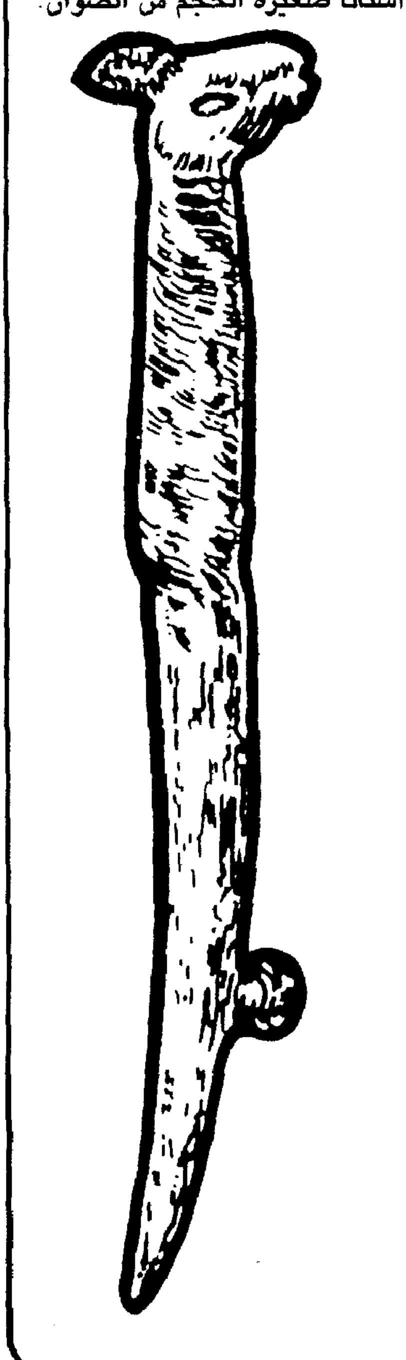
□ أدوات وأسلحة مختلفة: فؤوس يدوية، ومكاشط وسواطير، وبلطات يدوية، وقد عثر عليها المنقبون في كل مغارات وكهوف جبل الكرمل، والزطية وأم قطفة، وتاريخها يعود إلى الفترة ما بين ٢٨٠٠٠٠ ـ ١٥٠٠٠ سنة قبل الميلاد.





□ صورة تخطيطية «لأريحا»، أقدم مدينة في العالم القديم، بنيت على مساحة تقدر بحوالي ٤٢٠٠٠ متر مربع، ويسكنها ٣٠٠٠ نسمة، وبيوتها على شكل قباب، ويحيط بالمدينة سور ارتفاعه عشرة أمتار، وأبراج دائرية من الحجر بنيت لحمايتها ويعود تاريخها إلى ٧٨٠٠ سنة قبل الميلاد.

□ منجل حصاد عثر عليه في مغارة كباران، ويعود إلى مرحلة العصر الحجري المتوسط منذ ١٢٠٠٠ سنة قبل الميلاد. وقد عثر على اعداد كبيرة من المناجل في قرية عين ملاحة وعينات ومرتفعات المنطوفية، ومدينة اريحا. وقد شكلوا مقابضها من العظم على هيئة رؤوس الحيوانات، ومنها الابل والثيران، وثبتوا على نصالها اسناناً صغيرة الحجم من الصوان.



منذ ٢١٠٠ سنة قبل الميلاد، صنعوا العربات الحربية التي تجرها الجياد.

ومنذ ١٧٣٠ ـ ١٥٨٠ سنة قبل الميلاد، قامت أول وحدة قومية بين الممالك الكنعانية في سوريا ولبنان وفلسطين والأردن، بل كونوا جيشاً ضارباً حكم مصر قرابة قرن ونصف قرن من الزمان.

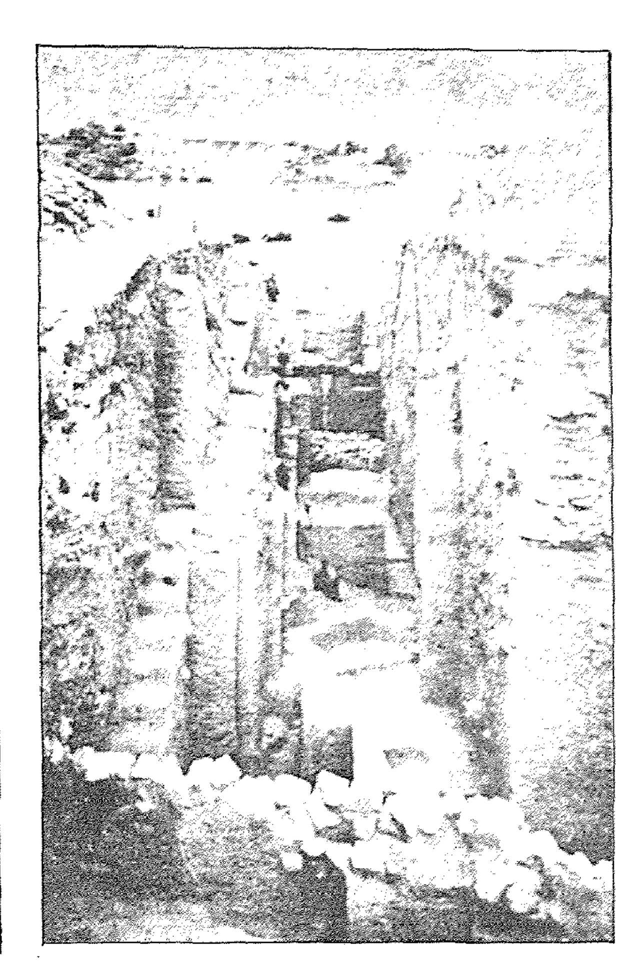
وعرفوا لدى المصريين باسم «حقا وخاسوت»، وفي العصر القبطي أطلقوا عليهم اسم الهكسوس. وقد تفوقوا في الصناعات الحربية: العربات، السيوف المعقوفة، الخناجر، السهام والرماح، الأقواس المزدوجة، الدروع، الأحزمة البرونزية. وكانت مجدو مركز الصناعات الحربية الكنعانية في مرج ابن عامر، وتعرف حالياً باسم «تل المتسلم».

كما تميزوا بالصناعات العاجية، والملابس المطرزة، والأرجوانية، ومنذ ١٥٠٠ سنة قبل الميلاد ازدادت الصلات التجارية بين جزر البحر الأبيض المتوسط وبين الكنعانيين العرب، الذين أطلق عليهم اسم الفينيقيين. وقد استقرت جاليات كنعانية في جزر هذا البحر، وبخاصة في

مالطة، وكريت، وقبرص، منذ عصر البرونز المبكر، وكثر عددهم خلال عصر البرونز المتوسط والمتأخر.

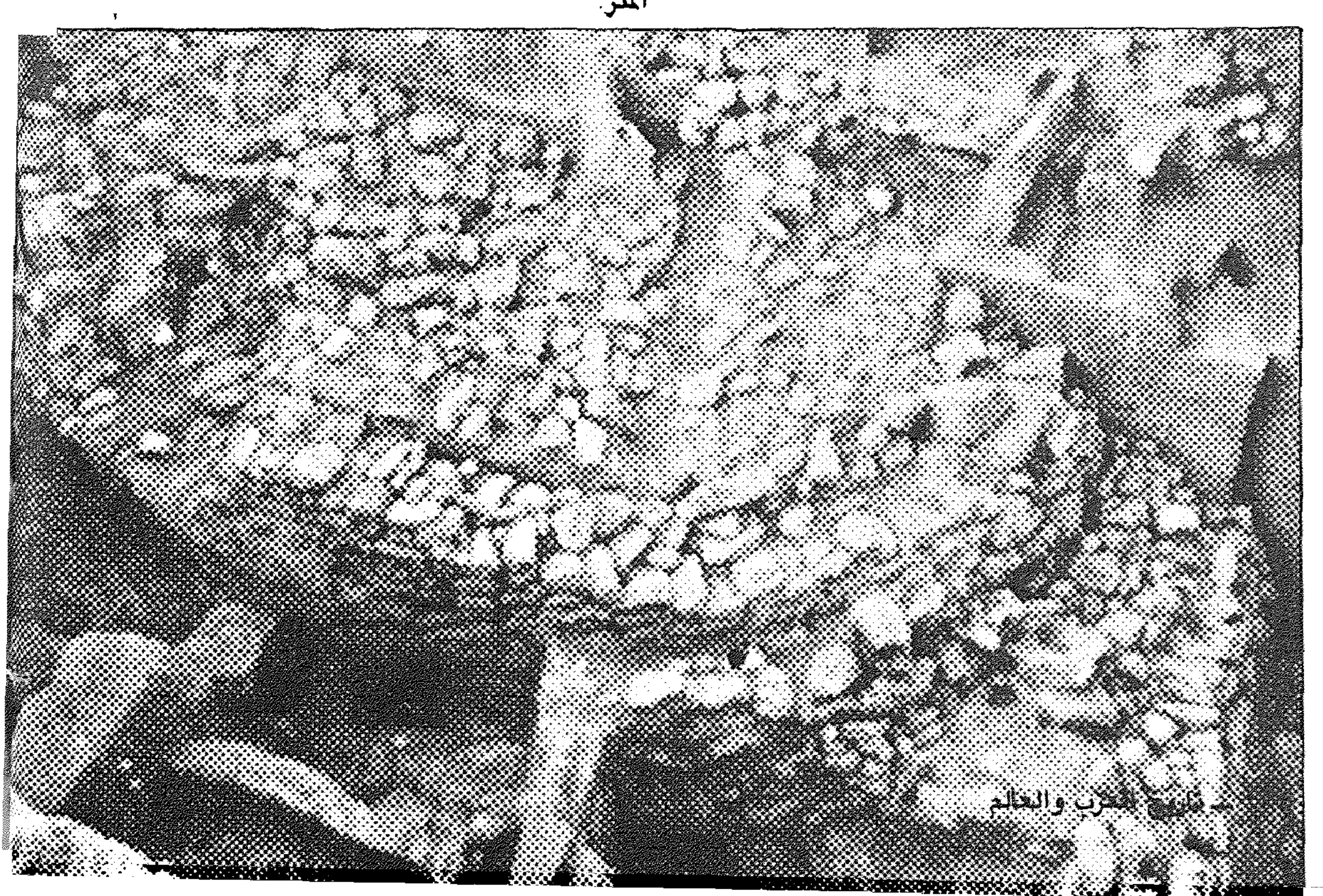
منذ سنة ١٥٨٠ إلى سنة ١٤٤٧ قبل الميلاد، قامت عدة معارك بين الجيش المصري والممالك الكنعانية «الهكسوس»، حيث رفضوا سيطرة مصر عليهم. وقد تكررت المعارك بعد ذلك، وبخاصة ما بين ١٤٠٠ ــ ١٢٠٠ قبل الميلاد، ومنذ ١٣٥٠ سنة قبل الميلاد عرفوا صناعة الأسلحة الحربية من فلز الحديد الطبيعي.

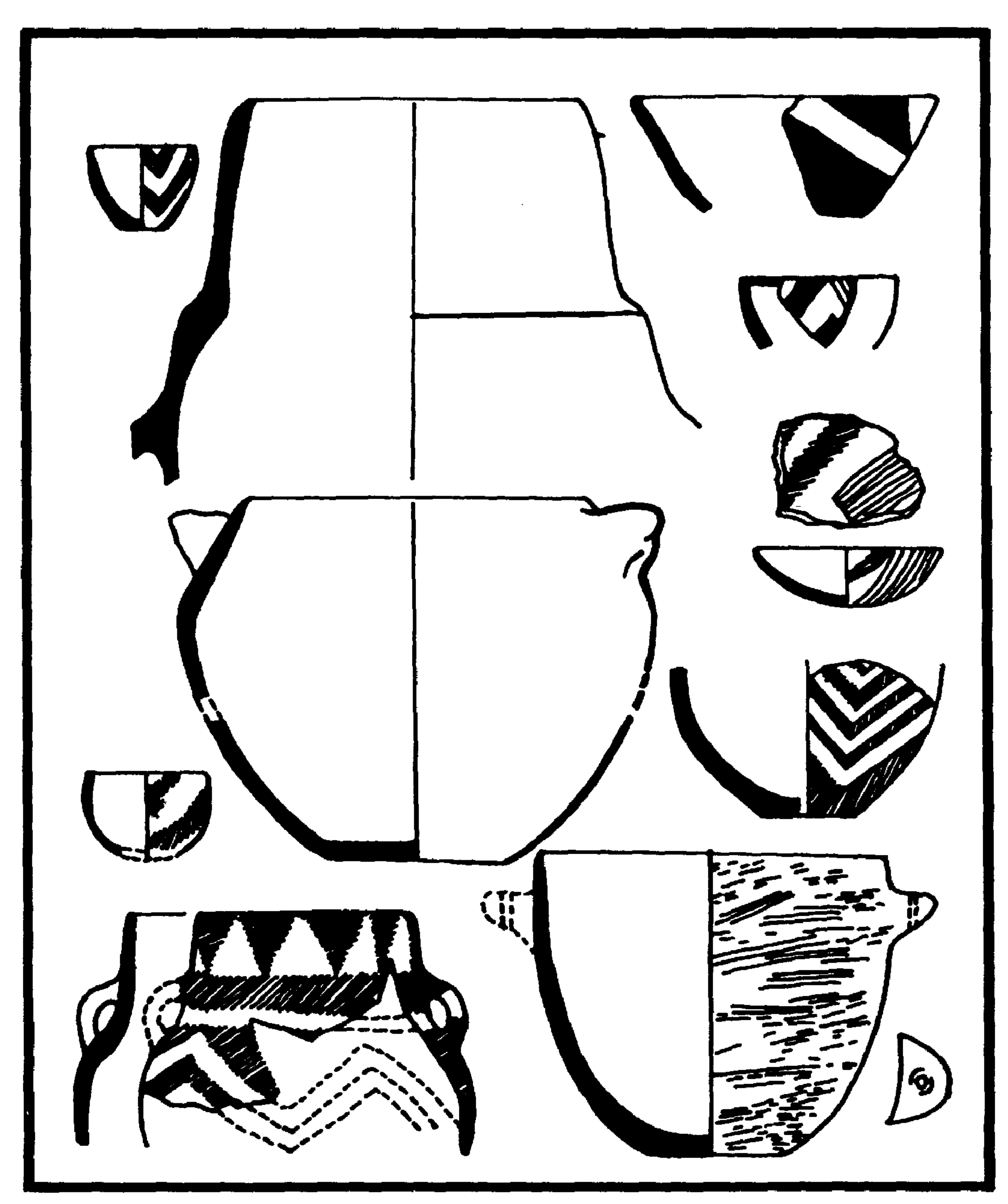
منذ سنة ١٢٠٠ قبل الميلاد غذّى الساحل الكنعاني قبائلُ من جزر البحر، ومن بينها قبيلة البولستا، وهي من أصل عربي كنعاني، وكانت هذه القبائل راجعة من حيث مضت، بعدما هزمها الجيش المصري براً وبحراً سنة ١١٩٨ قبل الميلاد، باستثناء قبيلة البولستا التي استقرت بين أهلها من الكنعانيين.



□ منظر عام لتحصينات ومباني مدينة أريحا، حيث تظهر المباني التي تلتف حول باحة تتوسطها وتاريخها يعود إلى ٦٨٠٠ سنة قبل الميلاد.

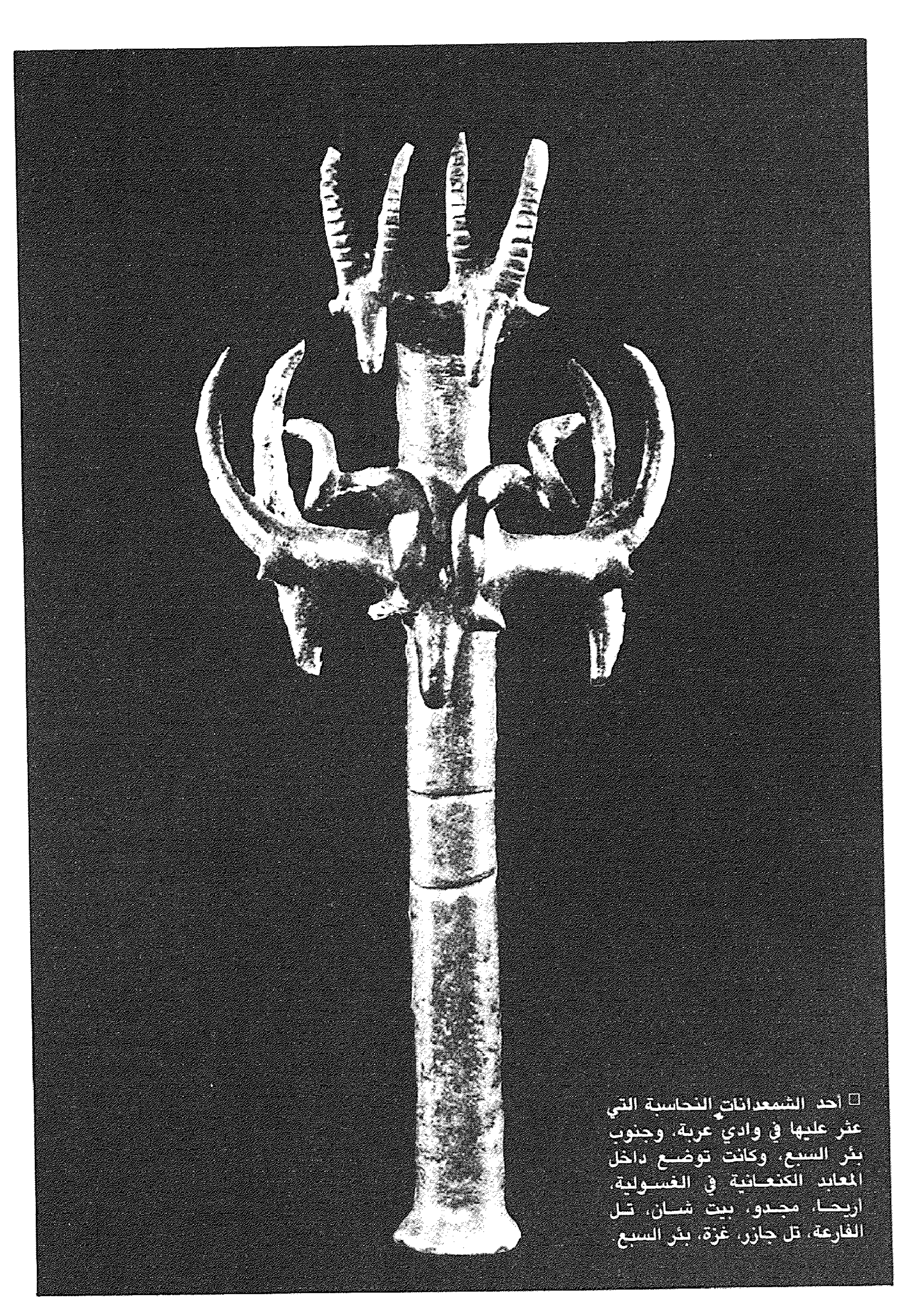
□ أحد ابراج اريحا، يعود تاريخه إلى ٦٨٠٠ سنة قبل الميلاد وهو دائري الشكل، ارتفاعه حوالي عشرة امتار. بداخله سلم حجري يوصل إلى قمة البرج. ويتكون من ٢٨ درجة لصعود المقاتلين إلى الأعلى، وقد بلغ عرض درجات السلم الحجري حوالي متر ونصف المتر.





□ آنية فخارية عثر عليها في مدينة اريحا، وتاريخها يعود إلى ٥٥٠٠ سنة قبل الميلاد.

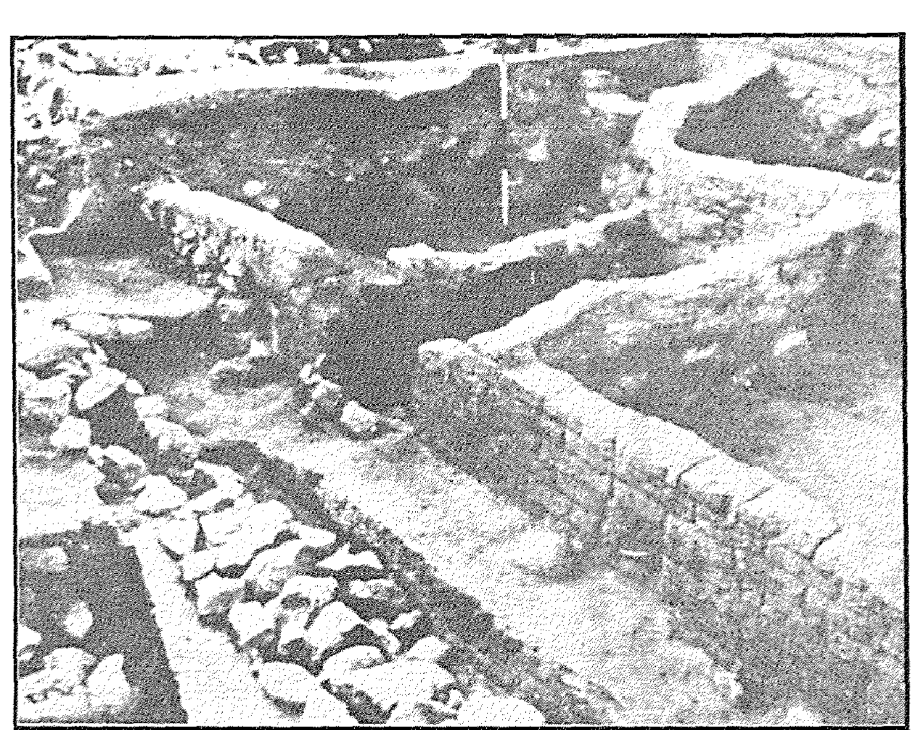
ومنذ سنة ١١٠٠ قبل الميلاد، تقريباً، تعرضت فلسطين لهجمات جماعة خليطة، وقد احتلت مدينة أريحا وشكيم وأورشالم، وذلك منذ سنة ١٠٠٠ إلى ٩٢٣ قبل الميلاد، واستقرت مجموعة من ذلك الخليط في شكيم، وأخرى في أورشالم، حاكمة هاتين المدينتين بسكانها الكنعانيين، وقد زال حكمهم من شكيم على يد سرجون الثاني، سنة ٧٢٢ قبل الميلاد، ومن اورشالم سنة ٥٨٦ قبل الميلاد على يد نبوخذ نصر. وفي هذه الفترة كانت الممالك الكنعانية في سوريا القديمة خاضعة للامبراطوريتين العربيتين: الآشورية ثم البابلية



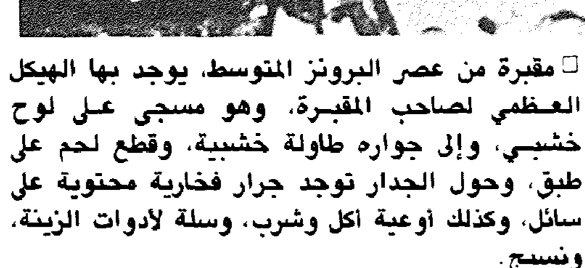
□ أحد الشمعدانات النحاسية التي عثر عليها في وادي عربة، وجنوب بئر السبع، وكانت توضع داخل المعابد الكنعانية في الغسولية، اريحا، مجدو، بيت شان، تل الفارعة، تل جازر، غزة، بئر السبع.

□ رسم تخطيطي لمبنى عثر عليه في خربة كراك بالقرب من بيت يراح. وتاريخه يعود إلى ٢٨٠٠ سنة قبل الميلاد.

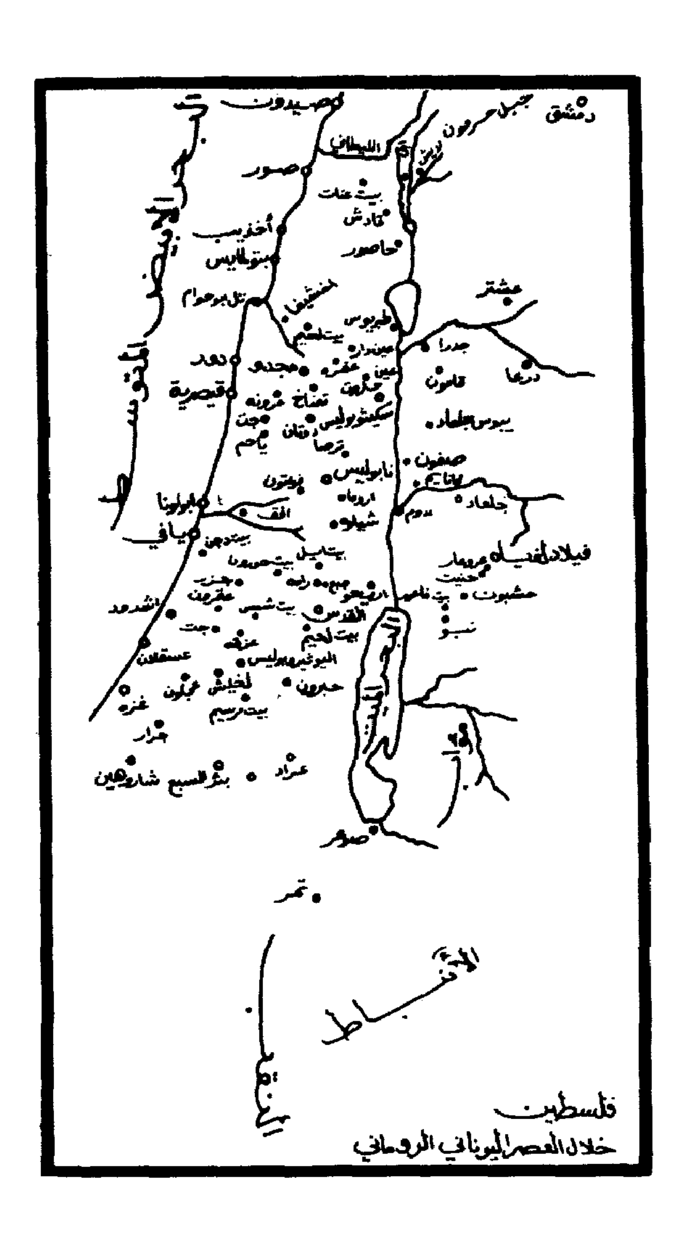
□ منازل من عصر البرونز المتوسط، عثر عليها في أريحا.



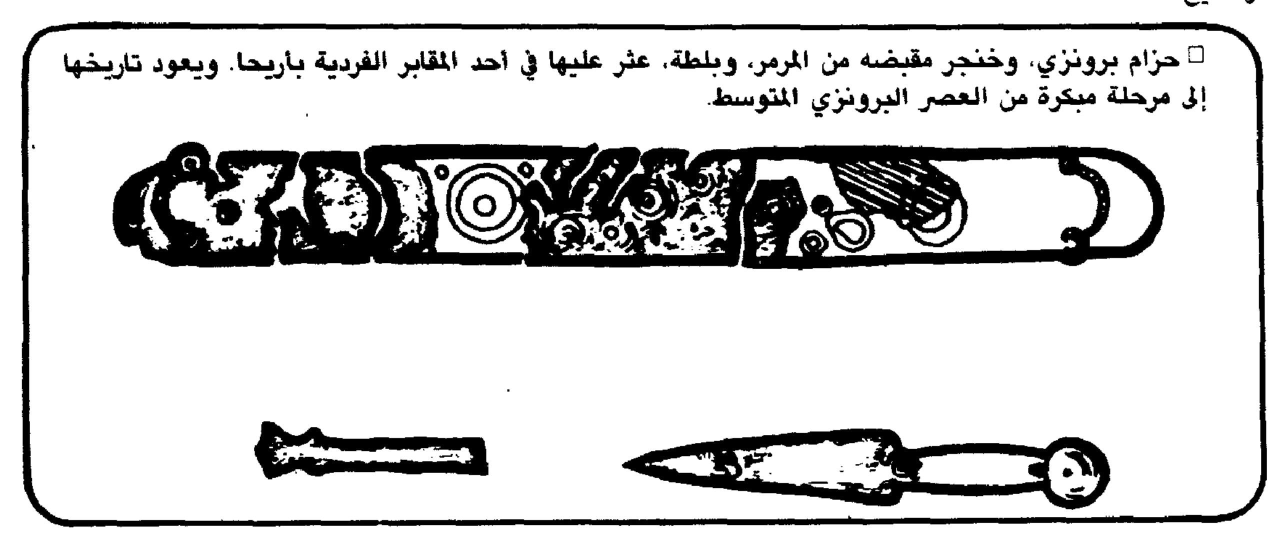




□ مقبرة من عصر البرونز المتوسط، يوجد بها الهيكل العظمي لصاحب المقبرة، وهو مسجى على لوح خشبي، وإلى جواره طاولة خشبية، وقطع لحم على طبق، وحول الجدار توجد جرار فخارية محتوية على سائل، وكذلك أوعية أكل وشرب، وسلة لأدوات الزينة، ونسيج.

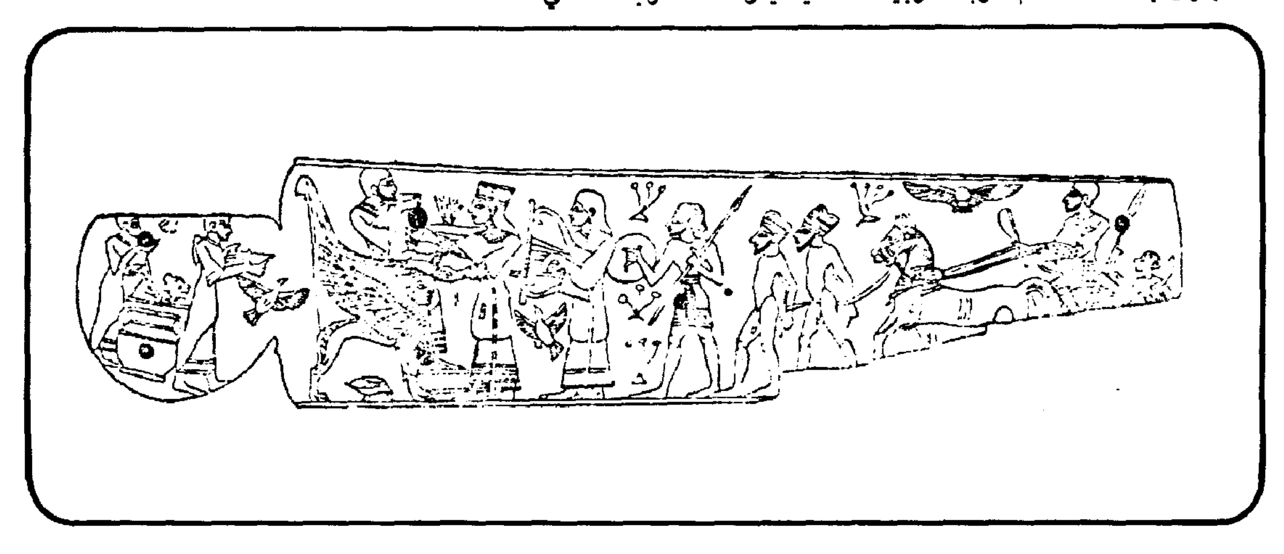


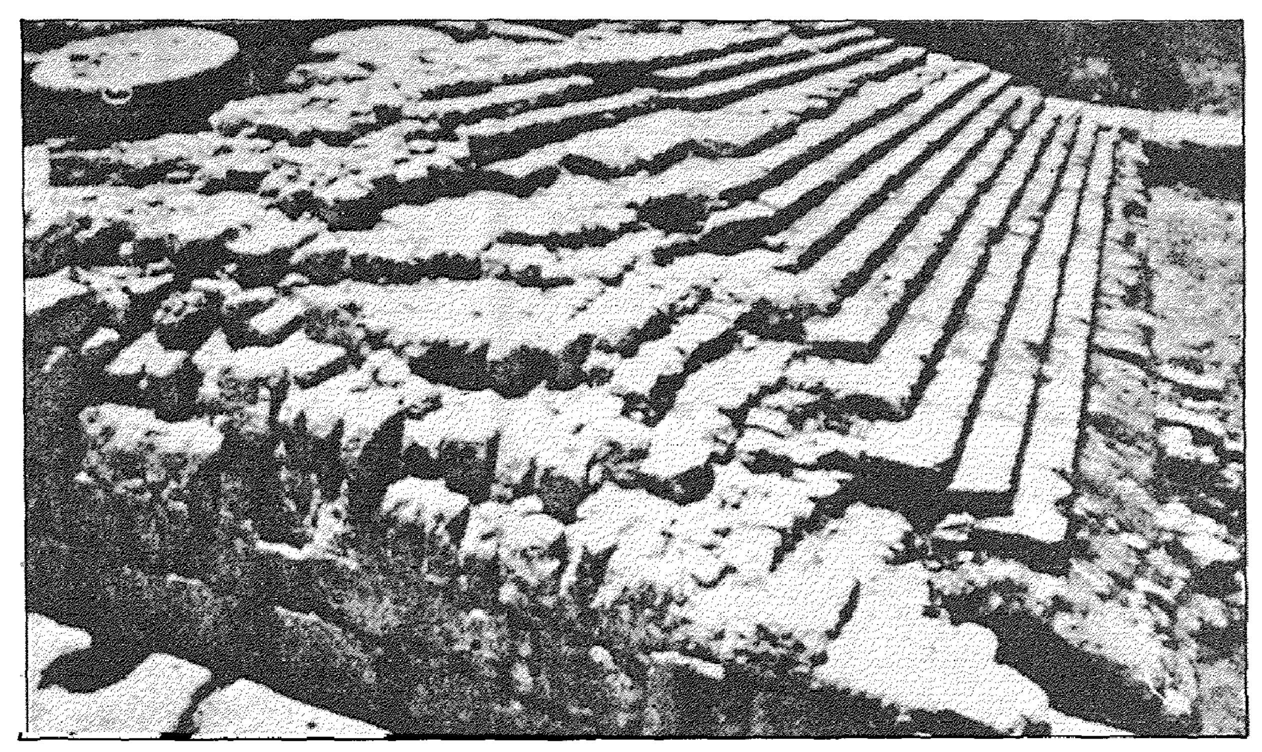
□ حزام برونزي، وخنجر مقبضه من المرمر، وبلطة، عثر عليها في أحد المقابر الفردية بأريحا. ويعود تاريخها إلى مرحلة مبكرة من العصر البرونزي المتوسط.



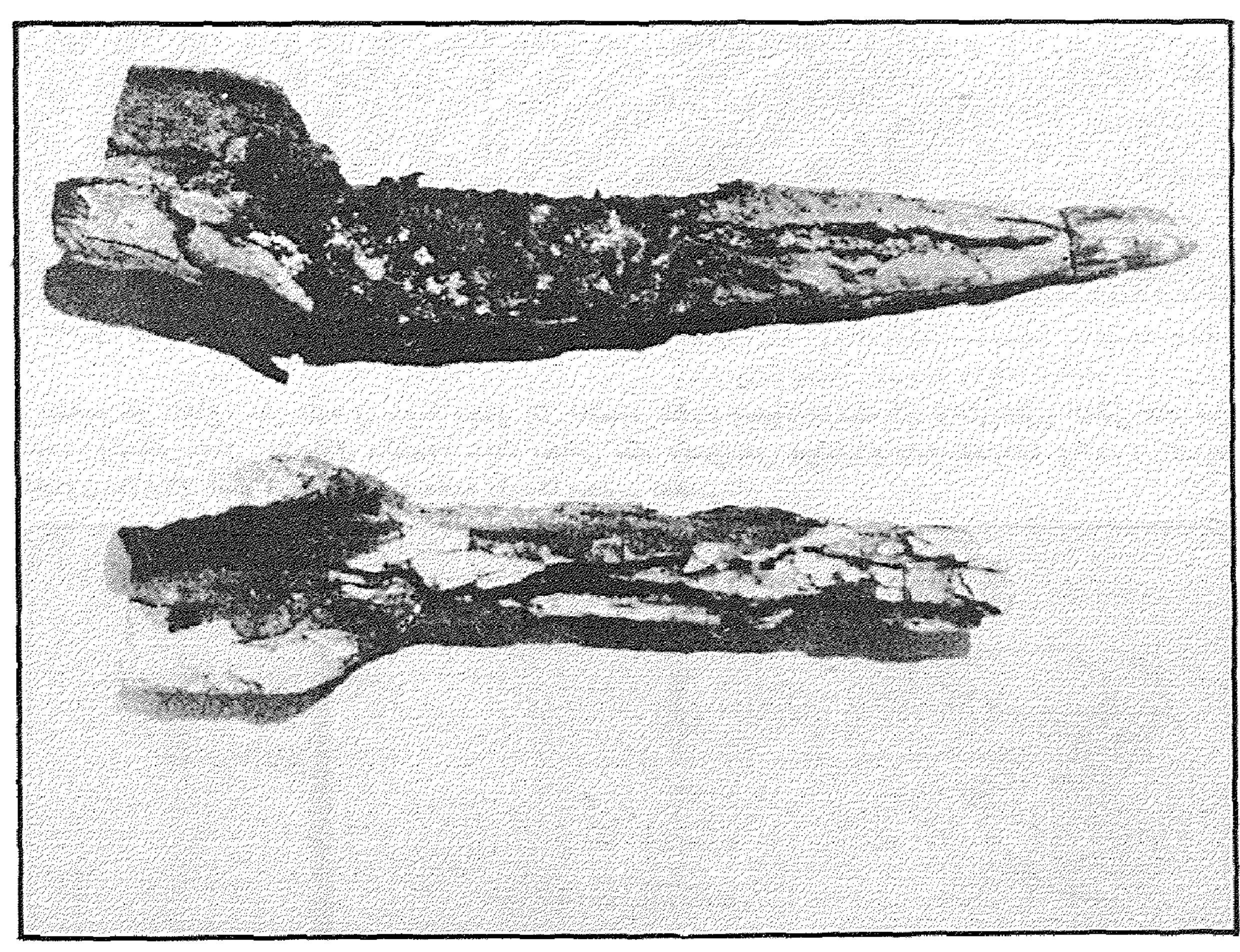
□ المدرج الروماني في بيسان (تل الحسن).

□ تطعيم على العاج، عثر عليه في مدينة مجدو (تل المتسلم حالياً) ويعود تاريخه إلى أوائل القرن الثاني عشر قبل الميلاد. والنقش يمثل «الاحتفال بالنصر» حيث يجلس ملك مجدو على عرشه، وأمامه العازفات والأسرى اليهود المكبلون بالأغلال. أمام عربة حربية كنعانية يقودها محارب كنعاني.

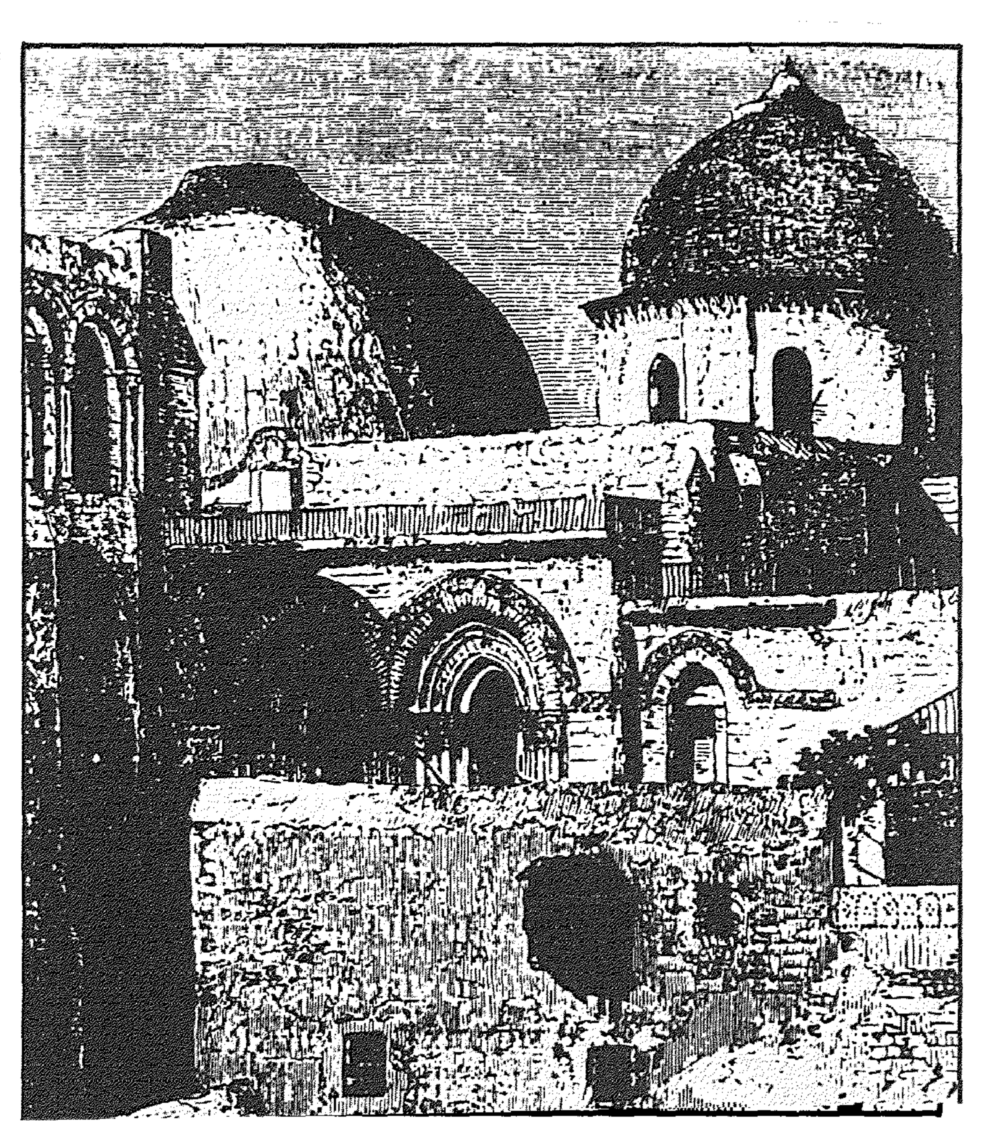




□ درج روماني من سبسطية.



□ محراث من الحديد يعود تاريخه إلى القرن الثامن قبل الميلاد. عثر عليه في مدينة اورشالم (القدس).



□ القدس القديمة

الكلدانية (٦٠٥ ــ ٥٢٨ قبل الميلاد).

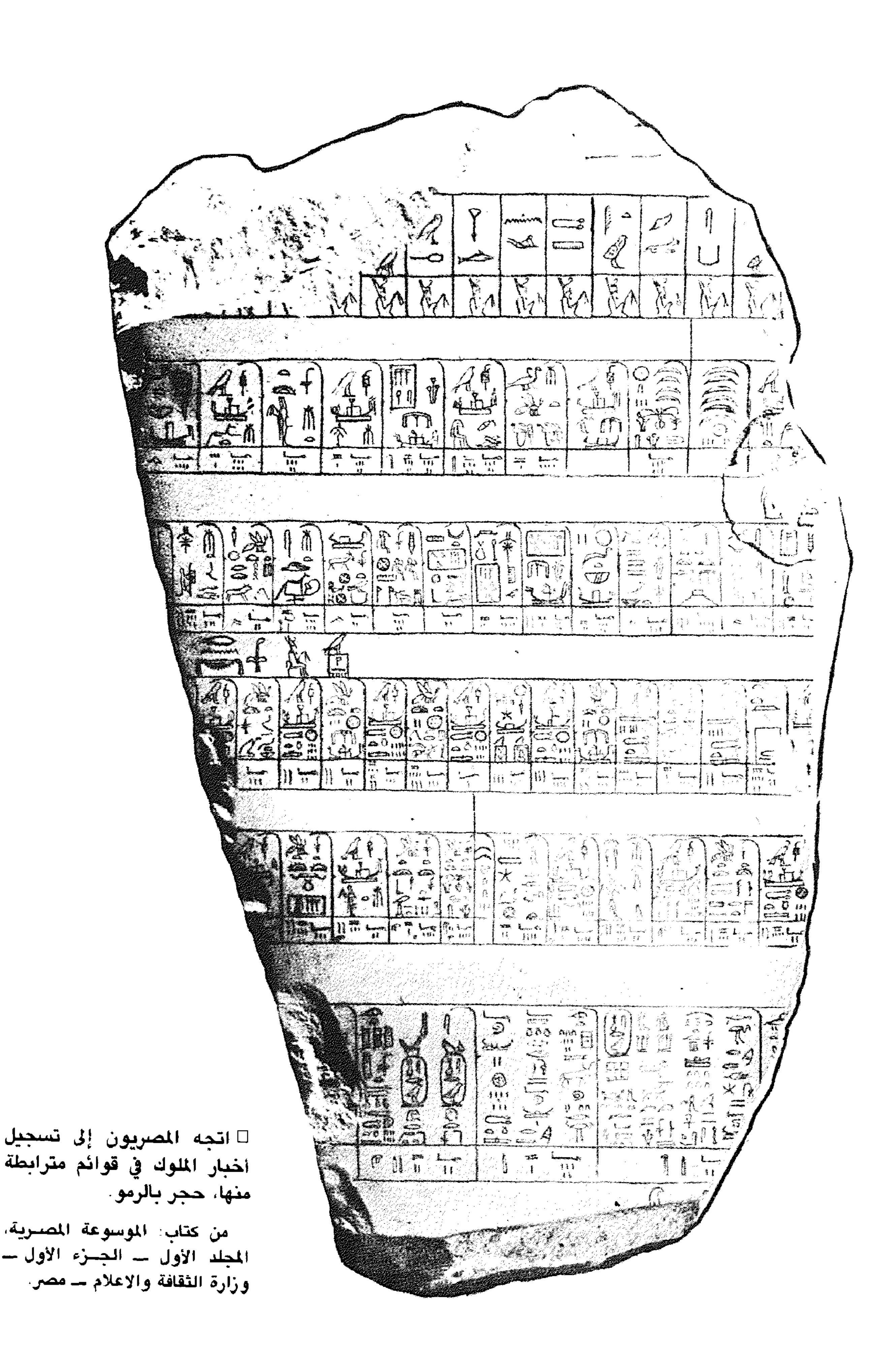
منذ سنة ٥٣٨ إلى ٣٣٢ قبل الميلاد، دخلت فلسطين تحت الاحتلال الفارسي، وبقي فيها أهلها الكنعانيون العرب.

ومنذ سنة ٣٣٢ إلى ٦٣ قبل الميلاد وقعت فلسطين تحت الاحتلال اليوناني، وبقي فيها أهلها الكنعانيون العرب، حيث أطلقوا اسم السوريين، وتشمل هذه التسمية سوريا، لبنان، الأردن، وفلسطين.

ومنذ سنة ٦٣ قبل الميلاد إلى ٣٢٣ بعد الميلاد وقعت فلسطين تحت الاحتلال الروماني. ومنذ سنة ٣٢٣م إلى ٦٣٨ ميلادية وقعت تحت الاحتلال البيزنطي، إلى أن دخل الخليفة عمر بن الخطاب مدينة القدس سنة ٦٣٨ ميلادية، فعادت فلسطين حرة من جديد.

وأخيرا، يجدر بالذكر أن سكان فلسطين مروا بتسميات كثيرة، منذ العصر الحجري القديم وحتى الآن، ومنها «الكنعانيون»، وذلك في نهاية عصور ما قبل التاريخ إلى بداية عصر الحديد. ومن ثم «الكنعانيون الفينيقيون»، في مطلع عصر الحديد حتى بداية العصر اليوناني الروماني، وكانوا يسمون بـ «السوريين» إلى حين دخول الخليفة عمر إلى القدس في العام ٦٣٨م، ثم أطلق عليهم اسم «الشوام» وقد شملت هذه التسمية، إضافة إلى سكان فلسطين، مجموع سكان سوريا القديمة.

ومن الجدير بالذكر، أيضاً، أن المصريين أطلقوا على سكان سوريا القديمة اسم «البدو»، ومن ثم أطلق عليهم اسم «عريبي»، في عصر الحديد الثاني، وهي كلمة مرادفة لـ «بدوي»، كانت تطلق على كل كنعاني، أو عموري، غير مستقر في المدن. ●



□ اتجه المصريون إلى تسجيل أخبار الملوك في قوائم مترابطة منها، حجر بالرمو.

من كتاب: الموسوعة المصرية، المجلد الأول ــ الجزء الأول ــ وزارة الثقافة والاعلام ــ مصر.